يوميات أب مغترب

سِمَان

مذكرات

عدنان فطاني

دار بسمة للنشر الالكتروني

عدنان فطاني

اسم الكتاب: يوميات أب مغترب

اسم الكاتب: عدنان فطاني

نوع العمل: مذكرات

الرقم الدولي EBIN: 16-1-225-230416

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1444هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

يوميات أب مغترب

مذكرات

عدنان فطاني

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى سفيان ومالك وأحمد وتوفيق ..

إلى القلب الذي ينبض بداخلكم ..

إلى النجمة التي تُضْوي بداخلي ..

إلى مَن سكن ذاكرة قلمي ..

إلى مَن لا يزال يسكنها ..

28 ديسمبر 2021م

اليوميات!!

لم أخرج من المنزل، واكتفيتُ بوجبة واحدة بعد الثانية ظهرًا، وجلستُ أقرأ في يوميات فرناندو بيسوا، وهو شاعر وكاتب وناقد أدبي وفيلسوف برتغالي، ولد في لشبونة 13 يونيو 1888، وتوفي في المدينة نفسها إثر تشمع في الكبد في 30 نوفمبر 1935. تذكرني يوميات فرناندو بمذكرات كاتب صيني يدوّن يومياته بطريقة مملّة، لكن الصيني أكثر إملالا وتفصيلا وإخلاصًا ليومياته فيكتب نوع العصير الذي شربه، ولون الجورب الذي ارتداه، لعلي أتذكر اسمه فأنقله للذّكرى. بعد ثلاث صفحات من يوميات فرناندو تركته مللًا. ثم شرعتُ في قراءة الكتاب التالي في قائمة القراءة: (بدر شاكر السّياب رائد الشّعر الحُرّ) عبد الجبار داود البصري. والسّياب شاعر عراقي ولد بجيكور سنة 1926، وتوفي سنة 1964 بالكويت، ودفن بالبصرة، وقد أبرز عبد الجبار داود أهم المحطات في حياة السياب تأثيرًا في شعره، كما أبرز الخصائص الشعرية لديه.

وقد انتقيت من القراءة أربعة أبيات، نقلتها في صفحتي على (الفيس بوك):

وإذا رأيْنَ النوحَ والشكوى، كلٌ تقولُ: مَنِ التي يهوى؟

وسترتمي نظراتهنّ على الصفحاتِ بين سطوره نشوى

ولسوف ترتجّ النهودُ أسًى، ويثيرها ما فيه من نجوى

ولربما قرأتْهُ فاتنتي، فمضتْ تقولُ: مَنِ التي يهوى؟

ثم شرعتُ في قراءة (الأمثال السائرة في شعر المتنبي والروزنامجة) للصاحب بن عبّاد، رافضي، أحد كبار علماء وأدباء الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وكان وزيرًا في الدولة البويهية، ولد سنة 326، وتوفي سنة 385، ودفن بأصبهان. انتقيتُ من (الأمثال السائرة) أبرز الأمثال الشعرية الجميلة في شعر المتنبي فهو انتقاء من انتقاء، وقرأتُ (الروزنامجة) التي هي أشبه بيوميات الصاحب بن عباد في مجالس الملوك والأدباء. وهذه (الروزنامجة) لم يعتمد المحقق في إخراجها على نسخة خطية، وإنّما نقلها من كتب الأدب التي نقلت تلك المجالس، فهي ملفّقة.

الاختلاف في الحبّ

الليلة مثل كل ليلة أقضيها في القراءة وشرب القهوة السوداء، وقد أحاول الكتابة. في صحبتي هذه الليلة كتاب (مدح الحبّ) حوارات الفرنسي آلان باديو حول فلسفة الحب، حملت فصولها عناوين عدّة (الحب تحت التهديد، الفلاسفة والحبّ، بناء الحبّ، حقيقة الحبّ، الحب والسياسة، الحبّ والفن). وهو فيلسوف فرنسي ورئيس سابق للفلسفة في المدرسة العليا، ومؤسس كلية الفلسفة بجامعة باريس الثامنة مع جيل ديلوز وميشيل فوكو وجان فرانسوا ليوتارد. كتب باديو عن مفاهيم الوجود والحقيقة والحدث والموضوع بطريقة -كما يزعم- ليست ما بعد الحداثة، ولا مجرد تكرار للحداثة. ولد آلان في 17 يناير 1937 (83 عامًا) في الرّباط المغرب.

وقد خرجت من القراءة بهذه الكلمات: (الحبّ: لقاء، اختلاف، بناء، تكامل)، (الحبّ الحقيقي: هو الحبّ الذي ينتصر باستمرار)، (الحبّ: إعادة ابتكار الحياة)، (الجنس: هو الاستسلام الجسدي للحبّ،

هو الرمز المادي للحبّ). ومما يقوله في هذا الكتاب: الحبّ عبارة عن اثنين مختلفين، صارا شيئًا واحدًا.

علقت هذه الفلسفة في رأسي؛ ورحت أتأمل الزيجات السعيدة التي أعرفها، فإذا بها تألّفت من اثنين مختلفين أشدّ الاختلاف، اختلاف ظاهر لا تخطئه العين، وأبرز سماته عندي المستوى الفكري والعلمي المتفاوت. ولكنها زيجات ناجحة. فهذه الفلسفة تشير إلى هذا التوازن الذي يحدثه هذا الاختلاف داخل الأسرة. ولرّبما دبّ الملل في حياة المتوافقين، فانطفأت شموعهم بعد تراقص شعلتها على أنغام الهوى دهرًا.

الخميس 13 محرّم – 12 أكتوبر

لا تقف على الأبواب!!

القهوة السوداء تترك مرارة في فمي، وفي حياتي، ورغم ذلك أدمنتُها كما أدمنتُ القراءة صحبتها. وهكذا تمضي بنا ليالي الشّتاء والصّيف. من الموضوعات الجميلة التي أستروح بالقراءة فيها: الكتب التي تتحدث عن الكتب، مثل (يوميات القراءة) لألبرتو مانغويل، و(الكتب في حياتي) لهنري ميلر، و(مذكرات قارئ) لمحمد الأحمري. وقد قرأتُها قديمًا، وغاب عني أكثر ما فيها. وبخاصة الأحمري. ومن الجيد في مثل هذه الكتب أن تعيد تصفحها، وقراءة بعض فصولها، فإذا بالقراءة القديمة الساكنة في أعماق الذّاكرة تعود حيّة طريّة. فتجد في هذا التّصفح وإعادة الصّلة بالكتاب متعةً كمتعة القراءة الأولى.

(سنة القراءة الخطرة) لآندي ميلر، ترجمة الأستاذ محمد الضّبع، صدرت عام 2016، عن دار كلمات للنشر والتوزيع بالكويت، وتقع في (328 صفحة).

يواجه آندي ميلر مشاكل عدّة في القراءة، وبخاصة الكلاسيكية. وفي الوقت نفسه يمارس أمورًا في حياته تستغرق غير قليل من وقته في أمور تافهة، كمثل الوقت الذي يستغرقنا في صفحات التواصل الاجتماعي (فيس بوك، واتس آب، تويتر، وسناب شات .. الخ). ثم نؤكّد عن قناعة أننا لا نملك وقتًا للقراءة.

آندي ميلر صنع قائمة للكتب التي يريد أن يقرأها في سنته التي قرر فيها أن يعقد صفقةً مع القراءة، وأن ينتهي من أزمة أخلاقية تواجهه باستمرار حين يسأل عن رأيه في كتاب ما من الكتب الكلاسيكية أو الذّائعة الصّيت، ولم يكن قد قرأه، فيخجل من الاعتراف بذلك.

القائمة التي أعدّها آندي ميلر سمّاها (قائمة الإصلاح) وهي قائمة خاصّة جدًّا تتعلق بكتب طالما حرص على تجميعها، وتزيين رفوف مكتبته بها، حتى ضاقت بها الرفوف، وضاقت بها نفسه. ويمتاز آندي ميلر في كتابه هذا عمّن كتبوا في الباب نفسه بالكوميديا التي تتغلغل في روحه وكلماته، جعلت من كتابه رواية من الروايات التي تتحدث عن الذّات.

ومما يستفاد من تجربة آندي ميلر أنّ النّاس لا يجب عليهم أن يتّفقوا على رأي واحد في كتاب ما، وحين كنتُ أعدّ (شفرة دافنشي) روايةً عبقرية، كان آندي ميلر يراها سيئة لدرجة أنّه لا يمكن أن تجاريها

رواية أخرى. الرواية حققت نجاحًا جماهيريًا، ولكنها على المستوى النقدي لقيت نقدًا سيئًا.

كتبتُ سابقًا مراجعةً إيجابية عن (شفرة دافنشي) كنت وقتها مأخوذًا بالحبكة القائمة على معلومات مهولة في النصرانية ومذاهبها وكنائسها وطوائفها، كنتُ أكتب من خلفية بيضاء تماما عن النّصرانية وكل التفاصيل التي ذكرها دان بروان، إضافةً إلى أن دان براون مرّر في روايته بشرية المسيح عليه السلام. ولكن آندي ميلر ذكر عدّة مراجعات أثبتت عنده أنّ دان بروان كان يستقي معلومات خاطئة، ويمررها من خلال كتابه.

ورواية أخرى اختلفتُ مع آندي ميلر حولها، فهو يعدّ (آنا كارنينا) إحدى الأعمال الأدبية التي غيّرت حياته، وأثّرت فيها. وما زلتُ أنظر إلى (آنا كارنينا) بأنّها من أسوء ما يهدم أركان الأسرة المقدّسة في خلفيتي الاجتماعية. يقينًا أنّني لا أحاكم تولتسوي في (آنا كارنينا) أدبيًا، ولكني أنقدها مضمونًا.

لا تقف على الأبواب .. كان بعض أهل العلم لا يحبّون في قراءة المتون أن يقطعوا دروسهم عند نهاية باب من الأبواب، حتى لا تصدق عليه كلمة أهل العلم في ذمّ الوقوف على الأبواب، وإن كان الوقوف

مجازًا، وليس حقيقة. ولذلك يشرع العالم في قراءة الباب الذي يليه، ويقف عند أول كلمة فيه.

وهذه سنة أخذتُ بها، فمجرّد أن أنتهي من قراءة كتابٍ ما، أشرع في قراءة مقدمة الكتاب الآخر، ثم أقرر بعدها أن أتوقف أو أستمرّ في القراءة، وحين بدأت في قراءة (ظل النّديم .. أوراق وأسمار شيخ العربية أبي فهر محمود محمد شاكر –رحمه الله– التي لم تنشر من قبل) لوجدان العلي، الطبعة الصادرة عن عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع ببيروت، عام 2016= واصلتُ القراءة؛ حتى غربت شمس يوم الجمعة.

الجمعة 14 محرّم – 13 سبتمبر

ظلُّ النَّديم!!

قرأتُ لمحمود محمد شاكر كتبًا عدّة من (أباطيل وأسمار)، و(نمط صعب نمط مخيف)، و(المتنبي)، إلى (جمهرة مقالات محمود محمد شاكر) التي جمعها تلميذه الدكتور عادل سليمان جمال، ولديّ عزمٌ قويّ في إعادة قراءتها؛ لأنّي الآن لستُ أنا قبل تلك السنوات التي تزيد على العشرين عاما في القراءة الأولى لـ (أباطيل وأسمار).

قرأتُ كذلك كتبًا كُتبت عن محمود شاكر، مثل: (محمود محمد شاكر الرجل والمنهج) لعمر حسن القيام، و(حياة قلم) لعايدة الشريف، و(دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى شيخ العروبة محمود محمد شاكر) لطائفة من كبار تلامذته.

وكتاب (ظلّ النّديم) لوجدان العلي= عثرتُ به قديما (الطبعة الأولى صدرت عام 2016)، ولكني لا أدري كيف غاب عني طيلة هذه الفترة؛ ذلك أني منذ عرفت محمود محمد شاكر لأوّل مرة شغُفتُ به، وبكل

ما يتّصل به. منذ عرفتُ محمودَ شاكرٍ عرفتُ أني وجدتُ البطل في حياتي، والذي بحثتُ عنه طويلًا.

قطعتُ القراءة عند أذان العشاء لزيارة شقيقتي أم فيصل، والتي سوف تغادر يوم الأحد إلى تايلاند في أول زيارة لها، صحبة زوجها وابنها عبد المجيد. كانت ليلة جميلة اجتمعنا فيها أنا وأشقائي محمد وإبراهيم وعبد الرحيم، وكان زوجها حاضرًا، وكذلك ابنها محمد أبو رِفاء والدكتور عبد الرّحمن. وكانت أم فيصل متألقة بروحها المرحة.

يمتاز وجدان العلي في (ظل النديم) أنّه مثلي عرف الشيخ من خلال كتبه ومقالاته وأوراق تلامذته ومحبّيه ولم يلتقِ به. ولكنه اتّصل بأسرة الشيخ، فدخل بيته، وقلّب في مكتبته، فداخلته أنفاس الشيخ عن قرب. فحاول أن يقول فيه ما لم يسبق لأحد أن قاله، ولا ذكره غيره، إلا مما لا بدّ منه فيذكره بإيجاز، ولا يقف عنده. ومما يتماز به وجدان العلي أنه حاول أن يكشف جوانب محمود شاكر النفسية على حقيقتها، يدلل عليها من كلام أقرب النّاس إلى محمود شاكر. ويمتاز كذلك بإيراد نصوص اللقاءات التي أجريت معه بنصّها.

وفي حديثه عن منهج محمود محمد شاكر في القراءة أوجز إيجازًا حسنًا، ولكنه لم يقل شيئًا يشفي الصّدر في مسالة التّذوق التي ترد في كلام الشيخ كثيرًا.

السبت 15 محرّم – 14 سبتمبر

العاطفة والثّرثرة

أقام إخوتي في (الملتقى) احتفاءً بانتهاء المرحلة التجريبية لنشاط فريق درّاج الملتقى، والذي انطلق قبل أكثر من سنتين، وتم في اللقاء استعراض أبرز الإنجازات التي حققها الفريق، بدءًا من قصّة فكرة هذا النشاط، وكيف انطلق. وعن أبرز الخطط المستقبلية لهذا الفريق. وقبل نهاية اللقاء تمّ تكريم قائد الفريق (يوسف عبد الرّحمن قدح) بدرع تذكاريٍّ شكرًا وتقديرًا لمسيرة رائعة مليئة بالإنجازات.

أكثر وجدان من استخدام (شيخنا، وأستاذنا)، وهي غير صادقة عُرفًا بين أهل العلم. ولكنه نشر فصلا جميلا في فصول كتابه لصور محمود محمد شاكر لم تكن قد نشرت من قبل، وفيها صور لخط محمود شاكر. وصور من ذكريات الشيخ مثل صورة جميلة لمحمد محيي الدين عبد الحميد في شبابه مهداة بخطه البديع إلى محمود شاكر. ومن أجمل فصول الكتاب (آفاق العُقاب) والتي تبرز جوانب بشرية في محمود شاكر، منها حبّه لمداعبة تلاميذه وأصدقائه كما صنع مع الطناحي الذي

كان يتعصب للنادي الأهلي في قصة طريفة، وما ذكره عادل سليمان عن أول لقاء له بأستاذه محمود شاكر حين قُدّم على له أنه تلميذ نجيب، فقال للمُقدِّم: (ما دام تلميذك يبقى حمار زيّك).

بعد فراغي من (ظلّ النّديم) أمسكتُ بكتاب (أحلام الفلاسفة) لسلامة موسى، طالعتُ فيه عدّة فصول لم أشعر بعمقها، ولا جمال لغة الكاتب، فلم أجد ما يشجعني على إتمامها؛ فانصرفتُ عنها. وهذا يحصل لي كثيرًا في القراءة، وحصل لآندي ميلر، ويحصل لغيرنا. فإذا شعرتُ أنّي فقدتُ اهتمامي بما يقوله الكاتب، وأني عاجز عن متابعة أفكاره= يغدو كلامه ثقيلًا، فأنصرف عنه. ومثل هذا يقع لي في الحياة العامّة عند حضور المحاضرات، ومبدئي في هذا الأمر= أنّ ما يُقرأ وما يُسمع كثير جدًّا، والحياة عزيزة، والوقت قصير، ومن غير السّداد أن يختار الإنسان تعذيب نفسه بصحبة الثقلاء.

وسلامة موسى من أقباط مصر، ولد سنة **1887**، وسافر إلى فرنسا وإنجلترا، والتقى بالعديد من مفكري الغرب، وعاد إلى بلاده نسخةً مصرية لأفكارهم. وهو الذي كان ينتعه دائما محمود شاكر بالكاتب الغبي؛ لعدم أصالة أفكاره. عُدّ من أدباء ومفكري مصر، وتتلمذ له الروائي الكبير نجيب محفوظ، وترك أثرًا في نفسه وأعماله. توفي

سنة 1958، وترك عدّة مؤلفات، وكان من روّاد الاشتراكية في العالم العربي.

قررتُ بعدها أن أقرأ كتاب (البوذية) لكلوب ب. لفنسون، ترجمة الدكتور محمد علي مقلد، إصدار الكتاب الجديد المتحدة–فرنسا. قرأتُ من الكتاب أكثر من 25 صفحة (وهو يقع في 138 صفحة)= ولم أعرف من هو بوذا؟ فثقلَ عليّ الكتابُ والكاتبُ والمترجم، فانصرفت.

اخترتُ بعد هذه المعاناة في البوذية والكونفوشية، أن أقرأ فكرةً يُروّج لها، أو يُهدم أركانها، فاخترتُ (معركة الإسلام والرأسمالية) لسيد قطب (رحمه الله)، وبعد سبعة عشرة صفحة، مللتُ من لغة الكاتب العاطفية، ولما تبدأ المعركة بعدُ. فنظرتُ في فهرس الموضوعات، وبعد أن قرأتها قررتُ أن أنصرف عنه، قبل أن أفقد علاقتي الجيدة بكاتب عزيز على قلبي، دامتْ صحبتي له سنوات طويلة في كتاب (في ظلال القرآن).

وأخيرًا؛ وجدتُ نفسي في (يا مريم) الرواية التي كانت ضمن قائمة البوكر القصيرة للرواية العربية عام 2013 (ستّ روايات)، للكاتب العراقي سنان أنطون، وُلد في بغداد عام 1967، ويعمل في الوقت

الحالي في جامعة نيويورك أستاذًا للأدب العربي منذ عام 2005. لم تفز رواياته بالبوكر، بل فاز بها الرّوائي الكويتي سعود السّنعوسي عن روايته (ساق البامبو)، وهي قصة جميلة، ولكنها خالية من الجماليات الأدبية. لا أذكر فيها جملة واحدة علقت بذاكرتي، ولا أذكر أنّي نصحتُ أحدًا بقراءتها.

الأحد 16 محرّم – 15 سبتمبر

قلبُه يخفق!!

عنـدما زرتُ شـقيقتي الكـبرى أم فيصـل قُبيـل سـفرها، أعطيتُهـا هدايا تحملها لأبنائي في بانكوك، كنتُ قد اشتريتُ لأبنائي الثلاثة؛ سفيان الذي يدرس سنته الأخيرة في الجامعة، ومالك الذي يدرس سنته الأولى، وأحمد الذي لا يزال في الثانوية العامّة، يخطو فيها خطوات وئيدة ولكنها واثقة، يعيش تجربة فريدة مع لغة جديدة كل الجِدة عن لسانه العربي، وإنّي لفخورٌ به وبإخوته= أقلاما من ماركة (**parker**)، وحرصتُ أن تكون من نوعية ممتازة. أردتُ لها أن تحمل عني رسالةً قد يفهمونها وقد يأخذون وقتهم في إدراكها: (القلم .. هو الرمز المادي للنجاح في الحياة. هو أداة اتّصالك بالكلمة الدّالَة على علمك وفكرك). أما أصغر أبنائي توفيق؛ فأهديته حزاما رياضيا يحملُ فيه هاتفه المحمول، وكل متعلقاته الشخصية، إضافةً إلى علبة صغيرة تحوي كراتٍ وقضبانًا صغيرة فضية من (المغناطيس)، يستطيع بها أن يبتكر عوالم وأشكالا هندسية، لعلّها تسهم في توسيع آفاقه فوق اتّساعها.

رواية (يا مريم) هي العراق بعد صدّام، يروي أحداثها مسيحي كاثوليكي من الكنيسة الكلدانية في عقده السّابع، عاش أيّام العراق الجميلة، ومرّ بكل نكباتها الحديثة ..

وكلّ عامٍ –حين يُعْشِبُ الثّرى– نجوع

ما مرّ عامٌ والعراقُ ليس فيه جوع

(بدر شاكر السياب)

كانت العراق قبل سقوط بغداد صدام حسين 2003، وقبل سنوات الحصار التي بسط فيها الجوعُ رداءَه على أطفال العراق= تحتضن النصارى والمسلمين، والشيعة والسُّنة، يعيش هذا النسيج الاجتماعي في توافق وانسجام، ومودّة وسلام. حتى دمرّتهم الأحزاب السياسية، وزُرِعت فيه الطائفية. تعبّر عنه الرّواية في عُمُر الصداقة القائمة بين سعدون السُّني وصديقه يوسف كركوس المسيحي. في بكاء أبي محمد وهو يُعانق جاره المسيحي الهارب بأهله إلى شمال العراق، وجملته: "ما دِرْنا بالنا عليكم يا بو مها، ما دِرْنا بالنا عليكم. وإنتو المفروض أمانة بركَبتنا. فيرد عليه أبو مها: "إحْنا ما دِرْنا بالنا عالعراق .. كِلْنا".

يا فَرْحةَ القلبِ والأحشاءِ والكبدِ

يا ليتَ أمّكَ لم تحبل ولم تلدِ

لما رأيتُكَ قد أُدْرِجْتَ في كَفَنٍ

مُطيَّبًا للمنايا آخرَ الأبدِ

أيقنتُ بعدكَ أنّي غيرُ باقيةٍ

وكيف يبقى ذِراعٌ زال عن عَضُدِ؟

أبيات مجهولة النّسب، جرت في الرّواية على لسان سعدون، يصوِّر حزن أمٍ فقدت ولدها، يخفِّف بها لوعة أم مسيحية تتصل بصديقه يوسف كركوس بقرابة.

ابني أحمد تفجّرت طاقاته الكامنة في بانكوك، عندما شعر أنّه لا يُحاكم لأنه يختلف عن زميله الذي يجلس بجانبه لأسباب لا اختيار له فيها. فمدّ أسبابه وحباله فيمن حوله، يتّصل بهم، ويتواصل معهم. علائقُ شكّلت روحَه وقلبَه مرحًا وفرحًا، وإقبالًا. زارته والدته مرّة في

مدرسته الدّاخلية، فصلّت المغرب في مسجدها، فإذا بصوت ابنها الإمام يغمرُ قلبها، ويرقرق الدّمعَ في عينيها.

لم يكن له أصدقاء بمكة، وكان لا يخرج من البيت. والآن، يخبرني أنّه يسمع لقلبه خفقاتٍ غير منتظمة !!

القصة الإنسانية في (يا مريم)، والجماليات الفنية في تصوير ماضي العراق وأهل العراق ونكبات العراق، تجعلك تحار كيف تفوّقت عليها (ساق البامبو) في البوكر. لذلك يعجز كثيرٌ من قرّاء الأدب عن فهم المعايير الفنية للجوائز العالمية.

لكن .. لعلّ العامية العراقية التي أجراها سنان أنطون على لسان شخصياته، أحد الأسباب التي أقصت الرّواية. والحقّ أنّ هذه العامية – وإن كان كثيرٌ من النّقاد يعدونها ضعفًا– جعلت (يا مريم) تنبض بالحياة، والروح العراقية تسري في جسدها.

الإثنين 17 محرّم – 16 سبتمبر

التّجديد في الثّقافة!!

العراق تحلم بولادة جديدة، تعيد الحياة في شوارعها، وتمنح الحقوق لأبنائها، العراق التي عاشت فيها الحضارات الإنسانية منذ آلاف السنين. فالمسيحية ليست وليدة، ولا الشيعية طارئة، وكذا اليهودية. كل هذا الاختلاف الثقافي يشكل نسيج المجتمع العراقي، وكلهم له حقوق المواطنة.

تلك هي رواية (يا مريم) تصوّر لنا صراعًا بين جيلين؛ جيل مسيحي شهد السّلام المجتمعي في العراق، وجيل آخر لم يشهد سوى ثورة المليشيات والفكر الدّاعشي الدّموي.

يرد في قرآتنا المختلفة مصطلحات عدّة غير محررة، مما يُعرف عند البعض بـ (أزمة تحرير المصطلحات عند المثقفين). من ذلك مصطلح (التّجديد في الدّين)، فبعض المثقفين والمفكرين يفهمون التّجديد في الدّين بالثّورة على بعض ثوابته.

يـذهب سـلامة موسـى في كتابـه (الأدب الإنجليـزي الحـديث) في طبعته الثالثة عام **1979**، الصّادر عن دار سلامة موسى بالقاهرة= إلى تقريـر هـذا المصـطلح بهـذا المفهـوم، ويضـرب مـثلا للجمـود والركـود الفكـري أثنـاء حديثه عـن جمـود الأدب الإنجليـزي في العصـر الفكتـوري (القرن التاسع عشر)= بالوهابية التي ظهرت في الجزيرة العربية. وينصّ بأنّ ذلـك لكـراهتهم للفنـون والـتّرف والاسـتمتاع والالتـذاذ. دون أي توضيح لمفهوم الفن والتّرف والمتعة واللّذة، عند الوهابيين.

إنّ التّجديـد في الـدّين بمـا يفهمـه سـلامة موسـى إنمـا تعـني الهـدم والانسلاخ، ذلك أنّه لا يمكن في تصوّري أنا –وأظنّ أني أحد العقلاء– أنّ الدَّين الذي اكتمل في عقائد المسلمين، وبلغ الغاية في التّمام الذي رضيه الله تبارك وتعالى لهم= أنّ يُجدَّد بالثّورة على ثوابته.

بـل التّجديد في الـدَّين عنـد المسلمين هـو تصفيته ممـا لـيس منه، وتنقيته من أفكار وعقائد دخيلة عليه، لا تَّتفق مع ثوابته (ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين).

هذا هو التّجديد الذي تربيتُ عليه، وأربي عليه أبنائي، وبخاصّة وهم يعيشون في مجتمع تغلب عليه الثّقافة البوذية الوثنية. أما ما يدعو إليه سلامة موسى فليس تجديدًا، وإنّما هدم وانسلاخ.

ولـذلك؛ فـإنّ سـلامة موسـى يـرى أنّ الثَّـورة الصّـناعية منحـت الزّوجة والابن والبنت حُرَّيّة فكرية؛ لأنّها منحتهم استقلالا مادِّيًّا، تحرّروا من كل قيود الالتزامات الأسرية، تحت سطوّة الزّوج والأب.

وهنـا –يا سفيان– تأتي مسألة أخرى عنـد سلامة موسى، وهـو موقفـه مـن المـرأة، وأنّهـا بحاجـة إلى اسـتقلال في الشّخصـية والفكـر، أن تشعر بإنسانيتها. ولا يمكـن لها ذلك عنـد سلامة موسى إلا إذا تحرّرت من سطوة الرّجل، أي: أن تكون رجلا في مقابله، فتكون نِدًّا له. وهذا –عنده كذلك– ما منحه لها الثّورة الصّناعية بإنجلترا وأوروبا بعامّة.

قد يكون ما يذكره سلامة –والحديث لك أيضًا يا مالك– صادقًا في المجتمع الإنكليزي، وعنـد الوهـابيين، ولكنـه لـيس صـادقًا في المفهـوم الصّحيح للإسلام، فالإسلام يرفض تعبيد المرأة لغير الله، ويرفض محق شخصيتها، ولا يُزري بكيانها، ولا يستقلّ أن تستقلّ بفكرها. بل كانت المرأة تشارك في الحياة السّياسية وتؤثِّر فيها منذ زمن النّبوة، وتجد أمثلة ذلـك في غـزوة الخنـدق حـين قامـت المـرأة بحراسـة بيـوتات المدينـة، وفي سداد الرّأي عند أم سلمة (رضي الله عنها) في صلح الحديبية. ووظّفها في الحِسبة وغيرها، إلى أمثلة كثيرة، لا يدركها أمثال سلامة موسى.

ولعلّك –يا سفيان، ويا مالك، ومن ورائكما أحمد وتوفيق– تدركان أهمية قضية (تحرير المرأة) وأنّ الإسلام حرّر المرأة من الظّلم، وأعطاها كافّة حقوقها، ولكنه لم يعطها حقوق الرّجل، وإنّما أعطاها حقوقها كامرأة. ولم يهتم بتحريرها من أنوثتها، وسلخها من طبيعتها، وإلقائها في مَدَنية لا تفرِّق بين ذكر وأنثى.

الثلاثاء 18 محرّم – 17 سبتمبر

ما وراء الطّبيعة

وردني صباح يوم الاثنين الماضي اتّصالٌ من أصغر أبنائي توفيق، كان ذلك عقب استقباله لعمَّته أم فيصل في مطار بانكوك، ومرافقته لها للفندق. وبعد أن قلَّب هديته الخاصّة في يديه سألها: أين الكتاب؟

– أي كتاب؟

– ألم يرسل أبي معكِ كتابًا؟

– اتّصل بوالدك، وسله. فلم يرسل معي غير هذه التي بين يديك.

بعد أن قصَّ عليَّ هذا الحوار الذي دار بينه وبين عمَّته، والذي فاجأني به= قلتُ له: لقد نسيتُ حوارنا ذاك يا توفي، ولكن سأشتريه الليلة، وأرسله غدًا الثّلاثاء مع عمّك أبي فايز.

وبذلك انتهى الاتصال الذي كان عتابًا خالصًا، أما قصة ذلك الحوار الذي نسيته؛ فهي كالتالي: في زيارتي الأخيرة لعائلتي كانت تشغلني قضية تخصّ ابني توفيقًا؛ إذ كان في العاشرة من عُمُره، وهو طليق اللِّسان، لا حُبسة في عربيته. وكنتُ أخشى من مزاحمة اللغة التّايلاندية والملايوية لها. وأرى أنّه من الواجب عليَّ أن أنمِّي هذه العربية التي هي لغة فكر وجمال. وأُعَزِز فيه كذلك حبَّ القراءة بها.

فاخترتُ أن أقرأ معه كتابًا في السيرة النّبوية، وغلب عليَّ تخصصي الأكاديمي، فرأيتُ أن أربطه في دراسة السيرة بنصوص الحديث النَّبويِّ، فكان كتاب (الوجيز) للشيخ ناصر الزهراني خيارًا رأيتُه مناسبًا.

اتفقنا أن يقرأ كلّ يوم بعد صلاة العصر نصًّا من نصوص الكتاب، ثم يقوم بعد ذلك بذكر خلاصة ما فهمه من قراءته، ثم أفتح معه نقاشًا في هذه الخلاصة. وبعد ذلك أقوم أنا بقراءة النَّص نفسه ويقوم هو بكتابته أثناء قراءتي.

وراق له المنهج، بعد أن بان له أن هذه الطريقة كفيلة بإطلاق لسانه وقلمه، ولكن –للأسف– لم نستطع أن نمضي في هذا الكتاب شوطًا طيِّبًا، ولم تتجاوز حصيلة تلك القراءات نصوصًا معدودة، وذلك

لطبيعة زيارتي لهم في تلك الإجازة من تنقل بين بانكوك والمحافظات الحدودية الجنوبية.

فاتّفقنا أن يسجل لي بصوته نصًّا من نصوص الكتاب، ويرسلها عبر (الواتس آب)، وبذلك نصل ما انقطع من مجالسنا. وهكذا شرعنا في تنفيذ هذا الاتّفاقية، ولكن المسكين واجه مشقّة كبيرة في قراءة تلك النَّصوص بمفرده، وتعثَّر في مفرداتها التي أعاقت لسانه، فأشفقتُ عليه، وحاولنا أن نفكِّر في حلٍّ لهذه المشكلة.

وبعد حوارٍ وتفكير، قررنا أن مشروع قراءة (الوجيز)، لا بد أن تكون على سيرتها الأولى في القراءة الجماعية، وحتى لا يتعطّل عن العربية؛ عليَّ أختار له كتابًا آخر يربطه بها، ويكون مشوِّقًا حتى لا يملّه. ودارت الأيّام، ويمضي على هذا الاتّفاق أكثر من شهرين، ونسيتُه تمامًا، ولكن الصّغير ما نسيه، وتجلَّى حرصه عليه، حين باغتني به.

مضيتُ في اليوم نفسه إلى إحدى المكتبات، واشتريتُ له الجزء الأول من كتاب الدكتور أحمد خالد توفيق (ما وراء الطّبيعة)، والذي يقصّ فيه قصصًا خيالية، وأساطير مرعبة. وكتبت له في طُرَّته إهداءً (إلى الأستاذ توفيق عدنان. أرجو أنّ تجد في هذا المجلّد الإثارة التي تبحث عنها. محبّك عدنان أحمد).

كتبتُ هذه الكلمات أدغدغ بها عاطفته، فهو يطرب لهذا الأسلوب في التّعامل معه، حين تتجرد العلاقة من صفة الأبوّة، وتُصبغ بصبغة الصّداقة.

إذا استطعتُ وأنا في مثل سنِّه أن أقرأ سلسلة مغامرات الشياطين 13؛ فإنّي أثق في مقدرة الدكتور أحمد خالد توفيق في التَّعامل معه، والتَّأثير فيه، كما أثَّر في شباب الوطن العربي بعامّة والمصري بخاصّة، وجعلهم يحبُّون القراءة (رحمه الله).

وفيما يتَّصل بالقراءة يقول سلامة موسى: سألني ذات مرّة أحد القارئين عن أحسن كتابٍ قرأته في اللغة الإنجليزية من حيث الأسلوب. فقلتُ له ببديهتي: كتاب "داروين" (أصل الأنواع). ولم أكن مازحًا في هذا؛ لأني أحسّ أنّ أسلوب التّفكير الذهني عند "داورين" خيرٌ ألّف مرّة من أسلوب العاطفة المزيفة عند "أوسكار وايلد"؛ لأنّ الفنّ الذّهني خيرٌ من الفنّ العاطفي.

لقد بذل سلامة موسى في كتابه (الأدب الإنجليزي الحديث) جهدًا كبيرًا وشاقًّا في دراسة الأدب الإنجليزي ومقارنته بالأدب الغربي والعربي، وبذل أمثاله في عرض أفكاره ومدارسه، ونقد رجاله. ولكنه في المقابل عرضه عرضًا سريعًا خاطفًا، ولم يكن في كثيرٍ منه شافيًا.

وإن كان من خلاصةٍ من هذه القراءة بعيدًا عن المتعة الفكرية، والمعاناة الذّهنية لتتبع كلّ تلك الآراء والمذاهب الفكرية والأدبية؛ فهي: أنّ الأدب يجب أن يكون إنسانيا عالميًّا، وأن يكون اجتماعيا قريبًا من حياة النّاس اليومية، حاضرًا في اهتماماتهم وقضاياهم.

ومن الخلاصات كذلك: الشّعور بالاكتفاء من سلامة موسى بعد (أحلام الفلاسفة، والأدب الإنجليزي الحديث).

الأربعاء 19 محرّم – 18 سبتمبر

الحَرْفية!!

تعرف القصة الجميلة من قراءة مقدمتها، ونحن نستمتع بالقصّة الجميلة حتى وإن كانت خالية من الجماليات، مجرّد سرد متتابع للأحداث، فلا تشعر بالوقت وهو يتسرّب من بين أوراقها.

حاولت الليلة الماضية أن أقرأ قصةً جميلة تدور أحداثها في تشيلي أيّام الحكومة العسكرية الدكتاتورية، والتي كان تخطف كلّ صوتٍ للشّعب، وتغيِّب أولئك الرّجال إلى حيث لا يعلم بهم أحد، ويقع أحباؤهم في حيرة الشَّك بين الأمل في حياتهم، والتأكد من موتهم.

تلكم القصّة رواية (الأرامل، إريل دروفمان) كتبت باللغة الإسبانية، ثم نُقلت عنها إلى الإنجليزية، ثم ترجمت إلى العربية، وهذا المترجم الذي نقلها إلى العربية عريق في مجال التّرجمة، ويُحتفى به في بلده احتفاءً يجعله في مصافِّ شيخ المترجمين العرب (بقيد بلد ما).

وكلّ هذا لا يعني بالنسبة إلى الواقع الذي بين يديّ شيئًا، فإنّ لغة المترجم سيئة جدًّا، وبلغت حدًّا من السُّوء لا يحتمل، وسواء كان شيخ المترجمين العرب أم كان أقلّ المريدين قدرًا؛ فإني لم أستسغ ثقل الرّواية في لغتها المترجمة. أقرأ العبارة، فتختلف عليَّ الضمائر، وأردد الحوار في عقلي وفكري، ثم ألوكه بلساني، فأحار كيف كتبها المترجم، وكأنه يتخلّص من عبئها، ويلقي بها في وجه القارئ.

ولأنّ الشيء بالشّيء يُذكر أذكر تجربة للأستاذ عبد الصّبور شاهين مع شيخه محمود محمد شاكر، خلاصتها أنّه ترجم كتاب الأستاذ مالك بن نبي المفكّر الجزائري (الظاهرة القرآنية) عن الفرنسية، ثم حملها إلى الأستاذ محمود محمد شاكر يطلب منه أن يُقدِّم لها، وكان مالك بن نبي صديقًا لشاكر، يقول عبد الصّبور: فشواني شيا على السَّفود كما يقولون من أجل تجاوزاتي التي ظهرت في الترجمة نتيجة الحَرْفية، ومن أجل خوفي من أن أخالف المؤلِّف في رواية النصوص، فكنتُ أرويها كما هي على مسؤولية المؤلِّف. فعلّمني الأستاذ محمود في هذا اللقاء الذي دام ثماني ساعات: أنّ عليَّ كمترجم أن أنقل النّص باللغة العربية التي تليق، لا باللغة العربية التي تحاكي الأصل الفرنسي، فهذا نوعٌ أو نمطٌ من الحَرْفية يضرّ أكثر مما ينفع. ثم يقول: فعدّت إلى بيتي وحملت ترجمتي في تلك الليلة صحائفي تحت إبطي وكأنما أحمل خيبتي تحت

ذراعي، وأنا أبكي في الطريق من مصر الجديدة إلى الإمام الشّافعي، وسرّت تلك الليلة وحدي لا أدري بالطّريق من الدّوامة التي لفّتني طيلة الثّماني ساعات من الظهر إلى العشاء.

وهذه القصة أذكرها ومن قبلها حديث شيخ المترجمين العرب في (الأرامل)؛ لأنّ أبنائي قد يحترفون هذه الصّناعة (أعني الترجمة)، وبخاصّة ولدي سفيان الذي يتقن الإنجليزية، ويسعى إلى إتقان اللغة التايلاندية واللغة الملايوية، واللغة الأم بالنسبة له هي العربية، وقد تخصّص في العلوم السياسية. فأهدافه المهنية تكاد تكون واضحة المعالم أمام ناظريه، فمن المهم جدًّا أن ينأى عن الحَرفية في التّرجمة، وأن يكتب في اللغة المترجمة بعقول أهلها، فاللغة ليست لغة لسان، وإنّما لسان المنطق، ومنه: الإنسان حيوان ناطق، أي: له عقل.

واللغة العربية، في العادة تكون أجمل وأرقّ وأشفّ عن المعاني من أي لغة أخرى، ولذلك تعجب حين تجد شيخ المترجمين يعجز عن إبراز جمال اللغة العربية، فتكون الترجمة العربية غاية في الرّكاكة والضّعف.

وإذا جاز لي أن أتحدث عن أجمل ترجمةٍ من لغة أجنبية إلى العربية، فهي ترجمة الدكتور محمد أحمد خالد، لنّص رحلة حج الإنجليزية الليدي إيفلين كوبولد، والتي طبعت باسم (البحث عن الله)، وتتحدث

عن إسلام نبيلة إنجليزية وحجّها إلى مكة والمدينة، وقدّم له: حافظ وهبة السفير السعودي بلندن عام 1934.

ومحاولة البحث عن الدكتور محمد أحمد خالد في محركات البحث، عناء لا طائل من ورائه لشيوعِ هذا الاسم، ولكن ترجمته كانت غايةً في الجمال، وأذكر أنّ عباراته كانت تعلق في ذاكرتي، وأتواجد لها طربًا.

الخميس 20 محرّم – 19 سبتمبر

الكتب التي التهمتْ والدي!!

غني عن القول –يا ولدي– أننا نشأنا في بيئة لا تكثر فيها الملهيات، عشنا بلا هواتف ذكية. فوسائل التواصل كانت حية. ولذا كانت شخصيتي خليطًا من تأثري بأشقائي الكبار. فعنهم جميعا أحببتُ القراءة.

وشجعتُ (نادي الاتحاد) لأن أبا هيثم كان يشجع (النادي الأهلي) بسبب أمين دابو، كنا نميل إلى الندية والتحدي، وكان أبو هيثم من أكثر أشقائي تأثيرا في تنوّع اهتماماتي فقد كان متعدد المواهب. وكان بوابتي لكل جديد خارج بيتنا، أتلقف عنه كل ما يجلبه من الخارج من كتب ومجلات وأفكار، مواكبًا لأدوار حياته المختلفة، حتى الحب اتبعتُ فيه خطاه، ولذلك كلانا فشل في الاحتفاظ بالحبّ الأوّل.

وقد تسألوني: أين موقع أبي معاذ في حياتي؟ فأوجزه لكم في جملة واحدة :كان صديق الطفولة. ولا يزال على العهد الأول صادقًا

وفيًّا لأيامنا الجميلة. كان الصديق الذي يغفر الزلات، ويتجاوز عن السيئات.

هذه العلاقات التي كانت العامل الأساس في تكوين شخصيتي، أثرٌ حميدٌ من آثار غياب التّقنية الحديثة من حياتنا؛ إذ تلاقحت في محيطنا الأسري الأفكار عبر الأحاديث اليومية، ومتابعة الاهتمامات الفردية لكلّ منّا، وتبادل الآراء. كنتُ فيها مستمعًا، ولكن كانت روحي تتشرّبها، وتتغذى عليها.

وأذكر أنك –يا سفيان– لمستَ أثر هذه المجالس حين خضنا مرّة في حديث طويل أنتَ وأشقائك حول قضايا كثيرة اجتماعية وثقافية في المجتمعين المكي والتايلاندي تخصّ كلّ فردٍ منكم، علّقت أنت بعدها بقولك: لقاء جميل.

لذا؛ فإنّ عليكَ أنت ومالك عبء العناية بإثارة مثل هذه الاجتماعات التي تُناقش فيها اهتماماتُكم اليومية والمستقبلية؛ حاوِلوا التّخفف من التّقنية (الهاتف المحمول، ألعاب الفيديو، الشبكات)، واقتربوا بأفكاركم من بعضكم، واتركوا في أنفسكم ذكريات حيّة من أنفسكم.

وإنّ من خير ما ينبغي عليكم أن تفعلوه –إن وُفِّقتم– إنشاء نادٍ للقراءة بينكم، وإنّ في هذه اليوميات التي أطلعكم في شيءٍ منها على قراءاتي اليومية؛ ما أرجو أن يدني حبَّ القراءة إليكم. وهو شيءٌ كذلك أفعله لنفسي لأتذكّر هذه الخلاصات بين حين وآخر، فيكون تذكرةً ورَوحةً.

ومن ذلك أنِّي أنهيتُ قبل قليل كتاب الدكتور خليل العطية (التركيب اللغوي لشعر السّياب)، وتأتي أهمية هذه الدراسة لشعر بدر شاكر السياب في "أنّ اللغة بعدِّها وسيلةً للتّعبير والتّوصيل والتّأثير= أهمُّ أدوات الشّاعر، فوجب أن تُترخّص لما يجدُّ في شعره؛ لأنّ لغة الشّعر غير لغة النثر. ولأنّ الشّاعر مبدعٌ، ولا بدّ لهذا من حرية القول، على أن لا يُترك له الحبل على الغارب، فوجب أن تكون الفصيحة ديدنه، وأن لا يخرج عنها لكونها لغة الأمّة ولسانها وهوّيتها".

وبدر شاكر السّياب له وعليه، جرى لسانه على اللغة الفصيحة، وخرج عنها متأثِّرًا بالدّارجة العراقية والثقافات الأجنبية، ولكنها فلتات شاعر مفكِّر عبقري ذي روحٍ شفّافة، ملا الدُّنيا وشغل النّاس.

ومن لطائف ما أعانيه في كتابة هذه اليوميات معكم –يا أبنائي–، كتابٌ أقلِّبه بين يديّ هذه السّاعة، لطيفٌ في عنوانه وحجمه وفكرته (الكتب التي التهمت والدي) للكاتب البرتغالي ألفونسو كروش، يحكي سيرة

رجل كان مولعًا بالكتب يلتهمها التهامًا؛ حتى التهمته، وترك مكتبته التي جمعها طوال حياته لابنه، هو إرثه له. وكانت وصيته أن يُمكَّن منها حين يكون قادرًا على قراءتها.

والكتاب على لطافته يتحدَّث عن مستويات القراءة عند القُرّاء، فبعض القُرّاء لا يدركون سوى قشرة الكتاب، وبعضهم تتبدى له بين السطور سطورٌ، وبعضهم يغرق في الكتاب، ويختفي. وهذه المرحلة الأخيرة تشبه مرحلة (الوصول) في الفلسفة الصوفية، ولكنها نشوة فكرية دون هذيان، ولا تحلل فيها من فروض الشّريعة، ولا تمرّد على ثوابتها.

الجمعة 21 محرّم – 20 سبتمبر

أداءُ حقٍّ واجبٍ

تذكرون صديقي الدكتور عبد الله الطارقي؟

لا شكّ أنكم جميعًا تذكرونه، وبخاصة سفيان، فلا بد أنّه يذكره ويذكر ابنه الشاب الرائع عبد الرحمن (وفقه الله).

عبد الله الطارقي عرفته أيام الطلب بمعهد الحرم المكي الشريف، كان يتقدمني بصفّين دراسيين، وكان زميلا لوالد أخيكم زبير سلمان فوتي (رحمه الله).

وكان الطارقي هذا متميّزًا في صفّه تميّزًا ملفتًا، ولكن معرفتي به كانت سطحية جدًا، على عادة طلاب الصفوف المتقدمة الذين لا يحفلون بمن هم أقلّ منهم في الصفّ، فكيف بمن هم أقلّ بصفّين؟!!

ودارت بنا الأيام، فإذا بها تجمعنا في الفريق التأسيسي للمشروع الكبير الذي عملنا فيه معًا (مشروع تعظيم البلد الحرام)؛ شُكّلت له أمانة، تولّى هو إدارتها، وتوليتُ أنا نيابتها مرشّحًا من قبل الدكتور يحيى زمزمي أمين

جمعية مراكز الأحياء بمكة المكرمة. وكانت مهمة هذه الأمانة العمل على حفل تدشين المشروع برعاية سمو أمير منطقة مكة المكرمة عبد المجيد بن عبد العزيز (رحمه الله) في 26 من شعبان سنة 1426هـ.

فإذا بأسباب من الودّ وعلائق من الاتّفاق تنشأ، ساعد على ذلك بيئة تربوية قريبة، وأفكار واهتمامات مشتركة، وزادت الأيّام روابطها، وقوّت علائقها، وأبرزت فضائلها؛ حتى صار ممّن لا يُزادون عن حوضٍ، ولا يُوجفُ دونهم باب.

ما كلّ هذا الحديث عن الدكتور عبد الله الطارقي؟!

حسنًّا؛ لقد حمل إليَّ عبر البريد الإلكتروني كتابين له، يريد أن يدفع بهما إلى المطبعة؛ الكتاب الأوّل: نفسٌ واحدة (رسالة في استعمالات لفظ النفس في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم)، جمع العبد الفقير إلى الله عبد الله بن عثمان بن موسى المعروف بـ "مستجي زاده" المتوفّى 1131هـ، اعتنى به: د. عبد الله الطارقي. وهو بهذا يطرق ميدان التّحقيق لأوّل مرّة. الملفت بالنسبة لي في هذا العمل هو القراءة التحليلية التي درس بها الرسالة، وقد أفدتُ منها، فعلى الرّغم من أنيّ بعيدٌ عن الدّراسات النفسية؛ غير أنّها قدّمت إليَّ وجبةً شبه دسمة في فهم (النفس) في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

والكتاب الثاني (كل نفس) وهنا يعالج قضية أخصّ من القضية الأولى، وهي تشخيص النّفس البشرية، وتقديم رؤية إسلامية لملامحها وخصائصها من إرثنا الإسلامي (القرآن والسنة النبوية).

والآن؛ هل أدركتم ما الغرض من إيراد حكايتي مع الدكتور عبد الله الطارقي؟

أوّلًا: الطارقي احتلّ مساحة كبيرة من حياتي ليلة الأمس، فلهذا أدوِّنه لكم فهو جزء أساس في اليوميات.

ثانيًا: الطارقي بما له من حقّ الصّحبة والأخوة جعلني أقضي ليلتي في قراءة هذين كتابين أعالج ما فيهما من ملحوظات علمية وفنية، أشدد عليه في بعضها، وأترك له الخيار في بقيتها، وكلّ ذلك على طاولة النّقاش والحوار.

ثالثًا: وهو القضية الأهم بالنسبة لي: أن أكون جزءًا من النّجاح في هذه الحياة. فإذا تهيأت لك الأسباب أن تكون جزءًا في أي مشروع علمي؛ فلا تتأخّر، فهذه الغنيمة الباردة.

ثم لا يكن عليك بعدها من بأس إذا لم يدرِ بك أحدٌ، ولا تفسد الخدَرَ الذي يدِبُّ في روحك لذةً في صفاء ونقاء= بحبّ الذِّكر فيه. وهذا بعضُ

حقّ العلم عليك، فمن فضل الله عليك أن يسوق إليك مَن يُقبل منك سدادُ دينك عن طريقه.

ولا يختصّ الأمر بالمشاريع العلمية فقط، بل كل مشروعٍ يخدم الإنسانية عليك أن تسهم فيه، ولا تحتقر أيّ جهدٍ تبذله؛ فقد رضي الله تعالى على رجلٍ نحّى غصنَ شوكٍ من طريق النّاس، وأدخله الجنّة.

ومما يتصلّ بكتاب (كل نفس)، أذكر أنّه عرض لوصف القرآن الكريم للنّفس (النّفس المطمئنة، والنّفس اللوّامة، والنّفس الأمّارة بالسُّوء)، وفي طفولتي حالة للنّفس عانيتُ منها أشدّ المعاناة، وهي النّفس الملولة. فقد كان داء الملل يسري في نفسي سريعًا، فأهجر ما قد ألفته، وأزهدُ فيما بين يدي، وسرى ذلك حتى وصل إلى الصّداقات التي كانت يومًا مشدودة العُرى، فقطعتُ حبالَ الودّ مع زمرةٍ غير قليلة من أصدقاء الطّفولة، لا لشيء سوى الملل من صحبتهم. ويا لَها من خسارة، ويا لها من رَزِيّةٍ في الخُلق، لازمتني دهرًا، ولا أزال أجد مرارةً في فمي جرّاء علائق وُدٍّ قطعتُها، وكان هجرًا، ولكنه لم يكن جميلًا، بل كان فيه شيء من الإيذاء (كنتُ غِرًّا صغيرًا).

وأحمد الله أن وفقني لمعالجة هذه النّفس الملولة، والتّخلص منها، بعد أن تبيَّنتُ أنّها من خصال اللئام في العلاقات الإنسانية. والكريم يربأ بنفسه أن يلتصق به شيءٌ من اللّؤم.

إنّ الملل خصلة بشرية يُطبع عليها الإنسان، وعليه أن يغالبها حتى لا تغلبه، وفي الحديث "إنّ الله لا يملّ حتّى تملّوا"، وكان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يتخوّل الصّحابة بالموعظة مخافة السآمة منهم.

وهذا لا يكون إلا في هذه الدّنيا، أما في الجنة فقد وصف الله تعالى حال أهل الجنّة فقال قولا كريمًا: {خالدين فيها لا يبغون عنهم حِوَلًا} [الكهف: 108]، أي: تَحَوُّلا عن مكانهم، فلا يطرقهم سأمٌ ولا مللٌ. يتكئ أحدهم على جنبه أربعين سنةً لا يتحوّل عن مكانه.

حافظوا على صداقاتكم يا أبنائي، وكونوا أوفياء للأوفياء منهم، وإن وَهَتْ حبالُكم مع أحدهم، فأعيدوا إليها قوّتها، وشُدّوا عُراها.

السّبت 22 محرّم – 21 سبتمبر

تجريد الفِكرة

حصل البارحة في تدويني الأخير (أداءُ حقٍّ واجب) انقطاعٌ في الأفكار؛ إذ كان هناك كلامٌ يتعلّق بالنّفس أردتُ إتمامه معكم، فكتبتُ في نهاية التدوينة (يا عمري)، ولعلّ هذه الجملة تدخل ضمن (قاموسنا اللغوي الخاصّ)، التي لا يدرك مراميها إلا نحنُ، ومعناها: قليلا من الصّبر. مثل العبارة التي اصطلحتُ عليها أنا وتوفيق (جبر الخواطر)، والتي تدلّ: أن على أحدنا أن يضحي بأمرٍ ما. وكلمة (أختك)، أي: أنك أفحمتني.

قطعتُ التدوينة لأنني كنتُ على موعدٍ مع عدد من الفضلاء للصعود إلى (غار حراء)، كنتُ خامسَ خمسة صلينا العشاء وانطلقنا إلى حي جبل النّور. أوقفنا سياراتنا في سفح الجبل، وبدأنا الصّعود. لم يكن الجو لطيفًا ولم يكن ساكنًا، كان بين بين.

حين وصلنا قمة الجبل كنّا أربعةً فقط؛ إذا تخلَّف أوسطنا فضلا لأنّ آلام ركبته اليسرى لم تسعده بإكمال مسيرة الصّعود، طبعًا أشبُّنا وصل القمة قبلنا بأكثر من ربع ساعة.

ما الشّاهد من هذه القصة يا أبي، فهذه ليست أوّل مرّة تصعد فيها إلى الغار؟

الشّاهد –يا أبنائي– أنّ المرافقين الثلاثة كانوا يصعدون الغار لأوّل مرة، حَضَرَتْهُم جميعًا ذكرى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم في ظلمة الغار، فغشيتنا السّكينة، ومن الموافقات أنّنا كنّا بمفردنا، فقام أحدنا وهو رجلٌ فاضلٌ من عامّة النّاس، لا يتّصل بالعلم الشّرعي بسبب= فصلّى صلاة الوتر، وجلس يدعو. الاثنان الآخران جعلا ينظران إليَّ، ولا يريدان أن يتقدما بين يديَّ بأي شيء، فقلتُ لهما: النّاسُ في مثل هذه الأماكن يعبِّرون بما يقوم في أنفسهم بطرق مختلفة. وأنا أعلم أنّه لم يرد في خصوص هذا المكان صلاةٌ ولا دعاءٌ. وأنّ الذي يعتقد خلاف ذلك يكون قد تقدَّم بين يديّ الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، وابتدع في الدّين. ولكن هذا الرّجل حضر قلبُه في هذا المكان، وصلّى لله ركعاتٍ، أقبل فيه على الله، ورفع يديه بعدها يدعو الله، لا يدعو أحدًا غيرَه.

وهو يعلم أنّ الصّلاة هنا بمثل الصلاة في بيته؛ لأنّي قد أخبرتُه بذلك قبل الصّعود. ولذلك أشعر أنّ ما فعله هنا هو تعبيره عما يحسّه من جلال هذا المكان، وحضوره في ذاكرتنا الإسلامية، البُقعة التي حصل عندها ذات ليلة ما غيّر وجه الأرض.

ومن هنا، تأتي الفائدة من القصة كلّها، وهي أننا يجب حين نريد الحكمَ على أمرٍ ما، أن نجرّده من كلّ ما لا يدخل في حقيقته، تجرّد الفكرة وتجعلها عارية مجرّدة، ثمّ تحكمُ عليها.

ولا أعلم هل أنا مصيبٌ أم مخطئ، ولكن هذه، هي الفكرة التي جرّدتها من صنيع أخي الذي صلّى الوتر في غار حراء، وجلس يدعو الله تبارك وتعالى. والله أعلم به، وأعلم بما قام بقلبه.

نعم، الاعتقاد بأنّ صلاة ركعتين في غار حراء له فضلٌ ومزيّة عن صلاتي ركعتين في جوف بيتي= بدعةٌ. ولكن هذه فكرة عامّة، لا تنزّل على كل حالة بعينها باضطراد.

هل فهمتم قضية تجريد الفكرة؟

لا تقف يا ولدي عند كلمة (الفكرة)، سمّها الخلاصة، سمّها العُقدة، سمّها النموذج. ليس الاسم هو المهم، المهم أن تكون قادرًا عن التّحليل

وإخراج كلّ ما لا علاقة له بموضوع دراستك. ثم حين تجرده من كل ذلك تغدو أمامك الفكرة أو الخلاصة أو العُقدة أو النموذج، واضحةً بيِّنة.

خذوا مثلا آخر من واقع قصصكم الطّفولية وهي حكاية الذئب والعنزات السّبعة، خلاصتُها كما تذكرونها ويذكرها الجميع: أنّ الذئب بعد أن ابتلع العنزات السّبعة، ونام تحت شجرة. أدركته الأمُّ فبقرت بطنه، واستخرجت صغارها، ثم وضعت مكانهم حجارةً سبعةً، فلما استيقظ الذّئب، وأحسّ بالعطش الشديد ذهب إلى البئر، فمال إليها ليستخرج الماء، فوقع من ثقل الأحجار التي في بطنه في البئر، ومات الذّئب الشّرير.

هذه هي خلاصة الرّواية الشّعبية الألمانية، وبُثينة العيسى حين روت الحكاية في كتابها (قيس وليلى والذّئب)، أضافت تعليقًا إذا تأمّلتموه لوجدتم قضيتنا (تجريد الفكرة)، قالت: (مسكينٌ الذّئب، فقد أكل عندما جاع! لم أكن أعرف بأنّ هذه خطيئة).

الفكرة: أنّ ما فعله الذّئب لا يخرج عن طبيعته التي خُلق عليها، فماذا تنتظر من ذئب جائع أن يصنع إذا لقي عنزاتٍ سبعة. صفه بما شئت

من الصّفات، ولكنه ليس مجرمًا، إنّما ببساطة ذئب، وفي مأثور أقوال العرب: خلّك ذِيب.

أنا لا أقرأ كلّ يوم، وليس لي معدل لا أنزل عنه في القراءة، وتمرّ بي أيامٌ كثيرة لا أقرأ فيها صفحة خارج أوقات العمل، ولكني كثيرًا ما تسكنني أفكارٌ كثيرةٌ من قراءات قديمة، أعيش فيها، ولا أخرج منها. أذكر أني بعد أن قرأتُ رواية (عساكر قوس قزح) سكنت الرواية ذاكرتي أكثر من شهر، أتمثل شخصياتها، وأفكارها، وأخرج منها بحكايات وحكايات على هامش تلك الحكايات.

يقول بومبو (الكتب التي التهمت والدي): إنني أقرأ الحكايات المختبئة في المساحات البيضاء من الصفحات، وبين حروف الكتب، وفي الفضاءات بين الكلمات. إنها قواعد مبنية على الخيال.

الأحد 23 محرّم – 22 سبتمبر

لستَ المحور!!

اسمع يا عزيزي توفيق، اللّيلة الماضية تعرّفتُ على طفل في العاشرة من عُمُره، تقريبًا في مثل سنِّك. ولكنّه يكاد يكون أكثر الأطفال سوء حظٍّ في العالم، فقد وُلُد بمرض نادر يصيب طفلا واحدًا من بين أربعة ملايين طفل، وفي الوقت نفسه يكاد يكون أوفر الأطفال حظًّا في العالم، فقد وُلد في عائلة يرفرف فيها الحبّ.

أحببتُه وأظنّك حين تتعرَّف عليه سوف تحبُّه، فهو يشبهك كثيرًا، طفلٌ ذكيٌّ، سريع البديهة، دقيق الملاحظة، كثير الأسئلة. وُلد أوغست مشوَّه الوجه، وبعد عدَّة عمليات جراحية تجميلية، صار بإمكانه أن يغلق فمه، وأن تكون عينيه اليمنى قريبة من أنفه، واليسرى في منتصف وجهه، مع خدَّين سائلين، وكأنّهما سُحقتا بالنَّار.

نعم، أعلم أنَّه دميمُ الخِلقة وأنت –حمدًا لله– لست كذلك، ولكنه لم يختر أن يكون هكذا، ولا يجبُ أن يحاكم النَّاسُ على ما لا اختيار لهم

فيه. أفعال النَّاس فقط هي الشَّاهدة عليهم، وأوغست لم يختر أن يكون طيِّبًا مع النَّاس، وإنَّما اختار أن يكون أكثر طيبةً، وأوغست (أو أوجي كما يُنادى في بيته) إذا خُيِّر بين فعلِ الصَّواب وبين الطِّيبة، فإنّه يختار أن يكون طيِّبًا.

عاش أوجي طفولته وهو يضع خوذة رائد فضاء إذا خرج من المنزل، حتى لا يثير فزع الكبار قبل الصّغار عند رؤية وجهه، ولم يدخل مدرسةً، بل كانت أمُّه تعلِّمه في البيت، حتى قررت أن يلتحق بالمدرسة في الصَّف الخامس، وهو الصَّف الذي ينتقل بعده الطالب في المدارس الأمريكية من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة المتوسطة.

بالطبع واجه أوجي في المدرسة ظروفًا صعبة، ولكنه في النهاية استطاع أن يكوِّن صداقات حقيقية، لأنّه كان في داخله جميلا جدًّا، وكان ظريفًا جدًّا، وكان مرحًا جدًّا. وأنت يا صديقي في داخلك جميلٌ جدًّا، وظريفٌ جدًّا، ومرحٌ جدًّا.

سأله صديقه جاك مرَّة: هل سيظلّ وجهك هكذا يا أوغست، ألا يُمكن أن تجري جراحة تجميل أو شيئًا من هذا القبيل؟ فردّ عليه أوجي بابتسامة وأشار إلى وجهه: مرحبًا، هذا هو وجهي بعد جراحة التّجميل. فضرب

جاك جبينه بيده وبدأ يضحك بهستريا، وردّ عليه بين قهقهاته: يا صاحبي، عليك أن ترفع قضيةً ضدّ الطّبيب. ثم انفجر الاثنان في الضّحك.

ويروي جاك أنَّ زميلتهما سَمَر، قالت لهما: الحقيقة أنا أتّفق مع ماما، أنا أرى فعلا أننا صغار على المواعدة. أقصد، لا أرى داعيا للاستعجال. فقال أوجي: نعم، أنا أوافق. وهو أمرٌ يدعو للأسى، تعرفين، مع هذا الكم من البنات اللاتي يفرضن أنفسهن عليَّ.

يتمّ القصة جاك بقوله: قالها بطريقة مرحة، حتى إنّ الحليب الذي كنت أشربه خرج من أنفي عندما ضحكت، وهو ما جعلنا جميعًا ننفجر بالضحك.

ومرّة رأى زميلته مايا تحمل ميدالية برأس دمية قبيحة كانت شائعة بين الطالبات في المدرسة، فقال لها: هل تعرفين أنّ صانع هذه الدّمى استوحى فكرته منّي. وحينما أدركت مايا أن أوجي يسخر من نفسه، اندهشت، وقالت له: أنت مضحك جدًّا يا أوغست.

لكن لا تغرّك هذه المواقف التي حكيتها لك، فتظنّ أنّ صاحب هذه الروح المرحة لم يكن يُغْرق وسادته بدموعه، من جرّاء عاهته.

لقد قرأتُ أنّ أوغست ليس شخصية روائية خيالية، بل شخصية واقعية. رأته يوما الرّوائية بالاسيو عند محل بيع آيس الكريم، فاستوحت قصتها، وأنتجتها هوليوود فيما بعد.

هذه الرِّواية الإنسانية يا توفيق، تدور داخلها عدَّة روايات، ولكل رواية راوٍ يحكي قصته مع أوجي، ولكل قصة رسالة.

يجب أن نفهم أنَّ كلّ شخص فينا يحملُ جزءًا من الاختلاف الذي في أوجي، لديه قبحٌ ما، لديه شيء أو أكثر يُنبذ به من أولئك المتنَّمرين، ولكن لا يعني هذا أن كل شيء يدور من حولك يتعلق بشخصك.

الحياة معقدة بدرجة كبيرة، والحقيقة لا يمكن أن تظهر من وُجهة نظر واحدة. إنَّ الحياة قادرة أن تفاجئك في بعض الأحيان، وتدهشك بأكثر الأشياء مخالفةً لما تعتقده، فمَن تظنه لا يحبك هو أكثر شخص استعدادا للتضحية بنفسه من أجلك. فلا تفسِّر أقوال أشقائك أو أصدقائك أو معارفك حين لا تفهمها= أنَّك مقصودٌ بها، فلستَ يا صديقي مركز الكون، ولا نقطة دائرة اهتمامات النّاس.

أنا على يقينٍ يا توفيق أنّك إذا قرأتَ رواية (أعجوبة) التي كتبتها: آر جيه بالاسيو؛ فسوف تحاول دوما أن تكون أكثر طيبةً مما تستطيع،

وأنّك إذا خُيِّرتَ بين فعلِ الصَّواب والطِّيبة، فسوف تختار أن تكون طيِّبًا.

إنّ النّاس لن يتذكروا كم كنتَ ناجحًا في حياتك، ولن يتذكروا إنجازاتك في الحياة، لكنهم سوف يتذكرون كم كنتَ طيّبًا معهم!!

الإثنين 24 محرّم – 23 صفر

حكايات!!

الحكايات من أجمل الموضوعات التي يمكن أن تدور بين الأب وابنه. وأبوكم رجلٌ صنعته الحكايات، شغف بها في طفولته وصباه، وحين راهق الحلم، وحين اشتدّ عوده، وحين طرّ شاربه، وحين غدا كهلًا، وبعد أنا صار شيخًا، كانت الحكايات والقصص هي عالمه.

ومن بوابة القصص ولج أبوكم عالم الحديث الشريف والسّيرة النبوية، فتخصص فيها. فنصوص السنة الشريفة هي حكايات وقصص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال وفعل، وسكت وأعرض.

بالأمس يحدثني أحمد عن حدث مثيرٍ في يومه المدرسي، خلاصته: أنّه صنع كعكةً، واقتطع منها جزءًا، وأعطاه لزمليته التي ساعدته كثيرًا في تعلم اللغة التّايلاندية، وكان لها فضل كبيرٌ في تحصيله الدّراسي. ولعله كان كريما معها فكانت القطعة كبيرةً، فاقتسمته في الفرصة المدرسية مع خواصّها من الطلاب والطالبات. وفي المساء حدّثته هاتفيا أنّ الجميع

أعجب بكعكته، وأنّهم رغبوا أن يصنع لهم كعكة أخرى، ولكن بمقابل مالي.

تفاعل أشقاؤه مع قصّته (من فوائد التّقنية)، وبعد نقاش وأخذٍ وردّ؛ ذكرنا له: أنّ الأمر قد يغدو نواةً لتأسيس شراكة لمشروع حلويات صغير هو وزميلته. يتحملان الكلفة المالية مناصفةً، ويتوزّعان العمل بينهما، هو يقوم بالشَّأن الفني، وهي تقوم بالشّأن الإداري والتّسويقي، والرّبح بينهما مناصفة، وشريحتهم المستهدفة طلاب وطالبات المعهد الإسلامي، والكمية اليومية بحسب الطّلب، والحجز يكون قبلها بـ 24 ساعة.

لا تدري –يا أحمد– أين تقودك هذه الفكرة، لا سيما وقلبك لا ينتظم نبضُه في حضورها؟

أما مالك؛ فأنشأ على اليوتيوب قناةً يشارك بها قصصًا عن نفسه، يحبّ أن يعلمها النَّاس عنه. يقيس فيها مدى تقدّمه في اللغة الإنجليزية. ويُضيف في الحلقة أحدَ زملائه في الجامعة (ويبدو أنّ الضيف الدّائم هو صديقه الصّيني). ويتلقّى تعليقات أصدقائه حول الموضوع، ويتفاعل معها، وكل ذلك بالإنجليزية.

الحكايات قادرة على جعل النّاس يعطونك اهتمامهم، لا تنس هذا يا مالك. إنّها خطوة في صناعة المستقبل وأنت في أوّل مرحلتك الجامعية، أرجو لك أن تؤتي أُكُلَها.

سفيان له حكاية أخرى، حكاية أكثر جديَّة، خصّني بها، مشروع من مشاريع الحياة، ليس موضوع تخرّج، ولكنه لا يقلّ عنه أهميّة، ويتقاطع معه.

أرجو –يا ولدي– أن تكون هذه الحكاية آخر حكاياتك الخاصّة من هذا النّوع، وأن يكتب الله لك الخير.

الحكايات والقصص والرّوايات قوالب وروحها اللغة، فبدون اللغة لا تكون حكاية ولا قصة ولا رواية. ولهذه اللغة قواعد يتكلم بها أهلها، ويلتزمون الكتابة بها.

وللغة أساطينُ بيانٍ، وفرسان حرف، ومن هؤلاء من أجالسه في هذه الليالي التي بدأت تطول: أحمد حسن الزّيات في (المتقبس من وحي الرّسالة).

إنّ اللغة التي يكتب بها الزّيات في مقالاته التي جُمعت من مجلّة الرسالة وطبعت في أربع مجلدات (وحي الرّسالة)= لغة رشيقة فخمة، دانية

الألفاظ عميقة المعاني. لغته طيّعة ليّنة يجري فيها البيان في أجمل صوره وحُلله. وأيا ما يكون الموضوع؛ فإنّك منجذبٌ إلى القراءة، مستمع بالحديث، طَرِبٌ لجرس حرفه. شاعرٌ في نثره.

لقد كان الزّيات رئيس تحرير مجلة الرّسالة وهو صاحب الامتياز، وكان يكتب فيها طه حسين ومصطفى صادق الرّافعي وعباس العقاد وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وسعيد العريان ومحمد مندور ومحمود محمد شاكر ومحمود تيمور وآخرون، ولم يكن يومَها أديبٌ في العالم العربي إلا كتب فيها مثل علي الطنطاوي وأنور العطّار وسعيد الأفغاني وغيرهم من الشّام والمغرب، واستمرّت (مجلة الرّسالة) عشرين عامًا.

والزّيات يروي في (وحي الرّسالة) قصصًا وحكايات، ويكتب أدبًا وفكرًا ونقدًا، ويقدّم خلاصاتٍ في قراءة أعمال أدباء عصره.

رحم الله أحمد حسن الزّيات؛ فقد ترك إرثًا عظيما لأجيال وأجيال.

الثلاثاء 25 – 24 سبتمبر

أن تحسّ بالحياة!!

مما علق من (المتقبس من وحي الرّسالة) لأحمد حسن الزّيات:

- أَلِفْتُ أن أزورَ رمضان في ربوعه الأصيلة ومغانيه الباقية.

- متى يصبح الصّباح؟

- شهد ضخامة الماضي، ويشهد ضآلة الحاضر.

- واستطاع النظر القصير أن يجمع الوادي في نظرة.

- وينساب بينهما النهر العظيم بما يحمل من حياة وخصب.

- وقف القطار ضحى على محطة الأقصر.

- تقوم أعشاش الطيور على شم الصخور.

أبنائي تأمّلوا هذه العبارات قليلًا، وسنعود إليها لاحقًا بعد أن أحكي هذه الحكاية اللطيفة:

يا دكتور، إيش هذا التّواضع؟

بهذه الجملة ابتدأ توفيقُ حديثَه معي، كان قد انتهى لتوه من قراءة الإهداء الذي أخبرتكم عنه، وراقته عبارة (إلى الأستاذ توفيق)، وكأنّه يقول: بس دا تواضع كبير منك يا دكتور، وتكتب (أستاذ توفيق)، وفي الأخير تكتب: (محبّكم عدنان أحمد). مرة كثير.

لقد قلتُ لكم: إنّ هذه الجملة سوف تسحره، وتأخذ بلبّه، وها هو يتفاعل معها كما توقعت، ولم تمرّ عليه مرور الكرام.

يا دكتور خالد، لقد أسلمته إليكم (رحمكم الله)، وإنّي لأرجو أن تأخذوا بيده حيثُ شئتَم، فلا يزال غضًّا طريا طينةً طيّعةً. ولا يخفاك يا دكتور خالد (رحمك الله): أنّ اللقاء الأوّل يخلق الانطباع الأوّل، ويغدو هو الانطباع الأخير الذي لا يتغيّر؛ إذ لو كان انطباعًا سيِّئًا؛ فإنّه سيُنحَتُ في ذاكرةٍ من حديد.

لقد كنتُ شاهدًا من قريب على تأثيركم في عدد غير قليل ممَّن كانوا يومًا في مثل سنِّه، وكنتُ أعجب أنّ تأثيركم تجاوز الشّباب والشّواب إلى المعلمين والمربّين. وقد قرأتُ لكم بتأثير أحد الأصدقاء المُربين (رحمه الله) إحدى إصدارات سلسلة (ما وراء الطبيعة)، وكانت بعنوان: (منتصف

اللّيـل). وكنـتُ في تلـك الأيّام لا أقـرأ إلا في الأمّهـات، فـأردتُ أن أتصفحه مخادعةً لهذا الصديق، ولكن أسلوبكم الشّيق ولغتكم السّهلة وقصصكم الغامضة المرعبة، كلّ ذلك أفضى بالتّصفح السّريع إلى قراءته من الغلاف إلى الغلاف، ولم أتحرّك من مجلسي. ولولا أنِّي قد تجاوزتُ في مرحلتي تلك (ما وراء الطبيعة) لتتبعتُ المجموعة الكاملة.

ولكن ما فاتني لم يفت توفيقًا، فبين يديكم –يا دكتور خالد– مشروع قارئ واعد، وإنِّي لأرجو أن يكون في موازينكم (غفر الله لكم).

عودًا للزيات ..

لقـد نفـخ الـزّيات في عباراتـه الحيـاة في الجمـاد، وأمسـك بالأشـياء غـير المحسوسـة، فشـهر رمضـان صـديقٌ عزيـزٌ يُـزار، والصَّـباح ينـام ويُرتقـبُ صحْوُه، والشمس تطلُّ على دنيا النّاس فتشهد على حياة من مضى، وتستشرف حياة الشاهدين. والعينُ رجلٌ محدودُ القـدرة طافَ أطرافَ الـوادي الشاسـع في لحظات. والنهـر العظيم يمشي بهدوء وتؤدة ولكـن الحياة والخصب تضطربان في قُفّته التي يحملها على رأسه. والقطار دقيقٌ في مواعيـده، تجده واقفًا حاضـرًا في المكـان والزمـان المحددين. وليسـت الطيور من بَنَت أعشاشها، بل الأعشـاش مَن اختـارت أن تقـوم علـى رؤوس الصخور الشّوامخ.

نفسٌ تشعر بالحياة تدِبُّ في كل شيءٍ حولها، فتتحسس تلك العوالم، وتطيل التّأمُّل فيها، وتدمنُ طرق أبوابها علّها تأذن بوُلوجِ عوالمها، فتأنس لحديثها وحكاياتها، وتُدهش لأسرارها وقوانينها. عوالم تحيا من حولك بزمن الحياة نفسها.

يزور الزيّات الأقصر التّاريخية، فيرسلُ طَرْفه في شواهدها: فحيثما أرسلَتْ طَرْفَكَ أو نقلتَ خطاك وجدتَ حجرًا يكلِّمُك أو أثرًا يُلْهِمك. وخرجنا نشهدُ وداعَ الشّمس الغاربةِ لأطلال معبد الأقصر.

أبنائي، إنّ فينا وفي الكون لآياتٍ ودلائلَ على عظمة الخالق سبحانه، فاستنطقوها!!

الأربعاء 26 محرّم – 25 سبتمبر

رحمك اللّه يا كيات

أسلمني خبرُ وفاة أخي كيات إلى نفسي، أيّ غرور يتردد في داخلي، وأيّ غفلة تتلبسني وأنا أركض في متاهات هوي ولعبي. أرى الموت يتخطف رفاقي واحدًا إثر الآخر، دون أن يترك ذلك أثرًا في نفسي يردّني عن بعض غيي وظلمي لنفسي، وكأن الذي كُتب عليهم لم يُكتب عليَّ، وأنَّ الذي عاجلهم سوف يمهلني.

عرفتُ أبا الحسن كيات سن آدم حين اتّصلت أسبابي بشباب جبل السُّودان، كانوا من خيرة أبناء فطاني الذين سلكوا طريق الجدّ والحزم، والعناية بأنفسهم في تزكية النّفس، وتتطلب فضائلها، وطلب العلم الشرعي.

كان أبو الحسن مذ التقيتُ به أوَّل مرَّة عام **1418**هـ في حفل معايدة للطلبة التّايلانديين في الجامعات العربية، والذي أقيم في منزل أبي عبد الله شكري سليمان= متميِّزًا بابتسامة محببة عذبة، لا يتصنعها لأنّها لا تفارقه، فحيثما رأيته صافحك بابتسامته.

كيف استطاع أبو الحسن أن يحافظ على هذه الابتسامة، إن لم يكن خلفها نفسٌ تتحلى بالسَّماحة والكرم، نفسٌ لا تنطوي على غلّ ولا حسدٍ، ولا سوءِ طويّةٍ. نفسٌ لا تعرف إلا الخير للناس.

لم يترك أبو الحسن في نفوس محبيّه ورفاقه إلا الحبَّ، ولا يذكرونه إلا بجميل الذّكر، لم يسعهم أبو الحسن بماله، فقد كان مستور الحال كريم النّفس، ولكنه وسعهم بكريم خُلقه، وأسرهم بسحر ابتسامته. كان في المحافل صاحبُ يدٍ طولى في الخدمة وتقديم يد العون. لا يتأخر عن مبادرة ولا معروف يتهيا له أن يسهم فيه بجهده ووقته. يمتدّ أثرُه إلى جيرانه فيصلهم بإيصال الخير لهم، ويبادر إلى خدمتهم وهم حدثاء عهدٍ بجيرته، فيبادرهم بكرمه، ويصلهم بحبل وُدِّه. وما يبذله لهم لا يُعدّ في موازين دنيا النّاس شيئًا، ولكن المعروف يأسر قلوب الكرام، فكانوا اليوم يبكونه بكاءَ مَن فقد وحيدَه.

وُلِد أبو الحسن في السَّادس من رجب عام **1976**؛ يصغرني بخمس سنين، ولكني تعلمتُ من أخلاقه وبذله الشيء الكثير، ولقد خالطتُه كثيرًا في عمله، وأكثرتُ عليه، فما سخط عليَّ يومًا، ولا أسمعني إلا كلّ قولٍ حسن.

خرجت روحه الطّاهرة في مسجد الرّيمي الذي كان يقوم على تنظيفه وتبخيره للمصلّين حسبةً لله، ويوليه عنايةً خاصّة يوم الجمعة حتى بعد أن ابُتلي بضعف قلبه، لم يخرج عن عادته وسيرته في تنظيف المسجد قبل الجُمعة. فأمر الله الكريم سبحانه بقبض روحه فيه، فأرجو أن يكون من السّبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم القيامة، فقلبه معلّقٌ بالمساجد، أحسبك كذلك والله حسيبك يا أخي كيات.

اللهمَّ؛ لقد قضيتَ قضاءك بالحقّ في أخي كيات، فجاءه الأجلُ فشقّ إليه الطريق، وقد نضا عنه طِبَّ كلِّ طبيب، فقبض ملكُ الموت وديعتَه في الأرض، ثم استودع مسامعنا من ذكره اسمًا باقيًا، ومحا عن الأبصار من شخصه رسمًا فانيًا، فلك الحمد.

اللهمَّ؛ هذا عبدك وابن عبدك، نشأ في المأمور به من طاعتك، ومات فيما نظنّه على الحقِّ في عبادتك، وعاش ما بينهما في النَّاس بسريرةٍ حسنةٍ وسيرةٍ عطرة، يطلبُ وُدَّهم، ويصبر على أذاهم.

اللهمَّ؛ تقبل عمله، واغفر زلته، غير خال من عفوك، ولا محروم من إكرامك. اللهمَّ؛ أسبغ عليه الواسع من فضلك، والمأمول من إحسانك.

إنَّ عزائي في فَقْدِك يا أخي كيات أنّك تقدُمُ على مَن هو أرحم بك من أهل الأرض والسّماء، وأنَّ اللقاء بك –يا حبيبي– قريب.

كتبتُ هذه التدوينة، ولما يُغيَّبُ بعدُ أخي كيات أبو حسن في قبره، ولم يوسَّد في لحده، بلغني خبر وفاته وهو في مسجد الريمي بعد صلاة الجُمعة، وهذا عاجل بُشرى المؤمن.

الجمعة 28 محرّم – 27 سبتمبر

عيناكِ بصري

هذا حديثٌ قديمٌ عن أيّام المرحلة المتوسطة، أقارنُ فيه بين حياةٍ عشتُها وصارت من أسمار الطِّيبين، وحياتكم. كانت الإجازة الصّيفية تمرّ بنا، فتكون أثقل ما تكون على صدري. وذلك؛ لأنَّ التِّلفاز لا يُبثُّ إلا عند التَّاسعة صباحًا، وتستمر برامجه حتى الواحدة ظهرًا. ثمّ يعودُ للبثِّ عند الرَّابعة أو الرّابعة والنّصف عصرًا، وحتى الواحدة صباحًا. ولم تكن برامجه –غير برامج أفلام الكارتون– تسلِّي أطفالا في مثل أعمارنا، ولكنّا شاهدناها نزجي بها الوقت، وندفع الملل، فتزيدنا سآمةً ومللًا.

وبرامج تلفاز الصّيف هذا، يُعدُّ مرفَّهًا، وسببه الإجازة فقط، أما أيّام الدّراسة فلم يكن هناك بثٌّ في الفترة الصَّباحية إلا يومي الخميس والجُمعة، فكنّا نتابع على مائدة الغداء يوم الخميس (أخبار المملكة في أسبوع)، ويوم الجمعة (أخبار العالم في أسبوع). وبهذا تعرفون أنّ المتعة الوحيدة لنا إذا غبنا عن المدرسة: أن ننام حتى أذان الظهر.

كانت القراءة هي هوايتي المفضّلة، ولكنها قراءة تتجّه في وِجهةٍ واحدة، وهي القصص المصورة، ولكن طولَ الإجازة جعلني آتي على كلّ ما حوته خزائن أشقائي منها، فأعيدها، وأكرر النظر فيها، مرّة بعد أخرى حتى سئمتُها. فبدأت أبحث عن شيءٍ جديدٍ.

ولذا؛ سأحدثكم عن أوّل رواية حبّ قرأتُها في حياتي، تسللتِ الرِّواية إليَّ من مكتبة شقيقتي الكبرى أم فيصل (حفظها الله).

عثرتُ على هذه الرّواية (عيناك بصري) حين بدأتُ البحث عن قراءات جادة لأقضي بها على ساعات النهار في الإجازة الصيفية لعام 1406 أو قبلها (الرّواية الأصلية صدرت عام ١٩٨٢ بعنوان: العصا العاجية، للكاتبة الأمريكية جانيت ديلي).

لا زالت هذه الرّواية في ذاكرتي إلى اليوم، أبصر من خلالها سارينا واقفةً على رصيف الميناء تنتظر أباها. لا شيء في مظهرها يوحي بأنها فتاة عمياء، فقد كان مجرد تخيلها نظرات الشفقة في عيون المارّة، يقتلها. وهكذا اصطدم بها كاميرون، وهو عائد من نزهته البحرية.

ولا زلت أتذكر الخطوط العريضة للحوار الذي دار بينهما في خاتمة الرّواية في قبو مرسمها، وهي تحاول جاهدةً أن تخفي التمثّال النصفي الذي مثّلته لوجه كاميرون، كما أبصرته بقلبها.

هذه الرّواية كسرت الحاجز الذي بيني وبين أمثال هذه القراءات، فلم أكن أتصور حينذاك أنني سوف أتمكن من إنهاء رواية من مئتي صفحة خالية تمامًا من الصّور.

بعد صدور هذه الرِّواية في أمريكا (١٩٨٣)؛ خرج المغني الأمريكي ليونيل ريتشي بأغنيته المشهورة **Hello**، ثم غناها في فيديو كليب شهير، جعل من نفسه فيه أستاذًا أكاديميًا يقع في حبِّ طالبته العمياء، دون أن يتمكن من البوحِ لها بمشاعره:

عندما أكون وحيدًا، يتعلق فكري بكِ

وفي أحلامي، أجدني أقبل شفتيكِ ألف مرّة

أحيانًا، يُخيّل أنّي أراكِ خارج بابي

مرحبًا!!

هذا أنا، مَن تبحثين عنه؟!!

أستطيع أن أراه في عينيك!!

أستطيع أن أراه في ابتسامتك !!

أودّ كثيرًا أن أقول:

أحبّك !!

وهكذا، يمضي هامسًا لها بمشاعره دون أن تتمكن من سماعه. وفي نهاية الأغنية يأتيه من يخبره بضرورة الذهاب إلى مرسم الجامعة، فيجد هناك فتاته العمياء تضع لمساتها الأخيرة لتمثال نصفي لوجهه، فتقول له: أخيرًا انتهيت من تصويرك كما أراك بقلبي!!

أعادني ليونيل ريتشي بأدائه السّاحر إلى روايتي الأولى (عيناكَ بصري)، وصار كلاهما يذكرني بالآخر!!

حين كنتُ أتردد على مكتبة الإسكندرية على مدى ستّ سنوات (قبل الرّبيع العربي)، كنتُ أسمع موسيقى ليونيل ريتشي في أروقة الفندق، يسري في أوردتي ناشرًا كل صفحات الرواية من حولي.

حتى صرتُ حين أقف في الشرفة فجرًا، أتأمل العابرين على رصيف كورنيش سيدي بِشر مع نسائم الشّروق= أقف مترقّبًا وقعَ دقات عصاة سارينا على رصيفها، تخطو خطواتها نحو فندقي!!

ولكنها في تلك الصّبيحة الشّاتية، لم تفعل!!

السبت 29 محرم – 28 سبتمبر

أنفاس القُرَّاء

سعيد مهران، لصٌّ من اللّصوص يعيش في رواية نجيب محفوظ (اللّص والكلاب)، وهؤلاء الكلاب لصوص أيضًا، أما سعيد مهران؛ فَلِصٌّ فقط. العجيب أنّ هذا اللّص له عناية بالأدب، ويحبّ القراءة، يقرأها للمتّعة، دون أثرٍ في الفكر والسّلوك.

الأدب شيءٌ لا علاقة له بالوظيفة التي تمارسها لتقتات منها، فهو شيء في الحياة، هو الوسيلة لإدراك الجمال في كلّ ما يتّصل بالحياة، هو سرّ الحياة.

فلا تعجب من لصٍّ مثقّف، فهذه وظيفته التي يتكسّب منها، ثمّ الأدب شيءٌ يتنفسه، ويمدّه بأسبابٍ من المتعة في الحياة، عالمه الذي يهرب إليه، حيثُ لا أحد يسأله عن حياته، أو يُحاكمه بناءً على لونه أو عرقه أو ماركة ملابسه.

لذلك؛ تجد للقراء في العالم كلِّه سماتٌ مشتركة، وأدبيات يتحلَّون بها أو يتحلّون بجزء كبير منها، وفي القُرّاء عُقلاء ومجانين، وفيهم سطحيّون وغوّاصون، وحالمون وواقعيّون. ولكنهم جميعًا يجدون في القراءة ملاذهم من دنياهم، يفرّون إليها من واقعهم، ولا يصطحبون معهم شيئًا غير قلوبهم.

فالقراءة عندهم سعادة:

- لا يمكنني أن أشتري السعادة، ولكن يمكنني شراء الكتب.
- عندما أكون مستاءً، أقرأ حتى أشعر بتحسن.
- إن كنت أبحث عن مكان آمن يبعدني عن كلّ مآسي الحياة، أقرأ.
- عندما يعرض عليّ أحدٌ مشكلته، أيا كانت، أقترح عليه قراءة كتاب.
- سيكون لدي أطفال يشعرون بالسّعادة عندما يُحبسون في غرفهم كعقاب.
- لديّ قناعة أنّ مشاكل العالم ستكون أقلّ لو قرأ الناس كتبًا أكثر.
- أنسى أحيانًا أن آكل أو أنام؛ لأنّ الكتاب الذي أقرأه جميل جدًّا، ولا أستطيع التوقف عن قراءته.

وهي علاقة حبٍّ غير مشروطة:

- أشعر بصلة عميقة تربطني بأحد الأصدقاء بسبب العناوين التي وجدتها على رفوف مكتبته.
- لديَّ اضطرابُ نوم فظيع، يدعى قراءة الكتب الجيدة.
- أتمنى أن ألتقي بشريك حياتي في مكتبة، لا في أيِّ مكان آخر.
- عندما يكون الكتاب رائعًا، أشعر دائما أنه قصير جدًّا.
- عندما يراني أحدهم أشم كتابًا، يظنني مجنونًا.
- عندما أنتهي من قراءة كتاب جيِّد، أشعر وكأنِّي فقدتُ جزءًا منِّي، ولا أعرف ماذا أفعل بنفسي.
- أشعر بخسارة لا تعوض وحزن كبير إن أضعت أحد كتبي، لأن النسخة التي كتبت على هوامشها لا يوجد مثيلها في كل مكتبات العالم.
- أشعر بالغضب عندما أقرأ مراجعة تنتقص من قيمة كتاب أحببته جدًّا.
- أحزن لموت الكتّاب والمؤلفين، رغم أني لم أقابلهم أبدًا.
- أشعر بالغضب عندما يطلب مني أحدٌ أن أقوم بشيء أكثر نفعًا من قراءة الكتب.

وهي حالةُ جنونٍ وهوس:

- لديَّ مجموعة أشياء غريبة وجدتُها في الكتب التي استعرتُها من مكتبة الجامعة، استخدمها القرّاء كعلامة للكتاب (رقم هاتف، منديل، عملة ورقية، أزهار جافة، أوراق روزنامة قديمة).
- دائما أشتري كتابًا جديدًا قبل أن أنهي قراءة الكتاب الحالي.
- أحبُّ الكتب القديمة ذات الأوراق الصَّفراء المهترئة أكثر من الكتب الجديدة اللَّامعة.
- أتمنى لو أحصل على كوب شاب يكفي كتابي، وكتاب طويل بما فيه الكفاية ليروي عطشي.
- أذهب للمكتبة لأعيد كتابًا استعرته فأعود ومعي أربعة.
- أفضل إنفاق نقودي في شراء الكتب بدلا من إنفاقها على أحدث الموضات.
- عندما يكون الكتاب الذي أقرأه كتابًا جيدًا أخفي الصفحات التالية لكيلا أسترق النظر إليها.
- إذا كنت سأضيع يومًا أتمنى أن يكون ذلك في متجر كتب.
- أشعر بالإحباط عندما لا أنفذ مخططاتي بقراءة أكثر من كتابين في الأسبوع.
- عندما أفكر بإسعاد أحدهم أو تقديم هدية له، لا يخطر ببالي سوى الكتب.

- أتأخر عن العمل كثيرًا؛ لأنّ الليلة الماضية كان عليّ أن أنهي قراءة فصل جديد.
- لديّ آلام في الرقبة والكتفين والظهر؛ لأنّي قرأت في أوضاع غير صحية.
- غالبًا ما أواصل في نومي رؤية أحداث الرواية التي كنت أقرأها قبل النوم.
- أعتبر كلّ زاوية فارغة في منزلي مكانًا مناسبًا لوضع الكتب.
- مهما كنت مستعجلا لا أستطيع أن أمر بمكتبة أو مخزن كتب دون إلقاء نظرةٍ.
- أحلم أن أؤسس مكتبة صغيرة لإعارة الكتب، رغم أني أعلم أني لن أسمح باستعارة كتبي.
- كل ما حولي يصلح لأن يكون مؤشرًا للكتاب: قلم، ورقة، عملة نقدية، بطاقة شخصية، هاتف، مفاتيح، صور، ثم أنسى أين وضعتها.
- أتمنى لو كان بين شروط التقدم للوظائف أن يكون المتقدم قارئًا للكتب.
- لدي هاجس بتصحيح الأخطاء النحوية والإملائية في كل ما أسمع وأقرأ.

- أنا لستُ انطوائيا ولا كائنًا غير اجتماعي، كل ما هنالك أني أريد أن أقرأ فقط.
- عندما أرى أحدًا يقرأ في مكان عام أختلس النظر لأعرف عنوان الكتاب الذي يقرأه.
- أتمنى زيارة جميع المكتبات في العالم.
- إنه صباح كئيب ذلك الذي أستيقظ فيه بعد انتهائي من قراءة كتاب رائع.
- أخشى أن لا أقرأ جميع الكتب التي أرغب بقراءتها.
- أحب نظاراتي الطبية، وأشعر أنها مرتبطة بالكتب.
- لدي رغبة ملحة بالحديث مع غرباء فقط لأني رأيتهم يقرؤون أحد كتبي المفضلة.
- أصحح الأخطاء الطباعية في الكتاب، وأفكر بمراسلة الناشر وإخباره بتلك الأخطاء.
- أول شيء أفعله عند الوصول لأي بلدة أو مدينة هو البحث عن مكان المكتبات فيها.

وهي سفرٌ وسياحة في عالمنا وعوالم موازية لنا:

- الكتب أرخص إجازة يمكن أن أحصل عليها.
- الكتب بالنسبة لي هي الـ (يوتوبيا).

- حياتي مضطربة، لكن الكتب تساعدني على الاستمرار، لهذا أشكر جميع كتّاب العالم.
- عندما أقرأ سطرًا رائعًا، أغلق الكتاب وأحدق في الجدار لدقائق.
- أفكر دائمًا كيف سأنهي بقية التزاماتي لأتفرغ لإكمال قراءة الكتاب.
- الحياة بين صفحات كتاب هي أكثر واقعية بالنسبة لي من أي مكان آخر عشت فيه.

يعيشون داخل كتبهم وقصصهم:

- أشعر أنَّ على أحدهم أن يكتب كتابًا يقع فيه البطل في حبِّ قارئه.
- أحبُّ شخصيات الكتب أكثر من الأصدقاء الحقيقيين.
- أقرر أن أصبح كاتبًا بعد كلّ كتاب رائع أقرؤه.
- في كلّ مرّة أحبّ فيها شخصية جديدة أفكر أنني سأختار اسمها لأولادي، لهذا لدي الكثير من الأولاد، لكنهم غالبًا يبقون على الورق.
- أريد أن أعرف ما الذي سيحدث في القصة ولكن لا أريد للكتاب أن ينتهي.

- أستمر بالتفكير بالشخصيات حتى بعد أن أنهي قراءة الكتاب، وأتساءل ما الذي سيحدث لها.
- لديّ مشاعر حقيقية تجاه شخصيات متخيلة.
- أعاود قراءة الكتاب أحيانًا بعد أن أكتشف نهايته لأتأكد إن كانت مقنعة.
- أبكي أو أضحك بصوت مرتفع أثناء القراءة، فيعتقد الآخرون أني مجنون.
- أكره أن يقاطعني أحد أثناء اندماجي في القراءة دون أن ينتبه أن الكتاب بحدّ ذاته هو لوحة تنبيهية كُتِب عليها "يرجى عدم الإزعاج".
- أشعر بالإحباط عندما يطلق الآخرون اسم "فرانكشتاين" على المسخ، لأن أي قارئ حقيقي لرواية "ماري شيلي: سيعرف أنه اسم الطبيب، وليس المسخ.
- أحاول تفهم الآخرين، وأبحث عمّا يشبههم بين الشّخصيات التي قرأتُ عنها.
- أتساءل إن كنتُ سأمضي بقية عمري وحيدًا، بعد أن منحتني القراءة هذا السقف المرتفع من التوقع لشكل العلاقات.

- أحيانًا أكون غير قادر على البدء بكتاب جديد؛ لأنِّي لا زلتُ أحيا في عالم الكتاب السابق.
- أحكم على الآخرين من خلال نوعيات الكتب التي يقرؤونها.
- أفضّل أن أمضي وقتي مع شخصيات خيالية.
- يمكنني أن أتسامح مع أخطاء الشخصيات الروائية أكثر مما أتسامح مع الناس الحقيقيين من حولي.

يتعاملون مع الكتب كأنّها كائنات حيّة مرهفة الإحساس:

- اتخذت قرارًا بعدم إعارة كتبي مرة ثانية بعد أن استعدت أحدها في حالة مزرية.
- أشعر بالحيرة عندما يطلب مني أحدٌ أن أحدد له كتابًا واحد هو المفضل لديّ.
- قد أنسى إساءة أي إنسان لي ولكني لا أنسى أبدًا أنّ أحد الأصدقاء لم يعد كتابًا أعرته إيّاه.
- أتمنى لو أخبر العالم عن الكتاب الرائع الذي قرأته.
- في كل مرة أضيف كتابًا جديدًا لمكتبتي، أرجع خطوة للوراء وألقي نظرة إعجاب على رفوفها.

وهم في المقابل لا يفهمون الذين لا يشاركونهم حبّ القراءة:

- هؤلاء الذين يكرهون القراءة يرعبونني.
- في اللحظة التي أنهي فيها قراءة كتاب، أنظر حولي وأدرك أن الجميع يواصل حياته المعتادة، كما لو أنِّي لم أمر للتو بصدمة وجدانية بين صفحات كتاب.
- ليس لدي أي أشياء مشتركة مع أناس لا يحبون القراءة.
- لن أتزوج شخصًا لا يمتلك الكتب.
- أتساءل دائما إن كان شريك حياتي سيتفهم ما الذي تعنيه الكتب بالنسبة لي.
- عليَّ أن أشرح لمن حولي دائما أن وجود كتاب في يدي يعني: أني لا أريد أن أتكلم مع أحد.
- لا أستطيع أن أفهم، كيف للآخرين أن يحتملوا الحياة، بدون كتب.

علاقتي مع القراءة ليست علاقة مستقرّة، بل يصيبها ما يصيب أي علاقة بين اثنين، من إقبال وإدبار، وتواصل وقطيعة، ووفاء ونكران، وحبّ وبغض، وخصام ومصالحة.

الأحد 30 محرم – 29 سبتمبر

كان يا ما كان!!

تخيّلوا يا أبنائي أننا على شاطئ "هوهين"، ذلك المكان السّاحر الذي كنّا فيه الصّيف الماضي، وتحلّقنا حول نار هادئة بعد وجبة عشاء دسمة، إنّ أجمل جملة يمكن أن تطرق أسماعكم هذه اللحظة، هي:

كان يا ما كان ..

مِلكٌ اتّخذ من شعبه عبيدًا له، فهم يسبّحون بحمده ليل نهار، يبصرون ما يبصره، ولا يسمعون إلا ما يقوله، طريقةً في الحياة يسلكونها، ونهجًا مُعَبَّدًا بأقدام أسلافهم اتَّبعوها.

وكان لهذا الملك في مملكته ساحرٌ يفيء إلى حكمته، ويرسم خطّة سياسته. ولكنه كبُرَ حتى خيفَ عليه الهلاك ولم يُخْلِف أحدًا مكانَه، وليس في المملكة مَن يتأهّل ليحلَّ محلّه. فكان أن أُعلن في المملكة عن دروة تدريبية بمقعد وحيد، يترشح له شابٌ فَطِن من عامّة الشَّعب يختاره

السَّاحر مدرِّب الدَّورة. وهكذا أُختير عبد الله من خيرة غلمان المملكة، شابٌّ ذكي القلب زكي الرّوح.

كان الغلام يختلف إلى السّاحر من قريته، فيمكث عنده يتعلّم، ثم يعود إلى أهله. وفي الطريق بين أهله والسّاحر صومعة راهبٍ من الرّهبان، وكان يضيف المارّة، يطعمهم ويسقيهم، ويؤنسهم بحديثه. فجلس إليه الغلامُ يومًا وهو في طريق عودته، فاستمع لحديث الرّاهب، وأعجبه، فصار يتردّد عليه في الذّهاب والعودة، يجلس إليه، ويتعلم منه.

صار بذلك يتأخّر على السّاحر في غدوّه، ويتأخّر على أهله في رواحه، ويلقى العناء والأذى من الطّرفين، فشكا إلى الرّاهب، فقال له: إذا خشيتَ السّاحر؛ فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيتَ أهلك؛ فقل: حبسني السّاحر.

وهكذا مضى الغلام يتعلم الحكمة والسِّحر معًا، ترتقي نفسُه في أعلى درجات المعرفة ثم تهوي في دركات الجهل، تدور في فكره حقائق الإيمان ودجل الخُرافة، فإذا هو في قراره اثنان لا واحد، عملةٌ لها وجهان، تؤامان سياميان، روحان ملتصقتان لجسد واحد، مشروع غير مكتمل لفكرة فرانكشتاين. ويومًا ما لقي في طريقه ثعبانًا ضخمًا حبس طريق النّاس، فوُضِع موضع الاختبار الأوّل في حياته، فقال في نفسه: اليوم

أعلم آلسّاحر أفضل أم الرّاهب؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم، إن كان أمرُ الرّاهب أحبَّ إليك من أمر السّاحر؛ فاقتل هذه الدّابة، حتى يمضي النّاس.

فرماها به فقتلها، ومضى النّاس بخبره مع الدّابة، فأتى الغلامُ الرّاهبَ فأخبره، فقال الرّاهب: أيْ بنيَّ، أنتَ اليومَ أفضل منِّي، قد بلغ من أمركَ ما أرى، وإنَّك ستبتلى، فإن ابتُليتَ فلا تدلَّ عليَّ.

كانت هذه كلمة الإجازة أو التَّخرَّج في مدرسة الرّاهب، فصار الغلام يبرئ الأكمَه والأبرصَ، ويداوي النَّاس من سائر الأدواء. والنَّاس تظنَّ أنَّه خريجُ مدرسة السّاحر، ويبدو أنَّه تصدَّر للنَّاس بعد موت السّاحر، فالرّوايات لا تذكره في هذه الأحداث. وصار الغلامُ المباركُ حديث المجالس، فسمع به جليسٌ للملك قبل أن يعمى، فيترك مجالسَه، فلما سمع بأثر هذا السَّاحر الجديد (في ظنِّه)= أتاه بهدايا كثيرة، وقال: ما ههنا لك أجمع، إن أنتَ شفيتني. فقال: إنِّي لا أُشْفي أحدًا، إنَّما يشفي اللهُ، فإن أنتَ آمنتَ بالله دعوتُ اللهَ فشفاك.

فآمَنْ بالله، فشفاه الله. ثمّ إنه اشتاق إلى سيرته الأولى في مجالسة الملك، والتي غاب عنها بعد عماه، فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: مَنْ ردَّ عليكَ بصرَك؟

فأجاب الجليسُ: ربِّي.

مفردةٌ ليس لها دلالة ولا معنًى في قاموس الملك إلا ذاته الملكية، ولا يذكرُ أنَّه فعل ما يشير إليه جليسُه هذا، فتعجب: ولكَ ربٌّ غيرى؟

قال: ربِّي وربُّكَ الله.

إجابةٌ قاطعة، قطعت كلّ الاحتمالات والتّأويلات، فماذا صنع الملك؟

إنَّه أمام فكرةٍ جديدة، بدأت تتسرَّب إلى عقول أفراد شعبه، والفكرة تتحول إلى عقيدة، والعقيدة تتحول إلى سلوك وعمل.

إذن؛ لا بدَّ من معرفة مصدر هذه الفكرة الدّخيلة، فأخذه فلم يزل يعذبْهُ حتى دَلَّ على الغلامِ، فجيءَ بالغلام، فقال له الملك: أيْ بنيَّ، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمَه والأبرصَ، وتفعلُ وتفعل. فقال: إنِّي لا أُشْفِي أحدًا، إنّما يشفي الله.

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الرَّاهب، فجيء بالرَّاهب. فقيلَ له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقَّه حتى وقع شقَّاه. ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوُضع المنشار في مفرق رأسه، فشقَّه حتى وقع شِقَّاه.

القتلُ يحتملُ، أما التّعذيب الذي يُتمنّى معه الموت= فإنه لا يحتمل. لذلك لم يثبتوا في الأولى، وثبتوا في الأخرى.

ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه المُرتزقة، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه.

إنَّ قتل الجليس والرّاهب في قصر الملك ليس أمرًا يُقلِق عامّة الشَّعب، أما الغلام فقضيةٌ معقّدةٌ، فهو الغلام الذي تخرّج في مدرسة السّحر الملكية، وهو الذي قضى بمهاراته السّحرية= على دابةٍ عظيمةٍ بحجرٍ رماه عليه. وهو الذي أنشأت له الدّولة دار الحكمة التي يُعالج فيه النّاس بسحره، فيبرئ الأكمَه والأبرص، ويعالج سائر الأدواء والأمراض، حتّى شاع ذكره في البلاد.

هذا الغلام هو أحد مخرجات الدّولة، ومن أفراد المؤسسة الحاكمة. فلا بد من اختفائه، واختفاء جثته، والأيّام كفيلةٌ بمسحه من ذاكرة النّاس، لا سيما إذا شُغِلوا بالغلاء في المواد الغذائية، وشحِّ الموارد الطّبيعية، وانتشار البطالة. وبات همُّ ربِّ الأسرة كفَّ شعيرٍ لا يُغني ولا يُسمن.

فـذهبوا بـه بعيـدًا، صـعدوا بـه جـبلًا، فقـال الغـلامُ: اللهـم، اكفنـيهم بما شئتَ. فرجفَ بهم الجبلُ فسقطوا، وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابُك؟ قال: كفانيهم الله.

فدفعه إلى زمرة أخرى من المرتزقة، فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قُرْقُور، فتوسَّطوا به البحرَ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به، فقال: اللهم، اكفنيهم بما شئتَ. فانكفأتْ بهم السّفينة فغرقوا، وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

كان هذا الغلام يُدرك أنَّ الأفكار لا تموت، وإن مات أصحابُها، بل إنَّ أفكـارهم تتـزيّن عـرائس سـاحرة الجمـال مثـيرةً للخيـال، فـإذا مـا قُتِـل أصحابها سُقيت بدمائهم، فسرت فيها الحياة، ونالت أسباب الخلود.

ويُدرك أنّه صاحب فكرة، وأنّها قد بدأت تروج في أفراد الشَّعب الذين يقصدونه ليعالجهم، لكنه لم يصل جماهير الشّعب، فبدأت معالم خطّته للوصول إلى جماهير النّاس تتضح وتتشكل في ذهنه بحروف بارزة، فأحكمها، ورسم حدودها، وليس عليه إلا الصَّبر وترقّب اللحظة المناسبة. فكان يعود في كلّ مرّة ينجو فيها من الموت إلى الملك، فيسري في النّاس فكرةُ تصوِّر عجز الملك –الذي يزعمُ أنّه ربّ النَّاس– عن قتله، وأنّه لا حولَ له في ذلك، ولا قوّة. ليس له من الأمر شيءٌ. بل إنَّ هذه الفكرة

كانت تأخذها طريقها إلى الملك نفسه، فقد تأكد له من المرّتين أنّه عاجزٌ عن قتل الغلام، قليل الحيلة في تدبير موته.

أدرك الغلامُ أنَّ فرصته قد حانت، وأنّ الملك بلغ مبلغًا من قلّة الحيلة= يمكنه أن يستحوذ عليه فيها، فقال للملك: إنَّك لستَ بقاتلي، حتى تفعلَ ما آمُرُكَ به.

قال: وما هو؟

قال: تجمعُ النَّاس في صعيدٍ واحدٍ، وتصلبني على جذعٍ، ثمّ خذ سهمًا من كنانتي، ثمّ ضعِ السَّهمَ في كبد القوسِ، ثمّ قل: باسم الله ربِّ الغلام، ثمّ ارمني، فإنك إذا فعلتَ ذلك؛ قتلتني.

لقد أعدَّ الغلامُ المشهدَ الأخيرَ من فصول حياته بدقَّةٍ وعنايةٍ شديدة، جهّز المسرح، حدَّد الشخصيات الرئيسة، صاغ الحوارات صياغةً محكمة بجمل قصيرة واضحة، واهتمّ بالتفاصيل المؤثّرة في الديكورات.

ولشدّة رغبة الملك في قتل الغلام ونفي الفكرة التي غدت وباءً بين شعبه في أنّه عاجزٌ وهو القوي القدير على قتل غلامٍ من غلمانه= أشرف بنفسه على كل التّجهيزات التي طلبها الغلام، فجمع النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصلبه على جذعٍ لتراهُ الأعين، ولا يحول شيءٌ دون فردٍ منهم رؤية الأنفاس

الأخيرة للغلام، وأنّه بنفسه تولَّى ذلك، بيده لا بيد أحدٍ من أعوانه. ثمَّ أخذ سهمًا من كنانة الغلام، فوضع السَّهمَ في كبدِ القوسِ، ثمّ قال: باسم الله ربِّ الغلام.

ثمّ رماه، فوقع السَّهم فى صُدْغِهِ، فوضع يده في صُدْغِهِ في موضع السَّهم، فمات.

مشهدٌ حبس أنفاسَ الجماهير، وهم يرون كيف تجلَّى عجز الملك عن قتل الغلام، لولا أنَّ ربّ الغلام قد قضت حكمته أن يموتَ الغلام لنستيقظ نحنُ من سباتنا، ونفيق من سكرتنا، فقد جرَّده الغلامُ من كلّ أسباب القوّة، وبدا أمام الجماهير عاجزًا كلّ العجز. ف (سيناريو) المشهد كلّه من الغلام؛ السّهم من سهام الغلام، حتى الأسباب المادية المؤثّرة كانت للغلام، وحتى قوّة الملك لم تكن عاملا مؤثّرًا في موت الغلام؛ إذ أصابته بين أذنه وعينه، لم تكن في مقتل، ولكنه مات في ساعته، أسلم جفنه وهو هادئٌ واضعًا يده مكان جرحه. والجملة الوحيدة التي كانت في (الحوار)، صاغها الغلام بحروفها (باسم الله ربّ الغلام)= فضّجت الجماهير بصوتٍ واحد: آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام، آمنا بربّ الغلام.

فأدرك الملك أنّ الغلام قد تلاعب به، وبرغم ذلك تكبّر وتجبّر، وركب رأسَه، وامتطى عقله، ورجع إلى خطته القديمة التي لا يمكن أن يعقل سواها، يُعالج بها كلّ ما يتهدد عرشه: فأمر بالأخدود في أفواه السِّكك فخُدَّتْ، وأضرم النِّيرانَ، وقال: مَن لم يرجع عن دينه، فأقحموه فيها.

ففعلوا، ولكن الفكرة لم تعد مجرد فكرة، بل غدت عقيدةً تخالط بشاشة القلوب، ومن صورها: أنّ امرأةً ومعها صبيٌ صغير أُوقِفت على حافة الأخدود، فتردّدت وتأخَّرت أن تقعَ فيها شفقةً على الصّبي الصّغير، رغبةً في الحياة للصّبي لا لنفسها، فقال لها الغلامُ: يا أُمَّهْ، اصبري، فإنكِ على الحقّ.

فأمسكت بيده، وقفزا إلى الحُرِّية!!

الاثنين 1 صفر – 30 سبتمبر

من أوراق العمر!!

بدأ سفيان وهو الصّف الأوّل المتوسط يكتب على متعلقاته المدرسية من دفاتر ومذكرات وكتب وسجادة كلمة (**forever**)، فنظرتُ في سلوكه، ورأيتُ أنّه لا بدّ من إجراء حديث رجلٍ لرجل، فخلوتُ به، وقلتُ له: ميلُ الرَّجل إلى المرأة، والمرأة إلى الرَّجل= فطري في طبيعة الإنسان، وأصل خلقته. فليس لي أن أنكره عليك، وقد اكتويتُ به في حبّ ابنة الجيران، وقصة أن يعشق الفتى ابنة الجيران قصة كونية أزلية، تتجدد أحداثها وتكرر فصولُها على مرّ الأجيال. لكنَّ الذي ينبغي عليك أن تفهمه أنِّي أريدُك حين تحبّ أن تكون رجلا في حبّك.

كان في أوّل الحوار قلقًا، متوجِّسًا من نبرة صوتي، ومن إغلاق الباب علينا، ثم أطمأن بعد عبارتي الأخيرة، فقال: إيش تقصد؟

– الذّكور في دنيا النّساء كثيرٌ، ولكنّ الرِّجال قليل، فإذا أحببتَ فتاةً يا ولدي، فاعلم أنّ لها والدان يحدِبان عليها، وإخوة يغارون عليها،

وأخـواتٌ يـرتبط ذِكرهـا الحسـنُ بـذكرهنّ= فـلا تجعـل أحـدًا غيرَهـا يعلم بحبّك لها (مو لازم كل الحارة تعرف).

ثم ناقشـته في تفاصـيل دقيقـة تتعلّـق بكيفيـة أن يكـون رجـلًا، ونبَّهتُـه إلى جزئيات مهمّة كلها تـدور في فَلَكٍ واحد، وهـو: أن يخاف على سمعتها أكثـر مـن خـوف الفتـاة نفسـها. فـإذا مـا تغيّر مـا بينكمـا، وصـرفُ الله قلوبكما؛ مضى كلٌّ منكما في طريقه، طاهر الذّكر، نقي الذّيل.

ومنـذ ذلـك اليوم، صـار يفتح لي قلبَه، ويفضـي إليَّ بما يعتلج في فـؤاده، ومـا يعانيه مـن اضـطراب جنانه. وأصغيتُ بقلبٍ مفتوحٍ لكلّ ذلـك مـن ومضات وخفقات ونبضات فتىً يُراهق الاحتلام، إلى اليوم الذي قال فيه: أريد أن أخْطِب فلانة!!

ما كنتُ خلال تلك الأيّام مذ كان في الصّفوف الإعدادية، ثم الثانوية، ثم الجامعيـة= إلا مسـتمعًا، أنصـتُ لـه، ولا أوجِّـه لـه مسـاره. وكـلّ ما أحـاذره في كـلّ ذلـك ألا تضـلّ بوصـلته، فيحيـد عـن طريـق الرّجـال، ويتقحّم أمواجًا عاتيةً لا نجاة له منها.

ولم أكن له يومًا في الحبّ طبيبًا؛ إذ كيف يُداوي مَن به الدّاء، غاية ما يجده عندي هو المواساة. ثمّ إنّ أطباء الحبّ لا يؤمنون بالحبّ، إنهم يتكسّبون باسم الحبّ. الحبّ وظيفتهم.

أما أنّا فقد عرفتُ الحبّ في صفحات القصص المصوّرة والرّوايات وما اشتهر من أيقونات الحبّ كعنترة وعبلة، وقيس ولبنى، وكُثّير وعزّة، ورميو وجولييت، وستيفن وماجدولين، وسيرانو وروكسان، وجبران ومي زيادة. كل هؤلاء وغيرهم عرفتُ قصصهم من خلال القراءة، ما عدا عنترة وعبلة فمن خلال القصص المصورة، وهذه الأخيرة (عبلة) كنتُ أظنها سميرة توفيق.

عرفتُ الحبّ في القصص، ولم أتعرّف عليه في الحياة، ولقد كانت تأخذني نفسي غرورًا في صباي، فأقول: إني أحببتُ فلانة وفلانة وفلانة..، ولكني الآن أقول: إنّ ذلك ما كان حبًّا، وإنّما كان ميلا فطريًّا، أو إعجابًا بما لا يستحق الإعجاب، أو غرورًا وتوهمًا.

الحبّ الذي عرفته لم أبحث عنه، ولم أسع إليه، صحيحٌ أنِّي كنتُ أحلم به، وأكتبُ عنه، ولكنه كان حبًّا على الورق، كنتُ أكتب ما أقرأه وأفكّر فيه، عالمًا أرسمه في خيالي، بنيتُ كوخًا خشبيًا في جزيرة نائية، أقمتُ الكوخ على شجرة عظيمة، أصعد إليه بدرج لولبيّ، وجعلت له

شرفةً واسعةً، ووضعتُ فيها سريرًا معلّقًا، وجعلت المطبخ في طرف الشّرفة، خارج الكوخ، أمّا داخل الكوخ فمجلدات الكتب رُصّت في جميع جهاته الأربعة، وفي كلّ المساحات الممكنة.

وفي هذا العالم الافتراضي أقضي الليالي، بعيدًا عن دنيا النّاس في عالم الواقع، أقرأ وأكتب في هذه الشُّرفة على ضوء القمر، وأغنيات حوريات البحر. وفي ليلةٍ من اللّيالي التي يختفي فيها القمر، انحدرت السُّها من السّماء، فجلست بجواري تستمع إليَّ ما أقرأه، وتقرأ عليَّ ما أكتبه، وتشاركني سريري المعلّق، وتدندن ألحانًا قديمة، وتغني أغنياتٍ من الحقول لم أسمعها من قبل. ومع نسائم الصَّباح تختفي تاركةً في الشَّرفة قهوةً سوداء مُرَّة دون سكر.

وعلى مدى سنواتٍ أعادت قراءتي، عرفتني في هذا العالم الافتراضي، فقرأتني قراءةً حالمةً تقلِّبني ورقةً ورقة، وتسورت حصوني فتركت بصمتها في كلّ شبرٍ وقفت فيه، أو وطئت عليه. وفي صحبتها تعرّفت على مفرداتٍ جديدة، وشقّقت لي من أنفاسها معانٍ لمفردات ألفتُها، فأعادت قراءتها بصوتها. علّمتني أنّ قوّة الكلمة ليست في جمالها وجرسها، وإنّما في صدقها. زيّنتِ الشُّرفة بصورها (صوت الرّيح يداعب

السّتائر في ليل حالك، قمرُ يناجي النّجوم، نسائم السَّحر برائحة الحقول، وقهوةٌ مُرَّة دون سكر).

وخالطتُها ومِلْتُ عليها بجسدي وروحي، ورويتُ لها من دفاتري القديمة أشعارًا وحكاياتٍ عن أنثى عشقتها بخيالي، وخلقتُها من فكري وجنوني، ونفختُ فيها الرَّوح، فما اهتزّ جسدُها، ولا سرى الدَّم في وجهها. فأغلقتُ عليها دهرًا حتى نسيتُها، ولهوتُ عنها حتى ذابت من ذاكرتي، فلا يثير ذكراها صورة حسنة ولا صوت جميل. والآن أعيد تلاوة ما كتبته عليكِ، فها أنتِ قد وجدتني.

نظرتُ إليها؛ فإذا بعينيها تلألأن، وقالت: حبيبي، حان الأوان، عليك أن تترك هذه الجزيرة، وتهجر هذه الشُّرفة، يجب أن تعيش في دنيا النّاس، أبناؤك بحاجتك، وأنا بحاجتك، أنت اليوم رجلٌ جديد، رجل يعيش بداخله أنثى هي أنا، وتذكرني دائما، أغنيةً من الحقول.

الثلاثاء 2 صفر – 1 أكتوبر

دُفن فجر اليوم في مقبرة المعلاة أخي محمّد بن عبد اللطيف سادي يامو، كان فيما مضى صديق الطّفولة، له في ذاكراتي المنسيّة ذكريات كثيرة جدًّا محزنة ومبكية ومضحكة، كان حاضرًا يوم عضّني

كلبٌ في ظهيرة يوم قائظ في شعب علي عند بيت رضوان الصّيني. وكان في ذاكـراتي في أوّل يـومٍ دراسـيّ لي في مدرسـة دار العلـوم الابتدائيـة؛ إذ اصـطحبني إليهـا. فبرغم كـلّ شـيء الموتُ أكثر مهابـة وإجلالا مـن أن نصطحب بحضرته ضغائن وأحقادًا طواها الزّمان بكلّ مرارتها. غفر الله لي ولك يا أبا وِسام، وتجاوز عنّي وعنك. فقد كنتَ صديقًا وكنتَ أخًا، وكنتَ ذا نفس كريمةٍ، وكنتَ طيّبًا، فرحمة الله تعالى عليك رحمةً واسعة.

❖❖❖

هياط خالد الجِنْدي!!

غادرني أمس الثلاثاء فجرًا صديقي قيصر جيهان أبو ماهر، سافر إلى أهله وأبنائه في بنغلاديش في زيارة تزيد على أربعة أشهر. عقدُ صداقةٍ امتدّ أكثر من 14 سنة من خلال العمل، لم يبق بعد هذه السّنوات من الفريق الذي تأسس عليه (مشروع تعظيم البلد الحرام) إلا أنا وصديقي هذا.

صديقي أبو ماهر، من خيرة من عرفتُ، كريمًا في فاقة، وعزيزًا في لين، ومتواضعًا في سموّ، يبذل من ذات نفسه دون قيدٍ ولا شرط. رجلٌ من عامّة النّاس، يحبّ الخير، ولا يتشبّع بما لم يُعط (ما عنده هياط). وعلى ذكر الهياط، ادّعى خالد الجندي الداعية الإسلامي والعالم الفقيه في برنامجه في إحدى القنوات المصرية= أنّه قرأ أكثر من 250 ألف كتاب، وذلك في سياق ادّعاء المعرفة والأحقيّة في أن يمدّ لسانه الطّويل في كلّ قضية من قضايا الأمّة المصرية. وأنّ على من ينازعه رأيا أو فِكرًا أن يقرأ مثل ما قرأ.

لو قلنا على سبيل التمثيل أنّ متوسط صفحات الكتاب الواحد من الكتب التي قرأها خالد الجندي يتكوَّن من 100 صفحة، وأنّ متوسط قراءة خالد الجندي في اليوم 500 صفحة (مع أنّ متوسط القارئ العادي 50 صفحة يوميًا، ولكن لنفترض أنّ الجِندي قارئ خارقٌ فوق العادة بعشرة أضعاف)، أي أنّه يقرأ في اليوم الواحد خمسة كتب، وفي الشهر الواحد 150 كتابًا، وفي السنة الواحدة 1800 كتاب، فلو عاش خالد الجِنْدي 100 سنة= يكون قد أنهى 180 ألفَّ كتاب فقط، هذا على فرض أنه بدأ يقرأ من ساعة خروجه من بطن أمّه. وبقي عليه 70 ألف كتاب، يحتاج فيها إلى 28 سنة وثمانية أشهر حتى يستطيع أن يُتمّ قراءتها. أما من يزعم أنَّه قرأ 100 ألف كتاب؛ فإنّه يحتاج إلى 55 سنة وستة أشهر.

كل هذه الفرضيات على أنّ متوسط القراءة اليومية 500 صفحة، وأنّ الكتاب الواحد لا يتجاوز 100 صفحة، دون أن نقف على عناوين تلك الكتب في العقيدة والفكر والتّصوف والفلسفة والمذاهب والفرق والأديان والثّقافة الإسلامية، والتفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعربية وعلومها، والأدب وفنونه من شعر ونثر وقصة ورواية.

هذه الأرقام الفلكية كان يرد قريبٌ منها في كتب تراجم الرّجال القديمة، فيذكرون أنّ عالمًا كان يطالع في اليوم 30 جزءًا، أو أنّ عالمًا آخر صنّف في تاريخ الأمم أكثر من 600 جزءٍ، ولكن ينقضي عجبك حين تعرف أنّ الجزء في عُرفهم لا يتجاوز 16 صفحة.

وليس في حديثي هذا تشهيرٌ بخالد الجِنْدي، فهو الذي شهَّر بنفسه، وأبان عن عوار حُجَّته، وهو يمارس بدعواه هذه نوعًا من أنواع الإرهاب، وهو الإرهاب الفكري على مَن يخالفه. فالحُجَّة في النقاشات العلمية، في صحّة الدليل النقلي أو استقامة التّعليل المنطقي، ولا عبرة بشخص المُحاور، ولا رُتبته العلمية، ولا إنجازاته الشخصية.

إنّ الادّعاء الفارغ (الهياط) الذي يتمثل في دعوى خالد الجِنْدي= هو مِن تشبع المفلس بما لا يُعط، وقد ذمّه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، ووصفه بلابس ثوبي زُور. وما أجمل أن يسير الإنسان في النّاس سيرةً حسنةً من إنكار الذّات وعدم ادّعاء الفضل، يمشي كآحادهم، مع بذل كل أسبابه لنيل الفضائل، وجمع المحاسن، واكتساب كل فضيلة، ونبذ كلّ رذيلة، فهذه شيم النّفوس الكريمة، التي تحبّ الصّدق وتكره الزّيف.

إذا مدّ الله في أعماركم فسوف تلتقون في حياتكم –يا أبنائي– أمثال خالد الجِندي في صور متعددة، في صورة المثقف، وفي صورة السياسي،

وفي صورة عالم الدّين، وفي صورة التّاجر، وفي صورة الصديق. المزيّفون الذي لا يعملون، ويُقعدون النّاس عن العمل، وفي المحافل ينسبون كلّ عمل ناجح لهم، وأنّهم خلف كلّ إنجاز، ووراء كلِّ فضيلة، حُبًّا في الذِّكر ورغبةً في الظّهور.

وقديما قال الشّاعر الجاهليُّ الجساس بن مُرَّة:

وإذا تكونُ كريهةٌ أُدْعى لها　　　وإذا يُحاسُ الحيسُ يُدعى جندبُ

وكلّ هؤلاء خطرهم جسيمٌ على الأفراد والمجتمعات. فعليكم أن تفطنوا لهم، وأن تتبيّنوا الزّيف من الحقيقة، والأصيل من الخسيس، وإنّ للصّدق علامات، كما أنّ للادّعاء علامات، وجماعُ ذلك كلّه -فيما أعلم من تجربتي- في الصّادق: العمل في صمت، وفي المزيف والمدّعي: كثرة كلمة (أنا) في حديثه.

سفيان، مالك، أحمد، توفيق!!

تصبحون على خير

الأربعاء 3 صفر – 2 أكتوبر

الدَّفتر الأزرق!!

أشعر أنّ هناك اتّصالٌ قويٌ بين القراءة والكتابة، فإذا كنتُ على وفاق مع القراءة اليومية يكون القلم على وفاق معي، فأجده سهلا ليّنًا طيِّعًا. ولستُ حقيقة في الأيّام الأخيرة على وفاق مع القراءة، منصرفًا عنه لشأنٍ آخر، ولذلك سألجأ إلى الأوراق القديمة التي في دفاتري أو في فضاءاتي مما يصلح أن نعيد قراءته معًا.

كلّ شيء في هذا الكون متّصل بشيء آخر أو أشياء أخرى، أو يسعى إلى الاتصال بحثًا عن نفسه أو عمّن يحقق له كماله. وهو في هذا الاتصال والسّعي يكتب قصته التي تستحق أن تُروى، وأن يُستمع إليها.

هذا هو الكون ذو الطّبيعة الغنية بالأسرار التي تنتظر من يكتشفها، ويروي للنَّاس قصصها. ولكي تستمع للطَّبيعة تحتاج أن تكون راهبًا تطيل المكث

تحت شجرة بوذا، وأن تطلق حواسّك فيها لتستمع إلى حكاياتها، خرير الماء، وأنفاس الأزهار، ودبيب الحشرات.

قبل أربع سنوات تعرّفت على الأديب التُّركي الرّاحل (صلاح الدّين علي) من خلال روايته التي نشرها قبل أكثر من **60** عاما (مادونا صاحبة معطف الفرو).

هذه الرِّواية ذات السّرد الطّويل القويّ المتتابع قائمة على فصلين؛ الأوّل منهما يتحدَّث عن هذه الفلسفة. فلسفة اتّصال الأشياء من حولنا، وترابطها، وسعيها في تحقيق الكمال الذّاتي لها، لتكمل صورة الحياة على الأرض.

يجري فيها لسان الرّاوي عن بطل القصّة في أخريات حياته شيخٍ مريض بداء الرِّئة يجاور مكتبه في بنكٍ من بنوك أنقرة، وكيف سعى لأن يتّصل به، ويتعرّف عليه، مُدركًا في لحظةٍ من لحظات اتّصالهما اليوميّ أنّ لهذا الشّيخ قصةً تستحق أن تُروى، هي جزءٌ من دورة هذه الحياة.

وفي الفصل الثّاني يروي البطل من خلال دفتر يومياته قصّة لوحة زيتيه (بورتريه) وقف عليها في متحف برلين وُقِّعت باسم (مادونا صاحبة

معطف الفرو)، وكيف اتّصل قلبه بهذه اللّوحة؛ حيث وجد فيها نفسَه وقلبَه.

مادونا صاحبة معطف الفرو لها حكاية مع الحبّ أثناء سعيها في الاتّصال بما حولها. مادونا أدركت في خاتمة حياتها أنّ ما كان ينقصها في الحبّ هو الإيمان به.

رواية تتصلّ بك بعد قراءتها، ولا تغادرك أبدًا، تتحول جزءًا من ذاتك، وتتردد أبدًا في أنفاسك. على الأقلّ هذه الرّواية تركت هذا الأثر في نفسي، رأيتُ فيها كيف أنّ الجسم يبلى ويفنى، ولكن الحبّ لا يموت، حلاوته لا تذوب، ومرارته لا تُنسى، وجذوته لا تنطفئ، وبخاصّة إذا كان الذي فرّق بينهما شيءٌ غيرُ الخيانة، شيءٌ يستمدّ قوّته من القدر.

القصاصات القديمة التي كتبت عليها بعض الأفكار مهمة، ولذلك حين لا أجد شيئًا مما يستحقّ ذكره من أحداث يومي، سوف أنشر بعض ما يستحق إعادة كتابته من دفاتر قديمة. ولقد حاولت فيما مضى أن أجمع بعض القصاصات التي نشرتها في أماكن متفرقة من مجلات وصحف دورية ومواقع إلكترونية، وضممتُها في ملف أسميته (الدفتر الأزرق)، ولكني فقدتُ الملف، وفقدتُ معه كل تلك القصاصات.

ولهذا الاسم قصة، ولا بأس من ذكرها لأنّ فيها عبرة، وفيها جانب من عادة قديمة لا زالت تلازمني وهي فقدان الأشياء، فاسمعوها:

كان هناك شابٌ فطنٍ اسمه طاهرٌ الأنصاريُّ، من بيت علم وفضل، وكان له عناية بالأدب، فكان يجمع كتاباته في موضوعاتٍ شتّى في دفتر صغير أنيق جميل، وكان أزرق اللّون.

وكان شديد الحفاوة بما كتب، شديد العناية به، لا يطلع عليه إلا خاصّته، وكلّهم كانوا يثنون على حرفه، ولكنه أراد رأيا من خارج هؤلاء الخاصّة الذين قد يكون لصلتهم أثرٌ في ثنائهم ومدحهم. فاستشارهم فأشاروا عليه بأن يعرضه عليَّ، لا لشيءٍ إلا لأني كنتُ كذلك قريبًا من هؤلاء الخاصّة، وكانوا يظنون أنّ لي عناية خاصّة بالأدب، والحقيقة: أنّ عنايتي بالأدب جاءت متأخرة من أثر عملي الوظيفي في زمن مبكّر في مجال البحث العلمي، وفي العمل اتّصلتُ بعددٍ من طلبة العلم والعلماء والمشايخ الذين كان لهم عناية كبيرة بالأدب، فصرتُ أتتبع الكتب الأدبية التي ترد أسماؤها في مجالسهم، وأتتبع نتاج أولئك الأعلام الذين يأتون على ذكرهم، ومن ثمّ صارت لي عناية بالأدب.

الخُلاصة: أنّ طاهرًا الأنصاريَّ أخذ برأيهم، فحمل إليَّ دفتره الأزرق، وقصدني في مسجد الحيّ في صلاة العصر، فأعطاني دفتره، وطلب مني أن أقرأه، وأكتب ملحوظاتي عليه. فوافقتُ دون ترددٍ لشيء واحد، وهو أني أعرف طاهرًا الأنصاريَّ، وأعرف نجابته وذكاءه، وكنتُ شديد الإعجاب بملكاته العلمية. فكنتُ واثقًا أني سوف أجد في دفتره الأزرق الكثير من المتعة والفائدة.

حملتُ دفتره الأزرق بين كتبي، وركبت سيارتي، وذهبت إلى صديقي أبي عبد الله شكري سليمان، وكانت تلك السّاعة التي ركبتُ فيها سيارتي آخر عهدي بالدفتر الأزرق. لم أتذكره إلا عندما أويتُ إلى فراشي، فقمتُ وبحثتُ عنه بين كتبي وأوراقي، وفي أرجاء مكتبتي، فلم أجده. نزلتُ إلى السّيارة، وفتّشتُ مقاعدها شبرًا شبرًا، أعلاها وأسفلها، وجوانبها، وزواياها، فلم أجده. اتّصلت بأبي عبد الله وسألته عن دفتر أزرق صغير به مقالات بخط مغربي (الخطوط المغربية سيئة)، فلم يجده. ذهبتُ إليه في اليوم التّالي أبحث في كلّ الأماكن التي أظنّ أني جلستُ فيها، فلم أجده.

سلامٌ عليك أيّها الدّفتر الأزرق، ولا عزاء لأخي طاهر الأنصاريّ، إلا أنه اليوم صاحب قلم لا يُمترى في حسن بيانه، وجمال حرفه. ولعلّ

الله أراد به خيرًا فلم أقرأ له مقالاته الأولى، فلعلّ نقدي –يومها– لن يخلو من شدّة، وهو رجلٌ رقيقٌ حسّاسٌ، فكان بحاجة إلى بداية جديدة، وقطع الصّلة تماما بالتجربة القديمة.

الله أعلم، ولكنَّ الذي أنا متيقنٌ منه: أنَّ تدبيرَ الله تعالى للنّاس خيرٌ من تدبيرهم لأنفسهم، وما كان أخي طاهر يريد أن يصل إليه= تمَّ له بحمد الله وفضله، دون أن يكون لي عليه منّة ولا فضلٌ. زاده الله من فضله.

وما زالت هذه العادة تلزمني، ولذلك لا أحبّ السّفر بحقائب اليد الصّغيرة، والتّجول بها في المطارات؛ لأني أخشى فقدانها.

الخميس 4 صفر – 3 أكتوبر

الحيادة العادية!!

وُلِد السيد "عادي" في أسرة "عادية"، ونشأ نشأة "عادية"، دخل مدرسة "عادية"، وكان أداؤه فيها "عاديًّا"، انتقل إلى ثانوية "عادية"، ذات مدرسين "عاديين"، ومناهج "عادية"، وكان أداؤه "عاديًّا"، تمّ قبوله في كلية "عادية"، في تخصص "عادي"، ومناهجهم "عادية"، وأساتذتهم "عاديين"، وتخرج بمعدل "عادي"، حصل السيد "عادي" على وظيفة "عادية"، في جهة "عادية"، وكان أداؤه "عاديًّا"، تزوج السيد "عادي" فتاة "عادية"، ورزق منها بأولاد "عاديين"، وتربيتهم كانت "عادية"، ترقى السيد "عادي" بالأقدمية "العادية"، حتى وصل الى التقاعد بطريقة "عادية"، عاش السيد "عادي باقي" عمره حياة "عادية"، وأخيرًا مات السيد "عادي" موتة "عادية"!!!. لكن بوفاته انتهت سيرته.

لا أدري من كتب قصّة الأستاذ عادي، فقد وجدتُها منتشرة في مجموعات (الواتس آب)، ولكني رأيتُ أنَّ حياة الأستاذ عادي؛ ليست عادية أبدًا، بل حياة مليئة بالإنجازات الرّائعة، نجاحات منتظمة في عقد

بديع. شخص ناجح في كل مراحل حياته، درس تخرّج توظّف تزوّج أنجب ربّى ترقّى تقاعد، توفي، وأقبل على ربّه وقد اجتهد غاية جهده في أن يكون جزءًا فاعلا في مجتمعه.

ثمّ رأيتُ الكاتبَ علّق عليها بقوله:

إذا كُنتُم ضحكتم على قصة السيد عادي، فالتقديرات تشير إلى أن ٩٨٪ من البشر حياتهم تشابه قصة السيد عادي. وأن ٢٪ فقط هم السيد ((متميز)) والسيدة ((متميزة))!!، حتى إذا ماتوا. فإن ذكراهم بين الناس حي. وما يزال الناس تدعو لهم بالرحمة والمغفرة والدرجات العالية في الجنة، فهل أنت من النوع العادي، أم حقًا من النوع المتميز ؟!، أرجو الإجابة بصدق! غيِّر مقدماتك .. تتغير نتائجك (إنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). صباحكم تغيير للأفضل.

ليس هناك إخفاق واحد في حياة الأستاذ عادي، يستحقّ عليها (أيها الكاتب المجهول) أن تقلل من إنجازاته، وتستخفّ به، بل هو رجلٌ عظيم في عين زوجه وأبنائه ومجتمعه؛ إذ قام عليهم، وحفظهم من الفاقة والحاجة. وآواهم، وضمّهم، ورعاهم، ولم يكن في أبنائه من فشل في حياته، أو انحرف عن مجتمعه. أليست هذه إنجازات عظيمة!!

ثم من قال لك: إنّ الأستاذ عاديا حين مات؛ انتهت حياته؟!

ألم يكن له أبناء صالحون رباهم تربيةً صالحة (وإن كانت عادية في نظرك)، فعلمهم الصّلاة، واحترام الناس، وحفظ حقوق المسلمين، فذكره الحسن سارٍ في ألسنة أبنائه، يترحمون عليه، وصحيفة أعماله الصّالحة منشورة لم تطوَ بموته، تسجل فيها دعوات أبنائه وأعمال البرّ التي يهدونها لوالدهم السّيد عاديّ. وذكره الحسن باقٍ في جيرانه وأصدقائه ومعارفه بأنّه رجلٌ عاشرهم بالمعروف (ابن حلال حاله حال نفسه)، وحفظ لهم حقوقهم، وكفّ عنهم أذاه.

لديَّ قصةٌ قريبةٌ من قصّة الأستاذ عادي، ولكنها من واقع الحياة: فأعرفُ صديقًا عزيزًا أخصُّه بصادق المودَّة، زاملني في العمل (مشروع تعظيم البلد الحرام) لأكثر من عشر سنوات، يصنع لي قهوةً مُرَّة كل صباح، ويقدِّمها لي بابتسامة صادقة، وأبادله مثلها وأنا ممتنٌّ غاية الامتنان لهذه القهوة الصّباحية.

صديقي هذا اسمه شمس العالم، ويُكنى بأبي سعيد، وهو مغتربٌ من أبناء بنغلاديش. يقوم على عائلته الصّغيرة التي أذكر منها سعيدًا في المرحلة الجامعية، وابنًا آخر أتّم حفظ القرآن الكريم، وابنة صغيرة شديدة التّعلق به، وزوجه التي تقوم في غيابه بدور الأب والأم معًا.

أتأمّل حياة أبي سعيد فأجده رجلا عظيمًا في عين أبنائه، وفي عين الحقيقة. فقد استطاع بعرقه وجهده وتحمّله للغربة أن يجعل العالم مكانًا أجمل لأبنائه، وهذا كله (ولا شكّ) بعد توفيق الله له. ثم هو جزء من منظومة قيمية اجتماعية (مشروع تعظيم البلد الحرام)، يُشارك هذه المنظومة كل إنجازاتها ونجاحاتها، لا يمكن لأحدٍ أن يُقلّل من دوره فيها.

إنَّ حياة صديقي أبي سعيد ليست عاديةً أبدًا، بل هي حياة عظيمة، مليئة بالإنجازات، وكم من قصص عظيمةٍ في الحياة= لا يدري العالم بها، ولكنّ الله تعالى يعلمها.

فليس الذِّكر في النَّاس هو دليل التَّميّز، فكم من عظماء ومتميّزين لم يدرِ بهم أحدٌ من النَّاس، وحين ذُكِرَ لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أسماء الذين استشهدوا في إحدى المعارك، قال: وقِتل مثلُهم كثير، لا يعلمهم عمر، وما ضرَّهم ألا يعلمهم عمر، إن كان ربُّ عمر يعلمهم.

ثمّ أليس هؤلاء المتميّزون في زعم الكاتب= نتاج مجتمع عادي، أليسوا أبناء رجال عاديين، من الذي يذكر ما اسم والدة الإمام مالك؟ أو والدة الإمام الشَّافعي؟ أو والدة الإمام أحمد؟ ومن قبلهم والدة الإمام أبي حنيفة؟ أذكر هؤلاء لأنّهم نماذج معروفة عند عامَّة النّاس العاديين. ومَن

الذي حين يترّحم على أحدٍ من هؤلاء العلماء؛ يترحّم على آبائهم أو يذكرهم ذِكرًا؟= فهل نقول: إنّ حياة آبائهم وأمّهاتهم كانت عادية، ليس فيها إنجاز.

يا سيدي، إنّ أعظم إنجازاتهم هو هذا الإمام الخالد الذِّكر، الذي طافت مآثره الشّرق والغرب. على أنَّ هؤلاء الأئمة أنفسهم كانوا يتمنون أن لو عاشوا في النَّاس حياةً عاديةً، لم يدرِ بهم أحد، فقد كان الإمام الشّافعي يتمنى أن يتعلم النَّاسُ ما في كتبه من علم، وألا يُنسب إليه منها حرفٌ واحدٌ، وهو خلاف ما يدعو إليه الكاتب.

لم أجد استخفافًا بإنجازات الوالدين، ودورهما في تربية النشء مثل ما جاء في (قصة الأستاذ عادي)، والتي كتبها مجهولٌ، غير أنِّي قد أعذر النَّاقل لما للعبارة الرَّنَّانة أحيانًا من بهرج.

ولذلك يا أبنائي حين كتبتُ في هذه المدوّنة (نبذة تعريفية) عن نفسي؛ ذكرتُ أن رصيدي في الحياة= هو أنتم، أنتم أعظم إنجازاتي (حفظكم الله). واعلموا أنّ هذه التدوينة ليست في ذمّ الهمم العالية، والسّعي إلى اكتساب المعالي، وطلب الفضائل، ولكنها في ذمّ مَن لا يراقبون الله في إنجازاتهم، ولا يقدِّرون إنجازات غيرهم.

وإنِّي أرجو أن تقفوا عند قصّة أبي سعيد شمس العالم، وتعرفوا أنَّ حياة العُمّال الكادحين ليست حياةً عادية خالية من الإنجازات، بل قد تكون عظيمةً جدًّا، فيها من معاني الكرامة والكفاح والعفّة وعزّة النَّفس والشّرف ما يستحق أن يُروى ويُحكى.

الجمعة 5 صفر – 4 أكتوبر

إبادة الذَّاكرة!!

تذكر كتب تراجم وسير العلماء: أنّ الإمام أبا نُعيم الفضل بن دُكين، جيء به إلى الخليفة العباسي الثامن المعتصم بالله في فتنة القول بخلق القرآن، ساقوه من الكوفة إلى بغداد، والإمام أحمد ابن حنبل في ذلك الوقت يُعذَّب في سجون المعتصم، فأرادوه أن يوافقهم على القول بخلق القرآن، فقطع زِرًّا من قمصيه، وقال: عنقي أهونُ عليَّ من زِرّ قميصي هذا. ثم تقدَّم ليضربوا عنقه، وقال: حتى يعلم الذين يأتون من بعدنا أنَّ هذا الأمرَ سالت فيه دماء!!

إنّها –يا أبنائي– الأمانة العلمية التي كانت مُلقاةً على أعناق العلماء، لقد عرفوا (وهم ورثة الأنبياء) أنَّ عليهم أن يحافظوا على المحجّة البيضاء نقيَّةً ليلُها كنهارها، وأن يورِّثوها كذلك لمن بعدهم، وسالت دماؤهم في هذا الأمر.

وإنَّ نسيان هذه التّضحيات= خيانةٌ لتلك الدّماء الزّكية التي أُريقت في الحقّ.

وإنّ في ذاكرة الثقافة الإسلامية المعاصرة تضحيات ودماء يجب ألا تُنسى؛ فعندما قامت دولة الكيان الصُّهيوني قبل أكثر من سبعين عامًا= سالت دماءٌ زكيةٌ على أراضي فلسطين المحتلّة لشيوخ ورجال ونساء وأطفال، ارتُكبت فيها المجازر، أحرقت قرًى بأكملها، ومُسحت أخرى عن بكرة أبيها عن وجه الأرض، وسالت دِماءُ العذارى على تلك الأراضي الطّاهرة، وهُجّر آلاف الفلسطينيين عبر الصّحراء فماتوا عطشًا وجفافًا، والعالم كله يشاهد.

الحركة الصّهيونية حركة سياسية، وليست حركة دينية، ولكنها صبغت مبادئها بصبغة توراتية تلمودية؛ إذ وظَّفوا نصوص العهد القديم (التوراة) في سبيل حركتهم، حرَّفها لهم حاخاماتهم خدمةً للمشروع الصّهيوني.

واستطاعوا أن ينجحوا في احتلال الأرض عن طريق (إبادة الجنس) أي الجنس الفلسطيني من أرض فلسطين، وإحلال اليهود مكانهم. ومارسوا كل وسائل (إبادة الجنس): التّطهير العرقي (الإبادة الجماعية)، والتّرحيل، وإبادة الذّاكرة.

وكلّ ما ذكرته من صور الجرائم والمجازر التي ارتكبت بحقّ الفلسطينيين هي من أثر هذه الوسائل الثلاثة. ولكن أخطر تلك الوسائل هي إبادة الذّاكرة، والتي لم ينجحوا فيها (والحمد لله). والمقصود بإبادة الذّاكرة: نزعُ هوية أمَّة من الأمم، وقطع صلتها بماضيها، وصياغة مستقبل جديد لها.

وتكمن خطورة (إبادة الذّاكرة) أنَّ الدّماء التي أريقت على أراضي فلسطين= تصبح بلا معنًى، وتغدو تلك التّضحيات لا قيمة لها. فلم يعد لشيءٍ اسمه فلسطين وجود، ولا لأهله ثقافة تثبت أحقيته في هذه الأرض، وأنَّ له هويةً وكيانًا مستقلًّا، يعبّر عنه بأنّه مختلف عن الصّهيوني المغتصب.

إنّ في الذّاكرة الفلسطينية أدبًا خالدًا شعرًا ونثرًا، بطولات ونكبات، آمالا وخيبات، وإنَّ من خيانة هذا الأدب= أن يُنسى، ليس من ذاكرة الفلسطينيين فحسب، بل من ذاكرة الأمّة العربية والإسلامية.

تاريخُ اليوم لا يُذكِّر بالقضية الفلسطينية، ولكن الحديث عنها هو أثرٌ من آثار فراغي من قراءة كتاب (الجريمة المقدسة-الإبادة الجماعية أيدلوجيا الكتاب العبري إلى المشروع الصهيوني) للدكتور عصام

سخنيني، والذي صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات- الدوحة.

وإنَّ مما يُذكر في هذا الباب أنّ (إبادة الذّاكرة) من أكثر الأساليب التي استخدمتها دول الاستعمار في حقّ الشّعوب المستعمَرة، عملوا على نزع تلك الشّعوب من هويتها وثقافتها، وكانت البوابة التي تلج إليهم منها: اللغة؛ لأنّها الوعاء الذي يحفظ ثقافة الشّعوب المستعمَرة.

فحوربت اللغة العربية بالفرنسية في بلاد المغرب، والإنجليزية في مصر، وحوربت لغة الملايو في فطاني بالسيامية.

نعم، إنَّ في ذاكرة التَّاريخ أنَّ الشّعب الفطاني عانى من محاولة إبادة ذاكرته، ولقد أُريد على لغته، ولكن تلك المحاولات فشلت، وبقي الشّعب الفطاني مسلمًا محافظًا على هويته الإسلامية، وبفضل صمود أولئك الفطانيِّين (بتثبيت الله لهم) لا زال حبل الإسلام ممدودًا فينا اليوم.

ألا وإنّ نسيان الذاكرة الفطانية يا أبنائي= هو خيانة لتلك الدّماء التي سالت على أراضي فطاني، ونزع كلّ معنًى لها، وكأننا نقول لأولئك

الذين استشهدوا دفاعًا عن ترابها، وسالت دماؤهم أنهارًا في وِدْيانها: مَن أنتم؟

السبت 6 صفر – 5 أكتوبر

ورقةٌ صفراء!!

من أوائل الأحاديث العالقة في ذهني بيني وبين والدي (رحمه الله) حديثٌ جرى بينما كنتُ أستعد لامتحانات الصّف الثاني الابتدائي؛ إذ كان بين تلك الامتحانات الشّفوية بعض الامتحانات التحريرية مثل الإملاء، وكنتُ أعي تمامًا أنّني يجب أن أكتب على ورقة الامتحانات اسمي كاملا (عدنان أحمد السّيامي)، فقال لي: هل تعلم أنّنا لسنا (سياميين)، وأنّ اللّقب الوحيد الذي يجب أن نفخر به، هو: الفطاني. إنَّ انتماءنا الجغرافي الحقيقي هو الانتماء إلى (فطاني). هذا هو خلاصة الحوُار، وليس ألفاظه.

علق هذا الحوار في ذاكرتي، فغدوت في اليوم التّالي إلى الفصل الدّراسي، وحين انتهيتُ من الامتحان؛ قدَّمتُ ورقتي، وفي رأسها (عدنان أحمد فطاني). وفي اليوم التَّالي انتحى بي أستاذي الأستاذ خالد باروم (رحمة الله عليه إن كان ميِّتًا)، وسألني: أنتَ عدنان السيامي أم عدنان فطاني؟ فقلتُ بفخر: أنا الاثنان. وحكيتُ له النقاط الرّئيسة في

حواري مع أبي، فنهرني بشدّة، وقال: انتماؤك الجغرافي شيء، واسمك المكتوب في هويتك شيءٌ آخر، الذي يهمني ألا تدوخني وتجعلني أقضي السّاعات الطوال أبحث في السّجلات عن (عدنان فطاني).

درسٌ آخر تعلَّمتُه بكثير من الشّدَّة: أنّ الحقيقة لها أكثر من وجه، وأنّ الوجه الذي يجب أن ألتزم به هو أن أكون (عدنان السّيامي)؛ لأنَّ موظفًا في إدارة الجوازات، نظر إلى جنسية والدي (سيامي)، فألصق به لقب (السّيامي) دون استشارة ولا ركعتي استخارة.

ومن أثر هذه الحقائق في سنواتٍ مبكّرة من طفولتي أنني قضيتُ سنواتي الدّراسية وأنا أكتب على دفاتر (الكشكول)، وعلى طاولة الصّفوف (الماصات)، وعلى سراويلاتي البيضاء والرّياضية، وكنتُ حسن الخطِّ= كلمة (فطاني). نوعٌ من العبث العاطفي الذي لا أعرف معناه حتى اليوم، ولا أذكر متى تخلصتُ منه!!

يوم الأحد عادةً يوم مرهقٌ ذهنيًّا بالنسبة لي، فلديَّ بعد صلاة الظهر كلمةٌ ألقيها على زملائي الموظفين في (مصلّى العمل)، وبعد المغرب درسٌ أسبوعيٌ في كتاب (عمدة الأحكام) ألقيه على طلبة المستوى الثّالث في (معهد أمّ القرى لتعليم القرآن والسُّنة)، وبين يديَّ مسودة كتاب

الـدّكتور عبـد الله الطـارقي (نفـس واحـدة) أعـدُّه للطّباعـة بعـد المراجعـة النّهائية.

فدعوني أنهي هذه الليلة بحديثٍ في الأدب الإنساني، قد تجدون فيه بعض المتّعة وبعض الفائدة:

الطائر السّاخر أو المقلِّد المحاكي طائرٌ بُني اللّون، لا يملك شخصية محددة في تغريداته، بل يحاكي الأصوات التي من حوله. يمثل هذا الطائر في حياتنا اليومية أولئك الذين يتأثرون بكل ما حولهم فيقلدونه؛ يقلدون بحّة إمام من أئمة الحرم، أو طقطقة أصابع المعلم، أو دندنة سائق الأجرة. باختصار إنهم الذين لا يمكن أن يُحسدوا على شيء، أو أن يُزاحَموا على شيء، أو أن يُحقدوا على شيء. إنّهم أولئك الذين إذا حضروا لم يشعر بهم أحد، وإن غابوا لم يفقدهم أحد= فلا شيء يُميِّزهم.

ولـذلك يحـارُ أيّ محقِّـق جنـائي في إيجـاد الـدَّافع لقتـل أشـخاص يوصفون بصفات الطَّائر السَّاخر؛ لأنَّه لا يمكن لمثله أن يثير غضب أحدٍ أو نقمتـه أو حسـده، فهـو لا يملـك شـيئًا، لا مـال ولا جـاه، ولا فكـرة ولا ذاكرة.

المجتمع الأمريكي الأسود عانى من الاضطهاد والتمييز العنصري لعقودٍ طويلة، كانوا في المجتمع الأمريكي الرّأسمالي مثل العصافير السّاخرة يبحثون عن ملامح لهويتهم التّي يحاولون رسمها لمستقبلهم.

هاربر لي روائي أمريكي كتب معاناة هذه الفئة الاجتماعية المستضعفة في مجتمع وحشي متغوِّل لا يرحم= في روايته (لا تقتل عصفورًا ساخرًا)، والتي لم يكتب غيرها في حياته. فروايته تصنّف ضمن الروايات الواحدة التي لم ينشر مؤلفوها رواية غيرها في حياتهم الأدبية. ولكنها كانت كافية، بل أكثر من كافية لينالوا بها المجد الأدبي.

إنّها رواية سردية بامتياز على لسان طفلة في السّابعة من عمرها في لغتها وتفكيرها، إن أنتَ قرأتَ الرّواية، فستشعر من أوّل حروفها أنك تستمع إلى طفلتك الصّغيرة وهي تحكي أحداث يومها بكلّ تفاصيله.

تعطيك الروّاية صورة بانورامية للحياة الأسرية في قرية صغيرة تمثل نموذجًا للمجتمع الأمريكي في الأربعينيات في تنوّع ثقافاته لتنوع العرقيات التي كوّنته، وحيث الألوان لا زالت غالبة مسيطرة على عقول الناس. فالأبيض أبيض وإن كان أقذر الناس حسًّا ومعنًى، والأسود أسود وإن كان أنظف الناس حسًّا ومعنًى.

ومن خلال هذه التعقيدات الاجتماعية من التفرقة العنصرية بين البيض وجميع الملونين، وتنوّع الطّوائف المسيحية التي تعيش في أمريكا= يبرز أناسٌ يريدون أن يصنعوا الخطوة الأولى نحو التغيير في ثلاثة أطفال يدفعهم أبٌ يتحمل دومًا عبءَ القيام بما هو حقّ نيابةً عن جميع أهل القرية. رغم ما يجرّ عليه وعلى أسرته من أذًى اجتماعيٍّ من أهل قريته.

تعلِّمنا هذه الرواية أيضًا: أنّك إزاء تصرّفات بعض الناس لا يمكن أن ترى الأمور على حقيقتها أو أن تفهمها تمامًا إلا إذا نظرت من زاوية أصحابها. فقد تكون مختلفةً كليةً من زاويتك التي تنظر إليها الآن.

وبالرّغم عما ذكرتُه سابقًا من أنَّ الطَّائر السّاخر طائرٌ لا يستحقّ القتل؛ لأنَّه طائرٌ لا يُحتفل به= إلا أنَّ الاستخبارات الأمريكية جعلتْ منه شعارًا لها !!

الأحد 7 صفر – 6 أكتوبر

بدعةٌ عائليةٌ!!

لم تتعود أنتَ ولا أحدٌ من إخوتك، أن يُحتفى بيوم مولدك؛ لذا سأحتفي الليلة بذكرى مولدك في هذه الجدارية، ويكون قد مضى عليه أكثر من 24 ساعة (فلا يعظمُ علينا النَّكير).

هذه بدعة اجتماعية سوف نحدثها في حياتنا وليس في ديننا، أن نحتفي بذكرى ميلادنا في هذا الفضاء الإلكتروني، وحسبنا ذلك، فلا شموعٍ، ولا كعكات، ولا هدايا، ولا مفاجآت. سوف نقتصر على نشر ذكريات دافئة من ذاكرتنا العائلية. والذي دعا إلى هذه البدعة الاجتماعية= الحياة الاستثنائية التي نعيشها في وقت تدوين هذه (الجداريات)، فقد توزَّعتنا الأرض؛ أنتم في بانكوك (أعني: ماما، ومالك، وأحمد، وأنت)، وسفيان في كوالالمبور، وأنا في البلد الحرام.

لقد وُلِدتَ (كما هو معلوم لديك) يوم الجمعة الموافق للسّابع من صفر عام 1429هـ، ويوافق ذلك في التَّأريخ الشَّمسي الخامس عشر من

فبراير عام 2008م، في عيادات الدكتورة سعاد الكائنة في مدخل حي الخنساء.

زُفَّ إليَّ خبرُ مولدك مع إعلام المؤذنين بدخول وقت صلاة المغرب، فكان الخبرُ سَكِينةً في قلبي. شعرتُ بالطّمأنينة، وأحسستُ بالرّضا، وامتلأتُ بمشاعر العُزوةِ والفخار لاكتمال الأركان الأربعة، فله الفضل والمِنَّة ربٌّ كريمٌ منعمٌ متفضِّلٌ.

أسميناك توفيقًا، رجاء أن يكون لك حظٌّ من اسمك؛ وكان لتردُّدي تلك الإيام على صديقي توفيق بن سعيد الصّائغ أثرٌ كذلك في اختيار الاسم. ذلك أنَّه كان للصّائغ لسانٌ ساحرٌ، يأخذ حديثُه بالألباب، وأوتي مزمارًا من مزامير آل داود، رخامة صوتٍ وخشوع تلاوة، تشعر فيها أنه يُعالج العبرة، ويدافع الدّمعة، فيُغلب. وهو خطيبٌ مفوَّهٌ، إذا ارتقى أعواد المنابر؛ أمسك بأزِمَّة البيان، وأخذ بمجامع القلوب. ثمّ هو طالب علم له عناية بالغة بالفقه المالكي.

وكان إلى ذلك كلّه صاحب تَنَدُّر (طَقْطَقَة)؛ إذا مدّ لسانه في التَّندر بأحد جلسائه الأصفياء لم يترك فيه مما يُتندر منه شاردة ولا واردة، وهذه صفة لا تكون إلا في الأذكياء. ولا يكون كذلك إلا مَن كان في النَّاس ذا بديهةٍ حاضرةٍ، وتوفيق الصّائغ كأنُّه خُلِق صاحب طُرفة وفُكاهةٍ

ونادِرة. الطُّرفة حاضرةٌ دومًا في ذهنه وعلى طرف لسانه؛ مرّة كنتُ معه في القاهرة، فدخل علينا في المجلس عائضٌ القرنيُّ، فأخذ يصافح الحضورَ وتوفيقٌ يقوم بتعريف الحاضرين له، فلما اقترب منّي، قال توفيق: هذا أخونا عدنان السيامي، تايلانديّ، مسلم جديد!!

وأرجو يا ولدي ألا يكون حظُّك منه هذه الصّفة فقط، والتي أجدها تتمثّل فيكَ بقوّة يومًا بعد يوم، وحقيقةً لا أجدُ فيك ما يُذكِّرني به إلا هذه الصّفة. غير أنّي أرجو لك فوق ما كان له في العلم والفضل (والله واسع الفضل). وكانت لديَّ صورة قديمة تجمعكما؛ إذ قصدني ذات ليلة لأجل أن يراك، ووضعك في حجره، ودعا لك بالبركة والخير؛ ولم يتسنَ له أن يقوم بتحنيكك لأنَّ زيارته هذه تأخرت عن يوم سابعك، وتلك قصّة أخرى!!

لقد قام أبي (رحمه الله) بتحنيك أشقائك الثّلاثة، وشاء الله تبارك وتعالى أن تدخل عالمنا هذا وقد خرج منه قبل ذلك بأقلَّ من عام (25 ربيع الأول 1428)، فلما حلّ يومُ سابعك؛ طلبتُ من أخي أبي عبد اللطيف فخر الدِّين أن يقوم بتحنيكك، فتفضَّل (جزاه الله خيرًا)، وقام بذلك.

وهذا سرُّ عناية أبي عبد اللطيف بهذه الجداريات، وبخاصّة حين تتعلق بك، فهو يُدِّل بأبوته الرّوحية لك. والذي قد لا تعرفه عن أبي

عبد اللّطيف أنَّه شيخٌ في القراءات العشرة، مجازٌ فيها من قِبل شيخه الشّيخ عبد الغفّار الدُّروبي من قُرّاء الشَّام، وله مزيدُ عنايةٍ بالفقه الشَّافعيّ. أمَّا الحديث الشّريف؛ فهو وثيقُ الصّلة به، تخصّص فيه تخصصًا أكاديميًا، وله في الأدب مداعبات ومراسلات، نَصَب بها شِراكه فحاز إلى رَحله مَهَاةً شرودًا، أسلس قيادها، وفاز بقلبها (الشيخ لما يبغى يصير رومانسي، يصير مرّة خطير).

دارت تلك الأيّام يا ولدي، وها هي تسلمك لعامك الثّالث عشر، وقد بدأتَ تتناولُ كثيرًا من الأمور بطريقة مختلفة، وإنّي لأرجو لك العافيةَ.

الاثنين 8 صفر – 7 أكتوبر

لا تغسل يدك!!

لا تقفوا عند العنوان، فلا بد لكم أن تغسلوا أيديكم، فالطّهارة شيءٌ أساسٌ في عقيدتنا نحن المسلمين. وأحدُ أهمِّ خصائص البلد الحرام أنَّه طاهر.

اسمعوا منّي هذه القصة التي قرأتها هذا اليوم في (الواتس آب)، وتفاعلتُ معها بطريقتي، وسوف أرويها لكم بطريقتي، يقول الرّاوي:

في إحدى المناسبات الاجتماعية لمحتُ معلمًا من معلمي المرحلة الابتدائية، كان من أولئك الذين لا يتمكن الزَّمان مهما حاول أن يمسح صورَهم من الذّاكرة، أولئك الذين يوجّهون دربك من أقرب سبيل، وبأوجز عبارة. الذين يصدق فيهم قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّما النَّاسُ كالإبل المئة، لا تكاد تجدُ فيها راحلة»، فهو من نوادر الرّجال والقِلَّة من المعلمين، وكم كان له من مواقف تربوية حفظناها ورويناها!!

ومن المواقف التي لا تزال أحداثُها حيَّةً في ذاكرتي= قصَّةٌ حدثت ونحن يومَها في الصّف السَّادس الابتدائي؛ دخل علينا الفصلَ ذلك اليوم فرأى أحدَ زملائنا مُحْمَرَّ العينين يكاد يتميَّز قهرًا، فاستعلمه عن حاله، فشرع الطّالب يحكي للمعلم ودموعه الحارَّة تسيلُ على خدَّيه، والفصلُ من هيبة الموقف كأنَّ على رأسه الطّير. كان يشكو بجملٍ قصيرة عن سرقة ساعته الثّمينة، وأنّ أحد زملائه (ولا شكّ) مَن أخذها.

كان هذا الطّالب قبل دخول المعلم يصيح فينا بأنَّ ساعته فُقِدت، ويتلَفَّتُ حولَه بحَيرةٍ بحثًا عنها، لأنّه لم يغفل عنها إلا دقائق معدودة خلعها داخل الفصل أثناء تنشيفه ليديه بعد عودته من دورة المياه، ثم لم يجد لها أثرًا على طاولته. لم يكن يتّهم أحدًا بعينه، ولكنه يشعر بغُصةٍ في حلقه وحسرةٍ في فؤاده، فهو يعلم يقينًا أنَّ السَّارق واحدٌ منَّا.

هدَّأ المعلم من رُوْعِ الطَّالب، ووعده أن يعيد إليه ساعته، فسكنتْ نفسه. أمر المعلم أن يقف الفصلُ بأكمله صفًّا واحدًا تُجاه الحائط، ووقف زميلُنا كآحادنا، وأمرنا جميعًا أن نغمضَ أعيننا بينما يقوم هو بتفتيشنا.

بدأ المعلم يفتِّشنا طالبًا طالبًا والأنفاسُ من شدَّة خشوعها يُفزعها حركة عقارب السَّاعة على الحائط، وبعد أن انتهى من عملية التّفتيش أمرنا أن نعود إلى مقاعدنا. اعتقد الفصلُ لوَهْلَةٍ بأنَّه لم يعثر على السّاعة، ولكنه اقترب من زميلنا وألبسه ساعته. تعلَّقت القلوب بالمعلم تنتظر أن يفصح عن اسم السَّارق، ولكنه اتّجه إلى (السَّبورة)، وشرع في الدَّرس، وكأنّ شيئًا لم يكن.

لم يكن للمدرسة ذلك اليوم ولا الأيَّام التي تلته حتى اليوم الذي تخرَّجنا فيه حديثٌ غير السَّارق الذي رفض المعلم أن يفصح عن هويته. وحتَّى عندما وصلت القصّة إلى بقية معلمي المدرسة وإدارتها= لم يتمكنوا أن يعرفوا هوية السّارق منه. بل لم نستطع نحن أن نستشف هوية السَّارق من طريقة تعامله مع زملائنا في الفصل بعد هذه الحادثة. مضى في سيرته الأولى معنا، ولم يصدر منه ما يدلّ أبدًا على أنَّه –هو نفسه– يعرف السّارق.

أحداثٌ سريعةٌ مرّت بذاكرتي وأنا أقتربُ من معلمي، وأُعرِّفه بنفسي، فأقبل عليَّ بكليَّته، وبدأ يسأل عن حالي ومآلي، وأبدى سرورًا عميقًا بما تحقَّق لي من نجاحٍ في حياتي الوظيفية والأسرية، واعترف بأنَّ ذلك لم يكن مستغربًا مني؛ وأنِّي كنتُ عنده من نجباء الطّلاب.

ذكَّرته بتلك الحادثة فتذكّرها بكل دقائقها، فقلتُ: ما كان شيءٌ ليتحقق لي، لو أنَّك أخبرتَ المدرسة باسمي. لا أدري، كيف ستأخذ حياتي الدّراسية مسارَها لو عُرِفتُ في المدرسة يومَها بأنِّي سارقٌ.

فتبسَّم، واستنار وجهُه، وقال: لم أكن أعلم أنَّه أنت، ولقد كنتُ أرجو أن يأتي يومٌ يعترف لي السَّارق نفسُه بفَعْلَته، ويعتذر منها.

– وكيف ذلك، وقد أخرجتَ السَّاعةَ من جيبي؟

– لقد قمتُ بتفتشيكم وأنا مغمضُ العينين!!

الحقُّ، إنَّها قصّة مؤثِّرة، وقد بلغ من تأثيرها أنِّي أدرتُها في رأسي طوال اليوم، وكانت تطلُّ عليَّ من سطورها فكرةٌ إنسانية عزيزةٌ، وهي: السَّتر، وإعطاء النَّاس فرصةً أخرى لتصحيح أخطائها.

عليك بهذا المبدأ، والزمه: السَّتر عن أخطاء النَّاس بعامَّة وعن أخطاء خاصَّتك بخاصّة، فلا تغسل يدك يا ولدي (أعني: كلّ فردٍ منكم على حدة) دون أخيك أو صديقك، ومعنى ذلك: ألا تفقد الأملَ في صلاحه، ورجوعه عن خطئه. لا تُسْلِمه لأخطائه مهما عظُمَتْ، فلستَ عليه بوكيل. غُضَّ عليه بنواجذك، ولا ترفع يدك عنه، ولا تغسلها دونه.

ما قيمة الصّديق عند صديقه إذا لم يغفر له أخطاءه، ولم يتجاوز عن سيئاته، ويُعينه على النُّهوض في هذه الحياة مرّةً بعد مرَّةٍ، كلّما سقط أو تعثَّر.

الثلاثاء 9 صفر – 8 أكتوبر

حَدثٌ آخرُ!!

أسمَيتُك على اسم جدِّك (أحمد)، وكانت نفسي تغالبني في هذا الاسم عند تسمية (سفيان)، وردَّني عنه أنَّ كنية خالتك فايزة: (أم أحمد)، فما أحبَّتْ (ماما) أن يكون في عائلتها (أم أحمد) أخرى، فكان هذا الاسم من نصيبك. أمَّا لماذا لم نسمِ مالكًا (أحمدَ)؟، فتلك قصّة أخرى!!

كان جدُّك أحمد (مأ سامؤ) في مكة علمًا في أعيان الفطانيين، كانت لا تُنْكِره أُذُن الفطانيين الذين رُمِلوا الآن، ولم يبقَ منهم إلا أفرادٌ قلائلُ مدَّ الله في أعمارهم. طالبَ علم مواظبٍ على حلقات الشيخ عبد الكريم بنجر في المسجد الحرام (رحمهما الله). وحتى يوم مولدك لم يكن أحدٌ من أعمامك قد اختار هذا الاسم لأحدٍ من أبنائه، فكأنّك كنتَ مع اسمك على قدرٍ (أحمد ابن عمّتك فاطمة، غير داخل في الحِسبة).

أضأتَ يا ولدي سماءَ عائلة (السَّامؤ) يوم السبت التّاسع من صفر عام 1423هـ الموافق للثاني والعشرين من أبريل عام 2002، بعد ستّة

أعوام من مولد أخيك مالك، ولقد كان بِرُفقتي حين انطلقنا بعد صلاة العشاء إلى مستوصف في حي الملاوي لنعود بك إلى المنزل، ونحتفل بانتظامك في عائلتنا الصّغيرة. ومن فرط السُّرور داعبتُ أخاك مالكًا (الذي أخذ نصيبَه من التّدليل موفًّى طيلة ستة أعوام) بقولي: لقد جاءنا أحمد، وسوف نلقي بك وبسفيان في الشّارع.

كانت مداعبةً غبية لم أحسب لها حسابًا، قلتُها له حين بَلَغنا خبرُ مقدَمك، ورُبّ كلمةٍ تقولُ لصاحبها: (دعني)، وما أسعد الملافظ الجميلة!! ولذلك أُسْقِط في يدي حين قال لي مالكٌ ونحن مُتَّجهين إليك :بابا، لا ترمينا في الشّارع.

كِدَّتُ لعِظم الكلمة أصعقُ من قوّة وقعها على قلبي، فانتحيتُ بالسّيارة جانبًا، وضممتُه إلى صدري، وأنا أربت عليه، وأقول: لا يا بابا، لا يمكن أن أفعل ذلك، كنتُ أمزح معك.

لا أدري، هل لا زِلتَ تذكر هذه الحادثة يا مالك، ولكني لم أنسها أبدًا، وما زلت أشعر بغُصةٍ كلما تذكَّرتُها، وأتذكر عينيك وهما تلمعان حين نطقتَ بتلك الكلمات التي آلمتني، ولا زالت تؤلمني. فاغفر لي يا ولدي، فهي إحدى زلَّاتي في تربيتكم، وإنَّ لها لأخوات!!

سَعِدَتْ بك جدَّتك، وفرحت باسمك فرحًا لم تستطع أن تكتمه، وقام جدُّك يومَ سابعك بتحنيكك، وللفطانيين طبيعة في تعبيرهم عن مشاعرهم تحدثتُ عنها في (رائحة المطاط). ولقد أدركتَ جدَّك في سنواته الأخيرة، فلا أدري هل تذكره جيّدًا أم غابت ملامحُه عنك، ولكنه كان يحبُّك، ويفخر بأحمد الصَّغير.

في صغرك دلَّت مواقفُ كثيرة على قسوةٍ فيك، وحبٍّ طفوليٍّ للعبث بطرقٍ غير متوقعة بأحواض أسماك الزّينة، وإفسادها، ولا أظنُّك تنسى العلقة السَّاخنة التي حظيتَ بها من عديلي أبي يوسف حين عبثتَ بحوض أسماكه، وكانت تلك محبةً منه؛ لأنَّ الموزِّع الكهربائي الذي كان على غطاء الحوض كاد أن يقع في الماء، فتهلك، فأنقذك الله به.

لم أتلقَ استدعاءً من إدارة مدرسةٍ قط بسبب عراكٍ خاضه أحد أشقائك، ولكني في المقابل استُدعيت بسببك مرّتين في المرحلة الابتدائية، ومرّتين في الثّانوية، وفي كلّها كنتَ أنتَ المعتدي بالضّرب المبرِح لزملائك. نعم، أدرك أنَّك لم تكن فيها مَنِ ابتدأ العِراك، ولكنك كذلك لم تكن ممَّن يتجنبها. وحتى في ثانوية بانكوك تمَّ استدعاءُ أخيك مالك، لضربك المُبرِح لاثنين من زملائك في وقتٍ واحد.

أنـتَ لا تسـير في خُطـى سـفيان ومالـك في الدِّراسـة، ولكنـك في المقابـل أُعْطيـتَ موهبـةً ونَفَسًـا في فنـون الطَّـبخ، وكـم أنا فخـورٌ بوضـوح رؤيتـك لمستقبلك، واختيارك لنفسك أن تعمل في إعداد الحلويات، وتُعِدُّ نفسك بعد الثَّانوية لإنشاء مشروعك الخاصّ. وهو ما أثمِّنه فيك، وأباركه لك، ولا أعارضه، بل ستجدني دائمًا خلفك أُعَزِز فيك اختياراتك. وقد سبق أن اعترفتُ لك: أنِّي أعشقُ كلّ الأصناف التي تُعِدُّها، وأكثر ما أعشقه منها إضافةً لحلوياتك: طبق البيتزا خاصّتُك.

وإنّ فيك لخصلةً لا أدري من أين تسرَّبت إليك؟ ولكنها يقينًا ليست منِّي، وهي النِّظام والتَّرتيب، وأنت بهذه الخصلة أقرب ما تكون من أبنائي شبهًا بعمِّك الأكبر أبي إياد (حفظه الله)، وتزيدُ على أبي إياد أنَّ لديكَ هوسًا بالنَّظافة.

حبيبي حمودي!!

كنتَ في مكَّة تعيشُ في عُزلةٍ، ليس لديك الكثير من الأصدقاء، فلا تزورُ ولا تُزار، وليست لديك علائق قوية بزملاء صفوفك الدّراسية الأُولى، ولا بزملائك في حلقات التّحفيظ، فنادرًا ما تخرج معهم. ولذلك كنتُ كثيرًا ما أداعب (ماما) بقولي: (مو كنتِ تتمني بنت، ربِّي عوضك بهذا الولد عن البنت اللي تساعدك في البيت). ولكن مواهبك الاجتماعية تفجَّرت في

بانكوك، فغدوتَ شابًّا يحبُّ الحديثَ عن صداقاته الجديدة. بل لا جديد عنده يحبُّ أن يشارك به أباه في اتّصالاته الهاتفية إلا هي، فالحمد لله الذي رقَّق حاشيتك.

كلمةٌ أخيرةٌ يا ولدي..

أنتَ قد تجاوزتَ فترة المراهقة قبل ثلاث سنوات، وقلمُ التّكليف يجري في صحائفك من يومها، فلا بدَّ أن تقوِّي هذه الحقيقة في نفسك، ولا تغفل عنها. وإنَّ ممَّا أحمدُه فيك أنَّك أكثر أشقائك حرصًا على أداء الصّلوات في أوقاتها، وعلى تعاهد ما حفظته من القرآن الكريم، فالزم ذلك، وإنِّي أرجو أن يحفظك الله بها.

الأربعاء 10 صفر – 9 أكتوبر

طريقةٌ في الحياة!!

لا زِلتُ أتعلم من أبي رغم البُعد الزّمني الذي يفصل ما بيننا، أتلقى عنه إشاراتٍ تضيء جوانب من أسرار الحياة، وتعزّز في نفسي قيمًا إنسانية أؤمن بها. فأزداد تعلّقًا بها.

تتمثل هذه الإشارات في كلمة أقرأها له في حاشية كتابٍ من كتبه، أو خبر يقصّه عليّ أحدُ أشقائي، أو مواقف سابقةٍ دارت بيني وبينه، حين أعيد قراءتها أجد أنَّ موقفه وكلمته تتغيّر في نفسي لأنّ زاوية فهمي تغيّرت، وقلبي الذي ينقد ذلك الموقف كذلك تغيّر، فالحياة تزيدك علمًا ونضجًا، فأقرأ والدي في كلّ مرّة قراءة مختلفة. ففي كلّ قراءة أجده يُعلِّمني شيئًا جديدًا أو يتعاهد في نفسي غَرسًا بالسّقي مرّة بعد مرّة.

هذا الصّباح قرأتُ تعليقًا على جداريتي (حَدَثٌ آخرُ) كتبه الصّديق العزّيز الفخر بن عبد اللطيف، ذكر في تعليقه قصّتين موجزتين عن والدي؛

الأولى عن أوّل مرّة عرف فيها والدي، والأخرى عن آخر مرّة رأى فيها والدي، وبين القصّتين حوادثُ أعادت تشكيل الحياة الاجتماعية من حولنا.

كان والده (والد الفخر) قاسمًا مشتركًا في القصّتين، حاضرًا في الأولى برسمه، وفي الأخرى باسمه، أشار له والدُه في الأولى إلى والدي قائلًا: هذا صديق والدك، فاتخذ ولَدَه صديقًا لك (يشير إلى شقيقي الأصغر إبراهيم). أمّا في الأخرى، فكتب الفخر: أنّ والدي وهو على فراش مرض موته كان يذكر والدَه بكلّ خير.

الجدير بالذِّكر أنِّي أعلم –والفخرُ يعلمُ– أنَّ الخصومةَ والقطيعةَ والهجرَ عرفت طريقها بين الاثنين (رحمهما الله)، وانقطعت أسبابُ الوِصال بينهما، ولم تتصل. ومع ذلك كلّه لم تمتد الخصومةُ خارج إطارهما، فلم تمنع الفخرَ من زيارة خصمٍ لوالده، ولم تمنع والدي أن يذكر فضائلَ خصمه في حضرة ابنه.

لم يكونا في خِصامهما بَرَرَة، وما كانا فيه فَجَرة، فغفر الله لهما، ونزَعَ ما في قلوبهما من غِلٍّ إخوانًا على سررٍ متقابلين.

القيم والأخلاق والمبادئ تتشكّل وتتبلْوَر عبر الزّمان، فتكون إرثًا ثقيلا ينتقل من جيل إلى جيل. ولذلك كنتُ مفتونًا بهذه الفكرة أثناء قراءتي لرواية غابريل غاريسيا ماركيز (مئة عام من العُزلة)، والتي لم يستطع العديد من رفاقي إتمام قراءتها. أمّا أنا فقرأتُها بكثير من الحيرة وقليل من المتعة، وكانت هذه الفكرة تفتنني أثناء القراءة، وأنا أتتبع الأحداث التي تعاقبت على عائلة "خوسيه أركاديو بونديا" طيلة مئة عام، وكيف ساهمت هذه الأحداث في بناء قيم وأخلاق أفراد هذه العائلة عبر هذه الأعوام المئة.

الزّمن بوجهٍ عام عاملٌ مؤثّرٌ في عملية بناء التّصوّرات أو مراجعتها، لذلك ليس من العبث أن يعيد الإنسان كلّما تقدمت به الحياة، وزادته الأيّام علمًا ونضجًا= قراءة كتاب سبق أن فهم مفرداتها، أو روايةٍ سبق أن أتى على فصولها. أو حتى إعادة النّظر في مسألة علمية سبق أن قتلها بحثًا. فقد يخرج بتصورات جديدة، أو يتراجع عن تصورات وقناعات قديمة.

وإنَّ من أمثل ما يُعتنى بتكرار النّظر فيه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم. وكلُّ كتب السيرة النبوية بوجهٍ عام نافعة، يختار القارئ منها ما يناسب فكره ولغته وثقافته، ولستُ فيها بناصحٍ بكتاب دون كتاب غير

كتاب واحدٍ فقط، ليس لقيمته العلمية التي ليست عند غيره، ولكن لقيمته النّقدية، فهو نافعٌ جدًّا في تعلم مهارات القراءة النّقدية لنصوص روايات السيرة النبوية رِوايةً ودِرايةً. أعني بذلك: (السيرة مستمرة)، للكاتب العراقي الدكتور أحمد خيري العُمُري.

قراءة السّيرة النبوية بصفة مستمرة ودائمة، طريقةٌ مُثلى في الحياة.

الخميس 11 صفر – 10 أكتوبر

من أصدقاء الطُّفُولة!!

ذات ليلة يعود مارك توين إلى منزله ليجد رسالة من ””لورا““، فتاة أحبَّها قبل خمس وأربعين عامًا، تشكو له فاقةً وعَيلةً، وابنًا معاقًا تقوم على رعايته. فيتزلزل لمأساة فتاة أحبها وهي في السَّابعة عشرة، ويتألم لها وهي أرملة في الثانية والسِّتين من عمرها، فيرسل لها ألفَ دولار، كما طلبت منه.

الحبّ الأول لا يموت في القلب أبدًا ..

مارك توين، أحد أعظم أعلام الأدب الإنساني الذين أنتجتهم أمريكا. هذا الرَّجل كان قادرًا دومًا أن يشعرك –وأنت تقرأ له– أنك تستمع وهو يتحدث إليك بكل حميمية.

حدَّثني ذات صباح أنه حمل مسودة كتابه الأول إلى الناشر ””كارلتون““، بناءً على موعد رُتِّب له، وعرض عليه مسودته، يقول مارك: استقبلني كارلتون بفتور، ثم بدأ ينتفخ وينتفخ وجعل صوتُه يعلو

ويعلو. يقول مارك: حتى لم أعدْ أعي ما يقولُ لقوة صوت الرَّعد والمطر. ثم هدأ وقال: انظرْ إلى رفوف الكتب الممتلئة من حولي، هل تظن أني بحاجة للمزيد من طباعة الكتب؟

يقول مارك: بعد واحد وعشرين عامًا زارني زيارةً قصيرةً ليقول معتذرًا: أنا لستُ رجلا مهمًا، ولكني أملك بعض الصِّفات التي تجعل التّاريخ يذكرني بأني كنتُ أكثر الرَّجال غباءً حين رفضتُ نشر كتابك!!

هذه القصة التي قصّها عليّ مارك وأنا أشاركه قهوته الصباحية؛ ليست عزاءً لمن أراد أن يصبح كاتبًا أو شاعرًا، وهو لم يقرأ كتابًا واحدًا، أو لم يدمِنِ النَّظر في ديوان صغير لبردوني اليمن، أو دنقل مصر، أو نزار سوريا، أو درويش فلسطين، أو ثبيتي السّعودية.

ولكن أرجو أن تكون ملهمةً لهم: أنّ الموهبة وحدها لا تكفي، فمارك توين ما وصل إلى هذه المكانة الأدبية دون قراءة جادة، ومعاناةٍ شديدةٍ في الكتابة.

علاقتي بمارك اتّسمتْ بالأريحية (الميانة)، لطول الصّحبة، فقد عرَّفني عليه أخي أبو هيثم وأنا صغيرٌ، جاء به إلى منزلنا يومًا، فرأيتُه جالسًا في طرف المجلس، كنتُ وقتها في مراحلي الدّراسية الأولى، فأنستُ

إلى حديثه الماتع وهو يحكي للمرة الأولى رواية (الأمير والفقير)، فأغرمتُ بها، ولا أذكر عدد الليالي التي رجوته فيها مرارًا وتكرارًا أن يعيدها عليّ، فكان يستجيب لتوسلاتي، ويمضي في سردها، وغالبًا ما كان النوم يغلبني قبل تمامها.

ثم قرأتُ له رائعته: هكلبيري فين، ثم توم سوير، فتشكَّلت في ذاكرتي من خلال هاتين الرِّوايتين صورةٌ جيدة المعالم عن المجتمع الأمريكي في القرن التاسع عشر.

نال مارك توين من خلال أعماله ومحاضراته شهرة واسعة، ومع ذلك كانت نفسه تطيب بالحديث معي، والاستماع إليّ، عرضتُ عليه ذات مرّة أوراقًا كنتُ أضمُّها بين دفتي ملف أزرق اللَّون، أسميته الدفتر الأزرق، أردتُ بصدق أن أعرف رأيه فيما أكتبه، فقلَّب تلك الأوراق، وأطال النَّظر في بعضها، ثم قال: أنا لستُ محررًا في صحيفة يومية أو مجلّة شهرية، لذلك ليست لدي خبرة كافية للحكم على كتابات الآخرين.

وكنتُ أعرف أنه يحتجّ بهذه الحجّة حين لا يجد فيما يقرأه شيئًا ذا بال. فقلتُ: صدقًا، ما رأيك؟

فتنهد وقال: عزيزي، يؤمن العاقل أنّ التدريب ضروريٌ للإنسان حتى يكون مؤهلا للعمل في مهنة ما؛ سمكري مثلا أو بنّاء أو طبّاع أو طبيب خيول أو جزار، وهكذا في أيّ عمل يحصل من خلاله على الرّزق والشهّرة. ولكن حين يتعلق الأمر بصناعة الأدب؛ فإنه يفقد عقله فجأةً، ويعتقد لحظتها أنه أمام مهنة لا تحتاج منه أي استعداد أو خبرة أو تدريب، وأنّها لا تتطلب سوى إحساس بالموهبة وشجاعة فائقة.

– مارك !!

– نعم.

– أختك!!

في كلّ مرّة ألتقي فيها بمارك توين يأسرني بحديثه، ويدهشني بسرده الجميل لسيرته. في مساء يوم لطيف شفَّت فيه روحه، وطربت= جلس يحدثني عن خاتم الخطبة الذي أهداه لزوجه ”أوليفيا إل لانغدون“، قال: تمّت الخطوبة في الرّابع من فبراير عام 1869، كان خاتم الخطوبة أملسَ، وكان من الذّهب الثّقيل، وقد نُقِش هذا التّأريخ عليه من الدّاخل. وبعد عام أخذته من إصبعها، وجهّزته ليكون خاتم الزّواج، وذلك بإضافة تاريخ زواجنا ونقشه من الدّاخل. هذا التّاريخ هو

الثّاني من فبراير **1870**. ولم يفارق الخاتم إصبعَها بعد ذلك، ولو لحظة واحدة.

قلتُ له: مارك، لدي قصّة خاتم تشبه قصة هذا الخاتم الأثير لدى زوجك. قبل أكثر من ثلاثة عشر عامًا، أهديتُها خاتمًا من الفضة، نقشتُ عليه اسمي وذكرى لقائنا الأوّل، كان شريكي في اختيار ذلك الخاتم طفلٌ في العاشرة من عمره، كان على صغره مستودعًا للأسرار. لم يكن – حينها– خاتم خطبة ولا زواج (فنحن لا نؤمن بتلك الطقوس)، بل كان خاتمًا لذكرى علاقة دافئة ارتفعت عن كلِّ علائق الأرض.

وهناك نشأت قصةُ حبٍّ بينها وبين الخاتم، لم يُخيِّب ظنّها يومًا، كلّما تحسسته ذكَّرها بشخص تستطيع دائمًا أن تعتمد عليه، وأن تثق فيه، وأن تراهن عليه. وبرغم أنَّ ذلك الشّخص لم يعد مِلْكًا لها، إلا أنَّ خاتمه لا زال في إصبعها.

أطرق مارك مليًّا، ثم رفع رأسَه، وقال: أختك!!

هذه حكاية صديق من أصدقاء الطّفولة، ولي صديق آخر من أصدقاء تلك المرحلة الأثيرة في النّفس، حيث جمعتنا مقاعد الدّراسة، ثم اتّصلت أسبابنا خارج أسوار المدرسة، فألفته وألفني زمنًا، ولا زال حبل

العلائـق وثيقًـا بيـني وبينـه، أرسـل إلينـا عـبر مجموعـات (الـواتس آب) قصـيدة نثريـة بصـوت ابنـه، لم أمسـك نفسـي عـن التّفاعـل معهـا، يقول حازم محمد عبد الهادي:

إلى نجمةٍ بعيدة

ربِّ !! .. يا الله!!

لقد بذلتُ ما بوسعي، حتى لا أنطفئ

حاولتُ ما بوسعي

خذ بيدي إلى نجمة بعيدة

واغمرني بضوءٍ لا يخفتُ وهَجُه

يعزّ عليّ هذا التّعب ..

والركضُ الطّويل ..

من بين أنياب القلق ..

إلى رحابة حنانك وأمانك

واملأني بالسّلام الذي أتوقُ إليه

يا ربّنا!!

قصيدة نثرية تفاعل معها فتىً لم يُجاوز –فيما أحسب– عامه الخامس عشر، قرأتُ فيها فتىً يشكو مجتمعًا هو طارئٌ فيه لم يستطع أحدهما أن يفهم الآخر. وعزّ عليه ذلك رُغم بذله لأسبابه، وبلوغه في ذلك أقصى غاياته، فارتدّ إلى خلوةٍ فكرية عاطفيةٍ ينظر فيها إلى ما يريد لنفسه أن تكون بعد عقدٍ من عمره، فيجد بُعد ذلك كسفر إلى نجمٍ بعيد. أسلمه كلّ ذلك إلى ركضٍ محمومٍ ونفسٍ قلقة مضطربة، فآوى في تلك الوحدة إلى ركن شديد (ربِّ .. يا الله!!).

الأدب، هو لسان المجتمع، وحازم يعبِّر عن لسان كثيرٍ من أبنائنا الذين اضطرتهم ظروفهم أن يغادروا أرضًا ألِفوا هواءها، وتكلموا بلغة أهلها، ولبسوا عاداتهم. فرسمت تلك الأرض أولى ملامح شخصيتهم التي تعبّر عن مكنونهم الفكري والعاطفي، ثم انْتُزعوا منها إلى أخرى، أرضًا ينكرونها وتنكرهم، وإن كانوا يشبهونها، حالهم معها كـ (عودة الابن الضّال).

ما يصلني بحازم فوق علائق الأخوة العميقة التي تربطني بوالده، هو هذه الذَّاكرة الأدبية التي تشفُّ عن روحٍ قلقةٍ، والحرف الذي يستحقّ أن يُقرأ هو الذي يولد من رحم معاناة الفِكر والعاطفة.

لا أدري يا بُني، هل تطول رحلتك أم تقصُر بحثًا عن السّلام؟ بل لا أدري عن أيّ سلامٍ تبحث؟ ولكني أشعر أنَّ هذه الرّوح القَلِقة لن تصل إلى السّلام بسلام!!

الجمعة 12 صفر – 11 أكتوبر

أين قلّة الأدب؟

حين بدأتُ كتابة هذه التّدوينات كانت فكرتها (يوميات خاصّة) تُحْبس في دفاتري، إلى أن يعثرَ عليها أبنائي، وينظرون بينهم فيها: هل تصلح أن تشاع على العامَّة أم تبقى خاصّة بهم. لا يشاركون بها أحدًا غيرهم؟

ذلك؛ أنَّها في حقيقتها خاصّة بهم، أحكي لهم عن جزءٍ ليس بالقليل عن حياةٍ عشتُ فيها بعيدًا عنهم، تفصل بيننا عشراتُ الآلافِ من الكيلومترات من المهامه والمفاوز.

أردتُ بها أن أشاركهم دقيق ما يختلج في وجداني، وجليل ما يعتريني في وِحدتي من شوقٍ إليهم، وتَوَقٍ إلى مجالسهم، وقصصهم وحكاياتهم. أن أملا صفحات كثيرة من أوراق حياتهم التي لا يُكتب اسمي فيها: أنّي أخبرتُهم وأخبروني، حكيتُ لهم وحكوا لي، شكوتُ إليهم وشَكَوْ إليّ. لِمَ لم نعد نتشارك الحياة اليومية كما تصنع كلّ العائلات (ما يحدث في أحسن العائلات لا يحدث في عائلتي).

فكتبتُ ابتداءً ورقاتٍ ألتمس فيها طريقة لا تخرجني من الجمع إلى الشَّتات، ولا من وحدة الهدف إلى توزُّعِها في كلِّ ما تميل إليه النّفس وتهواه. وصحّ العزمُ منِّي ألا تخرج عن خواطر تتعلّق بالحياة اليومية، وما يعتري النّفس البشرية حين تختلط بمن حولها، وخُلاصاتٍ للقراءات المتنوّعة ممّا يستحقّ أن أشاركهم بها، وقد يمتدّ هذا إلى أن أرجع إلى الذّاكرة لأحكي لهم عن حياةٍ سلفت قد لا أكون شبيهًا بهم فيها، ولا قريبًا منهم، ولكنَّ كلّ أولئك كانوا (أنا) بطريقةٍ ما، ثم لم يعودوا (أنا) كُلا أو جُزءًا.

ثم بعثتُ هذه الأوراق إلى بعض مَن أثق برأيّهم الأدبي، حتى أُحْكِم على ضوء ملحوظاتهم المنهجيةَ التي أنطلق فيها في الكتابة دون الاضطرار إلى مراجعاتٍ كثيرة أثناءها. فاستحسنوا الفكرة، غير أنّ الصّديق الأستاذ عبد المنعم النّهدي، أبو حسناء= بالغ في إحسان الظَّنِّ في حرفي لدرجة أنْ قال: ينبغي أن تكون متاحةً للجميع. قم بإنشاء مدوَّنة، واكتب فيها ما شئتَ.

وبلغ من حماسه أن استمهلني يومين فقط لتكون المدوَّنة جاهزة، وبالفعل لم ينقضِ اليومان إلا وبدأت (الشخبطة) على هذه (الجداريات) بصفة يومية، وعادت بي ذاكرتي إلى الوراء حيثُ كنتُ أرسم على جدران منزلنا

الكـائن في جبـل أبي قبـيس= رسـوماتي الأولى قبـل أن أتعلَّـم الكتابـة. أشخط عليها قصصًا عن جدتي ودجاجها، وأشقائي وحيوانات المنزل. رسومات تأخذ شكل خطوطٍ لا ملامح لها، ولا عنوان.

اخترنا لهذه الجداريات اسمًا (جداريات .. لا تهم أحدًا)؛ لأنِّي ما زلتُ أعتقد أنَّهـا أوراقٌ خاصّـة بـرغم أنِّي جعلتهـا متاحـةً، فيفـترض أنّهـا لا تهـم أحـدًا إلا أبنائي.

بعض الأصدقاء من القُرَّاء رأى في العنوان استفزازًا، بينما كنتُ في الحقيقة أفترض أنَّها لا تبلغ أن يهتم بها أحدٌ. وما زال بي خاصّة إخوتي حتَّى نزلتُ إلى رأيّهم، فقلت :(جداريات .. لا تستفزّ أحدًا) .ثم ظهر لي أن أقتصر على كلمة (جداريات) فقط، فقد تبيَّن أنَّ (لا تستفزّ أحدًا) صارت تستفزّ كلّ أحد.

ثم كانت هناك عبارة شارحة لهذه (الجداريات)، فكتب عبد المنعم النّهديّ (شيءٌ من الأدب)، فقلتُ له دُعابةً: ومن قلّة الأدب. فكتبها.

ورأيتُ أن أبقي العبارة كما هي: (شيءٌ من الأدب، ومن قلّة الأدب)، فالكوميديا السّوداء تكمن في مفهوم (الأدب) عند القارئ، فإذا فهم (الأدب) الثانية، بخلاف فهمه لـ (الأدب) الأولى، فهذا لا حيلة فيه. ولذلك

سألني أحد الزّملاء في (إدارة البحوث والدّراسات) تندرًا بعد عدد من التّدوينات: حتَّى الآن ما قرأنا قلّة الأدب؟

قبل هذه المدوَّنة، كنّا لا نجد في بعض الأحيان موضوعًا نتحدث فيه غير الكلمات المعتادة (كيفك يا بابا، كيفك حبيبي، وحشتنا، حتى إنت، إنت أكثر، متى تجي؟ إيش مسوي؟، إنت في العمل؟، أنا في الجامعة، إيش جديدك؟ ما عندي جديد)، وهكذا. لكن اليوم صار لدينا موضوعٌ أو أكثر نتحدث فيه، ونتجادل حوله.

قرّبتني هذه المدوّنة إلى أبنائي أكثر، بِتُّ أرى وجوههم بين السّطور يتحاورون معي في صحّة عبارة، أو متانة أسلوب، أو سلامة فكرة. يتفاعلون مع هذه المدوّنات بعد أن تنشر بطرقٍ مختلفة، فبعضهم يكتب تعليقًا، وآخر يتواصل معي على (الخاصّ)، وثالث يتّصل هاتفيًّا، ويفضي إليَّ بكلّ براءة بأنَّه تأثَّر بما قرأ، وبخاصّة إذا توجَّه الحديثُ إليه كما في (حدثٌ آخرُ).

كما ساهمت التّعليقات التي كتبها القُرّاء الفضلاء في إثراء (الجداريات)، وكذا المشاعر الطيبة التي تصلني عبر الرسائل الخاصّة، وأنا ممتنٌ لكل هؤلاء، ولكل شخص كتب كلمةً في هذه المدوّنة، إضافةً أو استدراكًا أو

نقـدًا أو تنبيهًـا أو تشـجيعًا، فعـلامَ نهـرب مـن حقيقـة أنّ الإنسـان مهمـا ارتفع في معارفه، يبقى إنسانًا يحبّ الثّناء والمدح، نحن بشر!!

فهـذه (الجـداريات) غـدت أوراق العُمُـر فيهـا شـارحةً لهـا، وغـدت خالصـةً للأدب، وليس لقلّة الأدب بها علاقة!!

السبت 13 صفر – 12 أكتوبر

كائن طفيلي

اعتاد رجلٌ عدَّ درجات السّلالم صعودًا إلى شقته، ونزولا منها، فيكتشف في كل مرّة أن عدد الدّرجات نزولا أقلّ من عددها في الصّعود، وعبثًا حاول حلّ هذا اللغز، فعدّها في الظّلام وعدّها وهو ينزلُ القهقرى، وفي كلِّ مرّة كان يجدُ عدد الدّرجات في النّزول أقلَّ منها في الصّعود= فاستسلم، وأيقن أنّ الحياةَ لا بد أن تحوي ألغازًا ليس بالإمكان إيجادُ حلٍّ لها.

وذات يوم وجد في صندوق بريده مجلدًا أصفر بعنوان: أدبُ العالم، بدون اسم لمؤلف ولا لدار النشر، ولا اسم للمرسل، حمله إلى شقته، بعد فترة وجد مجلدًا آخر في الصّندوق، فأغلق الصندوق وفتحه فوجد مجلدًا آخر وهو واقفٌ في مكانه، وهكذا استمر في نقل هذه المجلدات إلى شقته مرّة بعد مرّة، حتى بلغت المجلدات عشرات الآلاف، ولم يعد في الشّقّة مكانٌ لمجلد آخر.

الكتاب كائن طفيلي، يحيا على غيره، فحين تقرأ كتابًا، فإنّك تمدّه بأسباب الحياة؛ يبدأ في الانتقال من صفحات الكتاب إلى خلاياك الرّمادية، فتمتصّه تلك الخلايا، فيصبحُ جزءًا حيًّا من ذاكرتك الفكرية والإنسانية.

في صغري كنتُ أدّخر المال لسبب واحد، وهو شراء المجلّات المصوّرة أو عددٍ جديدٍ من سلاسل الألغاز والمغامرات التي تصدرها دار الهلال المصرية، أو سلسلة المكتبة الخضراء اللبنانية. وكان أوّل ما يتبادر إلى ذهني إذا اجتمع لديّ مالٌ أن أتوجّه إلى مكتبة الثقافة في سوق الليل لشراء الجديد منها، وأعني بالمال هنا: خمسة ريالات فأكثر.

وكان لديّ صديقٌ يشاركني هذا الولع، انقطع عنِّي خبرُه منذ أمد بعيد، فلا أدري أهو في مكة أم في إندونيسيا؟، اسمه: زكي طاهر، له حظٌّ كبيرٌ من اسمه واسم أبيه. فكنتُ أستعيرُ منه، ويستعيرُ مني، ثم يسطو كلانا على ما في يده (أسأل الله أن تكون بخير يا صديقي).

اجتمعت لديّ مكتبة خاصّة، ولكني لم أكن حريصًا عليها تمام الحرص، فكانت منثورة في أرجاء المنزل، وفي خِزانات قديمة في السطح، ولا أفتقد ما ضاع منها، أو استُعيرت ولم تعد إلى خزانتي، حتى حدثت واقعة جعلتني أهتم بجمع تلك المنشورات في مكان واحد؛ وذلك أنّي دخلتُ

يومًا دون ترتيب مسبق غرفة صديق كان يكثر التّردد على شقيقي عثمان أبي معاذ، فوجدتُ لديه مجلدات العملاق (سوبرمان والوطواط والبرق ولولو) وطرزان وتان تان وروائع الأدب العالمي والرجل الإلكتروني، من نفائس القصص المصوّرة، لا يقلّ سعر المجلد منها عن 25 ريالًا، وكان مبلغًا لا يستهان به في تلك الأيام؛ إذ كان مصروفي المدرسي (ريالين)، بذلتُ من حياتي جزءًا ليس بالقليل في جمعها من المال والمشي الطويل إلى مكتبة عتيقة مقابل مستشفى أجياد.

لا أدري ما صنعتُ معه، هل استرجعتُها؟ أم تركتُها له؟؛ لأنّ هذا الصّديق كانت طفولته بائسة، فقد هجره أبوه وهو رضيع، وتوفيت والدته وهو دون السادسة من عمره، وعاش طفولته مع جدّيه لأمّه. وكان في تلك الأيّام يعيش عند خاله بعد أن تُوفِّي جدّاه، ولم أقف على خبرٍ له منذ أكثر من عشرين عامًا (أسأل الله أن تكون الدّنيا قد رفِقَتْ بك يا صديقي).

قصة الرّجل الذي يحمل مجلدات (أدب العالم) من صندوق بريده إلى شقّته، حتى ضاقت بها شُقّته، ولم تعد تتسع لمجلد آخر=كتبها زُوران جيكوفيتش الأستاذ بجامعة بلغراد–صربيا. وهي ترمز إلى تراكم المعرفة عبر السّنين من الثّقافة الإنسانية (أدب العالم)؛ والكتاب هو أداة المعرفة،

ولا بدّ من أن يجلب الإنسان يومًا بعد يوم كتابًا إلى بيته؛ إذا أراد أن يتّصل بالمعرفة.

وترمز كذلك إلى ولادة (المكتبة المنزلية)؛ إذ تبدأ بمجلد ثم آخر، وهكذا تزحف الكتب داخل البيت، وكأنّها كائنٌ حيٌّ، فتتسلق الجُدران، حتى تبلغ السّقف، ثم تنتقل من جدار إلى آخر، ومن غرفةٍ إلى أخرى. ولا تكتفي بذلك، فتضطر أن تُفْرِغ بعض المساحات وتتلخص من بعض الكتب حتى تتيح مساحاتها لكتب جديدة، وهكذا تظلّ في نُموّ لا يتوقف، وتمدد لا ينتهي.

أمّا لغز السلالم؛ فكأنه يرمز إلى الأسئلة التي في هذا العالم، ولا توجد إجاباتها في (أدب العالم)، مثل: الموت، والبعث، والحياة الأخرى.

نشر زُوران جيكوفيتش مجموعته القصصية باسم (المكتبة)، وكلّها تدور في هذا الفلك (عالم الكتب والمكتبات): المكتبة الافتراضية، المكتبة المنزلية، المكتبة الليلية، مكتبة الجحيم، أصغر مكتبة، المكتبة النفيسة. وقد صدرت النسخة العربية عن دار أثر، بالدّمام، ترجمة: نوف ميمون (120 صفحة).

وتعدّ من الكتب التي تقرأها مرة واثنتين وثلاثًا، ثم تعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا. وتوصي بها وأنت ممتلئ بالإثارة وكأنك سوف تعيش مع القارئ دَهْشة القراءة الأولى. فهي مليئة بالأفكار العميقة حول الكتب والمعرفة.

الأحد 14 صفر – 13 أكتوبر

وجه القمر

قبل سنتين على وجه التّحديد، وفي مثل هذه الليالي المقمرة من شهر صفر، تعرَّفت على صديقٍ. لم أتحدث معه في لقائنا الأوّل، ولكني شعرتُ به.

ابتدأ هذا الأمر عند خروجك مع سفيان في 10 محرم عام 1439، أحسستُ بفراغٍ موجعٍ بداخلي، أردتُ أن أتحدث إليك بشأنه، ولكني أفقدُ كلماتي حين أسمع صوتك، فأتكلم معك لكن دون صوت، وأبوحُ دون شجن. وبرغم أنَّ الوجع يعظمُ بداخلي، غير أنّي لم أستطع أن أكتب فيك كلمة واحدة.

ذهبتُ إلى البحر، وجلستُ في منطقة قريبة من منتجع القطّان، كان القمرُ بدرًا، والأمواج تتكسر على الصّخور بقوّة. افترشت الصّخور، واستلقيتُ على ظهري، وجلست أنظر إلى وجه القمر، وقطرات الأمواج الهادرة تبلل ذاكرتي.

ما قادني إلى شاطئ البحر هو صورة شعرية حكاها لي صديقي أبو سعيد مصطفى إيتيم، كنّا على طريق مكة–المدينة قُبيل الفجر، وكان القمر بدرًا، فقال: جئتُ إلى المدينة للدّراسة في الجامعة الإسلامية وقد ناهزت الاحتلام، وكنت أصغر إخوتي، فكانت أمِّي بالجزائر تقول لإخوتي: هذا القمر هو الذي يجمعني بياسين، هو يناظره، وأنا أناظره.

اختزنتْ هذه الصّورة الشِّعرية لمقالة والدة أخي ياسين (اسمه مصطفى، وينادونه في قريته ياسين)= في الذّاكرة، وصارت بعد سفرك حاضرةً في وجداني، فقادتني تلك الليلة إلى الشّاطئ، كنتُ أنظر إلى القمر، وأخاطبك: الآن، أنا وأنت يجمعنا وجه القمر.

بعد لحظات بدأتُ أشعرُ أني لستُ وحيدًا في هذه الظلمة، وأنَّ هناك شخصًا بجواري يشاركني ضوء القمر، أسمع هسيس صدره، ولا أرى له ظِلًّا. شعرتُ أنّه هناك من أجلي، ولكنه لا يريد أن يقطع عليَّ ما أنا فيه. مضتِ السَّاعات وأنا أطيل النّظر في القمر تَنِدُّ منِّي الزّفرة بعد الزّفرة، وهو ساكنٌ بجواري. ثمّ قمتُ لأدرك صلاة الفجر في مكة.

بعد عدّة ليالٍ عدّتُ إلى الشَّاطئ وجلستُ في المكان ذاته تحت ضوء القمر الذي ضاعت استدارته، غير أنّه ما زال يجمعنا أنا وأنت تحت ضوئه، يضيء وجهينا في وقتٍ واحد. بعد هزيعٍ من الليل رأيتُه جالسًا

بجواري متربعًا، ينظرُ إلى البحر، ودون أن يلتفت إليَّ قال: ما الذي يحملك على الجلوس هنا وحدك؟

- أردتُ الخلوة بالقمر.

- تستطيع أن تخلو به في غار حراء.

-ذلك المكان مسكون بذكرى مقدسة لا تُزاحم.

- والبحر؟

- البحر النّاس فيه سواء، وكذا القمر.

- لم أشأ أن أزعجك الليلة الماضية.

- شعرتُ بك دون أن تفزِع نفسي، فعلمتُ أنك لا تضمر سوءًا.

- لقد شعرتُ بوحشتك، فأردتُ أن أكون أنيسك. ولو التفتَّ إليَّ كما فعلتَ الليلة لحدَّثتُك. ولكنك لم تفعل.

- شكرًا لك. كنتُ بحاجة إلى الصّمت.

- ماذا يوجد في الطرف الآخر؟

- ابني مالك.

– ظننتُك تناجي القمر مثل الرّافعي مع مي زيادة في (حديث القمر).

– لا، لستُ كذلك، وبالمناسبة الرّافعي في (حديث القمر)، لم يكن يناجي مي زيادة.

– من كانت إذن؟

– يشير سعيد العريان في كتابه (حياة الرّافعي) إلى امرأة اسمها (ليلى)، شاعرة لبنانية، عرفها في جبل (بحمدون) بلبنان.

– ما رأيك في (حديث القمر)؟

– رأيي الشّخصي أنّه أجمل كتبه الأربعة التي كتبها في (فلسفة الحبّ)، أعني: حديث القمر، وأوراق الورد، والسّحاب الأحمر، ورسائل الأحزان.

– وحديثه في الحبّ؟

– كان الرّافعي بحاجة إلى الحبّ ليكتب عن الحبَّ، فتوهّمه في ليلى ومي زيادة، حبّ من طرف واحد، رأي شخصي، لا تذهب به بعيدًا.

– وأنتَ ومالك ما شأنكما؟

– لقد كان ابني هذا يقول لوالدته وهو صغير: أبي يحب سفيان أكثر منِّي. وبقدر ما آلمتني هذه العبارة في وقتها، إلا أنِّي لا ألوم طفلا يقرأ تعابير الوجه، ويفطن لجرس الكلمة وسياقها ووقعها، كيف أصادر مشاعره، وألومه فيها. حاولتُ أن أثبتَ له أنّه ليس دون أخيه في المنزلة فعلا وليس قولًا. ولكني أخشى أنَّ خروجه بهذه الطّريقة، رسّخت قناعاته القديمة وهو طفل.

– ماذا تعني بخروجه بهذه الطريقة؟

– هذه قصّة طويلة، والليلُ يمضي، وأنا جئت ألتمس الصّمت في هذه الخلوة، فهل نؤجل تتمة الحديث إلى وقتٍ آخر.

خيّم الصّمتُ علينا بعد أن هدأت (مواطير القطّان)، ولم نعد نسمع سوى صوت تكسّر الأمواج، وخشخشة قطّة عند بقايا عشائي.

لقد كان ما يؤرقني ويؤلّم معدتي في ذكرى خروجك يا مالك: أن تشعر أني استعجلتُ عليك، ولم أمهلك وقتًا كافيًا لتختار طريقك بهدوء، ولم أترك لك عدَّة خيارات. كنتُ أخشى أن تقول: ألقاني أبي في اليم مكتوف اليدين، وقال: لا تبتلَّ يا ولدي.

كنت أعلم أنّك تعلمُ حبِّي لك، ولكن كان يؤلمني أن تترسخ لديك فكرة= أنِّي أحبُّ أخاك أكثر منك.

مالك، يا ولدي ..

أسترجع تلك الليالي وأنا أرقبُ بكل فخر نجاحاتك وإنجازاتك الشّخصية، وأتابع قناتك الإنجليزية على (اليوتيوب)، كنتُ واثقًا من قدرتك على التأقلم مع مجتمعك الجديد. وأنك ستخطو فيه خطوات واسعة، لقد قلتُ لوالدتك ونحن في صالة المطار لوداعك: لا تخافي على مالك، هل ترين هؤلاء الشّباب الذين ملؤوا الصّالة، إنهم يعرفون سفيان، ولكنهم أصحاب مالك. في سطح سكني افترشت الأرض بعد أن أطفأتُ الأنوار، وجلست أرقب القمر، لم أعد إلى الشّاطئ بمفردي بعد تلك الليلة، ولم أتمَّ ذلك الحديث، ولو أعلم رقم جوالك يا صديقي؛ لأرسلت إليك رابط هذه الجدارية على (الواتس آب).

هذا القمر .. يجمعنا، إذا نظرتُم إليه؛ تذكروا أنِّي في الطرف الآخر، أنظر إليه!!

الإثنين 15 صفر – 14 أكتوبر

حدِّثني عن يومك يا أبي!!

كان يحلو لي إذا سمعتُ صوتَك وأنتَ تغادرُ الشُّقة فجرًا؛ أن أقف في الشُّرفة أتأمّلك وأنت تمشي في ساحة المجمع غاديًا إلى معهدك. ولا تزال هذه الصُّورة الحيّة تحضرُ في ذاكرتي كلّما رأيتُ طالبًا في ساعات الفجر الأولى وحقيبته على ظهره، وكأنّ نافذةً فُتحت أمامي، وكأنّ إطلالتها تفضي إلى ساحة مجمعنا السّكني، فأبصرك تخطو فيها.

بعد أن تغيب عن ناظري خارج إطار السّاحة، أتخيّل مسيرك إلى ناصية الشّارِع، حيث تستقلّ حافلة إلى وسط بانكوك، ومن هناك تركب حافلة أخرى إلى طرفٍ من أطرافها حيث المعهد الإسلامي الثّانوي. وقُبيل المغرب أعاين قلقَ ماما من أن تغفو في الحافلة وأنت عائد، ولا تتدارك أمرَك إلا وقد ابتعدتْ بك الحافلة. فلا تزال تتصل على هاتفك المحمول، ويعظمُ قلقُها عليك إذا تأخرتَ عن موعد وصولك المعتاد وهاتفك خارجِ التّغطية. وكانت نفسي تذوبُ لها؛ إذ أدرك أنّ هذا حالها كلّ يوم.

أذكرُ أنَّ أخاك مالكًا اتّصل بي قبل أكثر من شهر، يستشيرني أن يعطيك دراجته النّارية القديمة؛ لتغدو بها وتروح. فأرجعتُ الأمرَ في ذلك إلى حسن تقديره فيك، فهو أعلم بك. ثمّ طويتُ هذا الأمر، ولم أسأل عنه، هل لا زلتَ تغدو وتروح بالحافلات، أم بالدّراجة النّارية؟ ولا تسألني لماذا؟ بعضُ التّغافل يا ولدي أرفق بالقلب، وأسلى للفؤاد.

ليس لديَّ الكثير لأحكيه لك عن يومي، فأستطيع أن أوجزه لك في خمسة أسطر، فبعد صلاة الفجر أبقى ساعةً أقرأ وِرْدًا، وفي كثير من الأحيان أُغْلَبُ عليه. ثم أعود إلى النَّوم ساعةً أو أكثر، ثم أنزل إلى مكتبي، ولا يستغرق ذلك مني سوى ثلاث دقائق. وأبقى فيه كلّ ساعات النَّهار، تتخللها أوقات الرّاحة والغداء والاسترخاء، ثم أصعد إلى غرفتي بعد العاشرة ليلًا، وأظلّ هناك أقرأ حتّى يغلبني النّوم.

الحياة مليئة بالمفاجآت يا ولدي، وأنتَ إذا سارَتْ حياتك كما تخطط لها، وشرعتَ في مشروعك المهني، عليك في المقابل أن يكون لديك مشروعٌ ثقافيٌ صغيرٌ، لا يجب أن تعيش خارج دائرة القراءة؛ ستحتاج إلى المعرفة ولا شكّ، لا بدّ لكلّ إنسان من كتابٍ مفضّل لا يملّ من قراءته، كما أنّ له أغنيته المفضّلة أو نشيده المفضّل أو قصيدته المفضّلة التي لا يملّ سماعها، ولا إنشادها. لا بدّ من فُسحةٍ للرّوح، تتحرر فيها إلى

عوالم افتراضية لا حدود لها، ولا سقف. حيث كلّ شيءٍ فيها ممكن، وكلّ شيءٍ فيها متاح!!

وحتى تستطيع أن تجد إجابةً لهذا السّؤال الذي لا بدّ أن يُلقى عليك يومًا= أقترِح عليك إعداد قائمتك الخاصّة لقراءة اثني عشر كتابًا خلال عامك الشّمسي القادم. كتابٌ كلّ شهر، ليس بالكثير، ولكنه كذلك ليس قدرًا يُستهان به. قد تجد كتابك المفضّل في هذه القائمة.

عليك أن تفكّر في الأمر بجديّة؛ واعلم أنّ العلم والمعرفة لا علاقة لهما بطريقة كسبك لمعيشتك؛ فقديمًا كان العلماء لديهم مهنٌ يرتزقون بها، فكان أبو حنيفة النّعمان إمام المذهب بزّازًا يبيع ويشتري في الأقمشة، ولذلك اشتهر أهل العلم والفضل بالألقاب التي تدلّ على مهنهم التي يقومون بها على عيالهم؛ كالقزّاز والرّزّاز والذّهبي والإسكافي والقفّال والصّائغ والدّهان والزّجاج والزّيات والبقّال والحَلَواني.

نعم، الحلواني؛ أجزم أنّ هذا اللقب أثار انتباهك، وشدَّك، لكن لا يختلط عليك هذا الاسم بعدد كبير من أئمة الحديث الذين اشتهروا بالحُلْواني، نسبةً إلى حُلْوان بلدة بالعراق. وكان من أشهرهم شيخ البخاري ومسلم أبو علي الحسن بن عليّ الحُلواني.

أنتَ مهتمٌ بالحَلَواني الذي يُنسب إلى عمل الحَلوى وبيعه، ويقال له أيضًا: الحَلَوائي نسبةً إلى الحَلْواء كذلك. وقد اشتهر منهم عددٌ من أئمة الحديث والفقه، وقد ذكر الإمام أبو المظفر السَّمعانيُّ في كتابه (الأنساب) جملةً منهم.

أرأيت!! لقد كان في أهل صناعتك مَن أسهموا إسهامات كبيرة في العلم والفكر والثّقافة.

الذي أريد أن أختم به حديثي يا أحمد: أنّه آن الأوان أن تعدّ قائمتك الخاصّة بالقراءة للعام القادم. وتأكد أنّ القراءة سوف تغيّر حياتك إلى الأفضل، وتجعل لساعات يومك قيمةً أكثر.

وصدقًا .. إنّ حبّك للقراءة سيجعل لحلوياتك مذاقًا ساحرًا، فقط تذكر دومًا: أن تضع كتابًا بجوارك. وهذه الجملة الأخيرة ليست خاصّة بك، وإن كان الحديث موجّهًا إليك.

لقد سررتُ باتّصالك، وسماع صوتك، تصبح على خير يا قطعة سُكّر.

الثلاثاء 16 صفر – 15 أكتوبر

رَقَّ طَبْعُه!!

كتبتُ في السّابق عدّة مراجعات لبعض الكتب التي تركت أثرًا في نفسي، وكثيرٌ من تلك المراجعات ذهبت في الفضاء الإلكتروني، وبقيت منها بقيّة صالحة مكتوبة بصيغة (**word**). في تلك المراجعات ما يهمّني أن تُعنوا –يا أبنائي– بقراءتها يومًا، وتُفيدوا منها. وما أعيد نشرَه هنا هو ممّا اخترتُه لكم.

ومن ذلك: هذا الكتاب العجيب الذي يعبِّر عن رحلة شاقّة وطويلة في سبيل العلم، رحلة ترى فيها الإخلاص والبذل والتّضحية، فأينعت في صور شتّى، ومنها هذا الكتاب الذي أقدِّمه لكم (العرب من وِجهة نظر يابانية).

العجيب أنّ هذا الكتاب ليس مترجمًا عن اليابانية إلى العربية، فقد كُتِب بقلم ياباني خالص، بذل للعرب والعربية أربعين عامًا من عمره. كتبه: نوبوأكي نوتوهارا، وصدرت طبعته الأولى عام 2003، عن دار الجمل، ببيروت.

في البدء يتحدث المؤلِّف عن أحقيته في تقديم رأيه عن العرب ومجتمعاتهم، كونه أعطاهم أكثر من أربعين عامًا من عمره؛ تعلمًا للغتهم، ومعايشة لمجتمعاتهم في حاضرة مصر وأريافها، ومدنية سوريا وباديتها، وقرى حضرموت وسواحلها، وشواطئ المغرب العربي وصحرائها.

وقد عانى كثيرًا في فهم هذه المجتمعات العربية، بسبب اختلاف الثقافة العربية واليابانية، واستعصى عليه فهمُ أمور كثيرة عبّر عنها بعبارات صريحة واضحة المقارنة بين المجتمعين:

- لا أفهم لماذا يبقى الرَّئيس رئيسًا والقائد قائدًا حتى يموت؟
- لا أفهم لماذا يكثر العرب من استعمال كلمة (الديمقراطية) وهي غير موجودة في حياتهم؟
- لا أفهم لماذا يجب أن يحتقر الموظف المواطن الذي يقف على مكتبه؟
- لا أفهم لماذا العرب يكررون أخطاءهم، ولا يتعلمون منها؟
- لا أفهم لماذا يضحي المفكِّر العربي بنفسه من أجل شعبه، بينما الشعوب العربية تضحي بهم؟
- الشُّعوب العربية تعيش في توتر دائم لغياب العدالة الاجتماعية في حياتهم.

- الشُّعوب العربية تدمر الممتلكات العامة؛ لأنها تعتقد أنها ملك لحكوماتِها.

- الشُّعوب العربية شعوب تعيش تحت القمع والمنع.

ونوبوأكي يقدم في كتابه هذا قراءاتٍ عميقةً لأدب عدد من الكُتّاب المفكرين والمناضلين العرب، وهو لا يفتتن إلا بمَن يسميهم بـ (الكاتب الموقف)، أي: الكاتب المخلص لأفكاره وقيمه ومبادئه، الذي يحمل فكرة وهدفًا وغاية ورسالة. ويبتعد عن الكاتب الذي يلمس منه عدم إخلاص في أدبه.

فقدّم قراءاته لغسان كنفاني، وكيف أنه استطاع أن يفهم القضية الفلسطينية بعد أن قرأ روايته (عائد إلى حيفا)، فترجمها إلى اليابانية لينقل الصُّورة المغايرة لما تبثُّه وسائل الإعلام الغربية. ثمّ قرأ أعماله الكاملة.

وقدّم قراءاته لإبراهيم الكوني الكاتب الليبي من قبيلة الطوارق، والذي جلّى له حياة الصحراء في رواياته عن قبائل الطوارق .. وكيف لخَّص حياة الصحراء في كلمة واحدة، وهي: المطلق. وأبان عن المعنى العميق لهذه الكلمة وارتباطها بالصحراء.

وقدّم قراءاته لعبد اللطيف اللعبي التونسي الذي مكّنه من فهم الممارسات القمعية في البلاد العربية.

وقدّم قراءاته لروايات يوسف إدريس الذي جعله يفهم الحياة المصرية في حواضرها وأريافها، وكتب كتابه عن المجتمع المصري باليابانية: (أين المصريون؟).

وقد نقل جميع هؤلاء الكُتّاب إلى الثقافة اليابانية عن طريق ترجمة نتاجهم الأدبي والفكري، وعن طريق تدريسه لطلبته في جامعة طوكيو في كلية اللسانيات قسم اللغة العربية.

هذا الياباني قرأ الأدب العربي من الخارج، وعاشه من الداخل.

ثم ماذا ..

هذا الياباني .. درس العرب ولكنه لم يدرس الإسلام، ولذلك لم يوفّق إليه. وتلك القضايا التي لم يستطع أن يفهمها، وبقيت عالقة في ذهنه= لأنّه يغيبُ عنه: أنّ العقيدة إذا وقرت في القلب ظهر أثر ذلك في السّلوك قوّة وضعفًا، وأنّ المفكّر العربي أو غيره الذي يضحي من أجل شعب لا يؤمن به= يفعل ذلك؛ لأنّه يؤمن بنفسه ويؤمن بعظمة أفكاره، ولديه استعداد تامّ أن يسقي أفكارَه بدمائه لتخلُد. وأنّه إذا مات في سبيل ذلك= بقيت أفكاره في ذاكرة شعبه، وأصبحت حيّةً بموته!!

أبنائي الأعزّاء، إنّ العربية التي خرجتم بها من مكة؛ هي العربية التي تجعل الواحد منكم يستطيع أن يتواصل مع أي شخص من العالم العربي الممتد من الخليج إلى المحيط. ولكنها ليست العربية التي يقول عنها الشّافعي: من نظر في العربية (أي: تعلّمها) رقّ طبعُه.

العربية ليست مجرّد لسان، وإنّما هي منطقُ العقل؛ ففيها رِقّة ودِقّة وخِفَّة ولطافة وعُذوبة. إنّها العربية التي لم يولد نوتوهارا بها، ولكنه تعلّمها، ودرس تراثها الأدبي، وعاشها، وتذوّقها.

هذه العربية التي تجدونها في قراءة دواوين الشّعر القديمة والحديثة، وقصص الأدب القديم والحديث. وإذا رقّ طبعُ الإنسان= صار أكثر إنسانية (الله أعلمُ حيث يجعل رسالته)، (وإنّما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق).

إنّها العربية التي تستطيع من خلالها –يا توفيق– أن تعرف كيف كانت العربُ تفكّر، وكيف كانت تعبِّر عن فكرها؟! وعلى ضوء هذه الأفكار الجدارية؛ أتوقّع أن زيارتي القادمة لكم ستكون مثيرة!!

الأربعاء 17 صفر – 16 أكتوبر

ابحث عن الشّغف!!

بدأتُ هذا اليوم بدايةً طيّبة؛ إذ وجدتُ تعليقًا من ابني أحمد يُبدي فيه بجمل قصيرة دهشته من عشقي للكتابة، وسعادته بما أكتبه، وأنَّه بدأ يتتبع التّدوينات السّابقة، ويقرؤها بحبّ. وأظنُّ أنّ ذلك ابتدأ بتوجيهٍ من سفيان أو مالك إلى التّدوينات التي كانت موجَّهة له. سررتُ بكلماته المتواضعة التي تدعوني إلى الاستمرار في الكتابة، وكم كنتُ بحاجة لمثل هذه الكلمات، ومنه على وجه الخصوص.

أذكر أوّل ثناءٍ حصلتُ عليه في مادة الإنشاء؛ كان ذلك في الصّف الرّابع الابتدائي، طلب منّا الأستاذ محمّد علي صحّاف (رحمه الله) أن نكتب موضوعًا إنشائيًا عن فصل الرّبيع.

وأنتم تعرفون أنَّ الربيع في مكة ربيعان: ربيع الأوّل وربيع الآخر؛ شهران متعاقبان، يأتيان بعد شهر صفر، ويبلغ مجموع أيامهما معًا تسعةً

وخمسين يومًا، أحدهما تامّ والآخر ناقص، وهما شهران قد يأتيان في الصّيف، وقد يأتيان في الشّتاء.

ولكنهما لا يختصّان بهذه السّمات دون بقيّة الشّهور القمرية، فكل الشّهور القمرية في هذا سواء. فلا نميّز ربيعًا، ولا نعرف خريفًا.

وأصبح الرّبيع واجبًا مدرسيًّا، والضّرب في أيّامنا كان وسيلةً من وسائل التربية في (التعليم)، فكل منسوبي المدرسة يحملُون أداةً للضرب، بدءًا من البوّاب ومرورًا بالسّاعي إلى أن تصل إلى قمة السُّلم الإداري مدير المدرسة، وحتى عامل المقصف المدرسي يحقّ له أن يضربك لسببٍ ما، بل بلغ أثر هذه الوسيلة التربوية المتفشية في مدرستنا: أنّ عريف الفصل يتسلط على زملائه بالضّرب بالأداة ذاتها (الباكورة). وعدم القيام بواجباتك المدرسية أحد استحقاقات هذه الوسيلة التربوية.

خلاصة القول واختصارًا له: عمدتُ إلى كتاب (المطالعة) للصفّ الخامس الابتدائي، فسلختُ منه موضوعًا عن (الرّبيع) من (أربع صفحات)، فجعلتُه في أقل من (صفحتين).

وقد صنعتُ هذا خوفًا من العقاب، ولكن دون أدنى شعور بالخوف من انكشاف الأمر؛ لأنّ أستاذنا لم يسبق له أنّ درّس الصّف الخامس.

فحصلتُ على كلمة (ممتاز)، وجملة ثناء غير متوقّعة، لا أذكرها، ولكني طرتُ بها فرحًا، وما تركتُ أحدًا من إخوتي إلا وجعلتُه يطالعها. لم أكن فخورًا بسرقتي الأدبية الأولى، ولكني كنتُ فخورًا بسعة حيلتي في التّخلص من العقاب.

وإذا تأمّلتم تلك الحادثة؛ فأستطيع أن أجادلكم في أنّها لم تكن سرقة أدبية، بل كانت تلخيصًا للموضوع الأصلي، أو قل إن شئتَ: حذفًا لجمل كثيرة منه، حتى صار في صفحة ونصف.

الشيء الوحيد الذي كنتُ أخشاه= هو أن يسألني الأستاذ محمّد علي، عن بعض المفردات الواردة في الموضوع الإنشائي، والتي لا يمكن أن تكون ضمن قاموس طالب في الصّف الرّابع الابتدائي.

لكن أستطيع القول أنّ تلك الكلمة التي كُتبت على (دفتر الإنشاء)، كانت عاملا مهمًا في إدراكي لأهميّة توظيف ما أقرؤه فيما أكتبه. ولذلك تجد أنّ من ضمن المصطلحات الأدبية المعروفة: المحاكاة، والمعارضة، والاقتباس، والاختصار، والتّهذيب.

وهي مصطلحات تتداول خارج إطار الذّم أو النّقد السّلبي، وكلّها تتطلب نصًّا يقوم عليه عمل هذه المصطلحات، فلا محاكاة إلا لنصّ

سابق، ولا معارضة ولا اقتباس ولا اختصار ولا تهذيب إلا لنصٍّ متقدم في الزّمن.

بدأتُ كذلك أهتم بالمبالغة وبالدّراما في كتابة الموضوعات الإنشائية المدرسية؛ أذكر أنّ الأستاذ حسن عبد المجيد أستاذ التّربية الفنية في (ثانوية الملك عبد العزيز)= وزّع على المجموعات التي يقوم بتدريسها استبانةً، لا أدري ما كان غرضه منها، وكنتُ وقتها أدرس عنده متطلبًا من المتطلبات (نظام السّاعات)، وكانت الإجابة عن هذه الاستبانة ضمن اختبار الدرجة النّهائية للمادة، ومن ضمن أسئلتها: كيف ترى العالم من حولك؟

وكنتُ في تلك الأيام أمرّ بأسوأ مرحلة من مراحل ما بعد المراهقة من اللامبالاة بكلّ شيء، فكتبتُ (فيما أذكر): أرى العالم من حولي بمنظار أسود، فكلّ ما أبصره كئيب.

لا أذكر عدد الزّملاء –على مدار أسبوعٍ كامل– الذين قالوا لي: الأستاذ حسن عبد المجيد يبحثُ عنك. الأستاذ حسن عبد المجيد يريدك أن تذهب إليه في مرسمه. فقررتُ أن أذهب إليه أخيرًا وأن أعترف له: أنَّ الجملة كانت من أجل إثارة العاطفة والحصول على درجة طيّبة. كان أستاذًا محترمًا وفنانًا، واستطاع أن يستخرج من الطّلاب أحسن ما

عندهم، وأقام معرضًا مدرسيًا للوحاتهم التي رسموها بقلم الرّصاص فقط، وظّفوا فيها الظِّلال.

وحين تأكّد من صدقي، وأنِّي لا أملك منظارًا أسود، ولا كل ما أبصره من حولي كئيب= صرفني، وأعطاني درجةً طيّبة، فرحمه الله رحمةً واسعة.

وأذكر أنّ الأستاذ شكري عبد الرؤوف شقيقي الأكبر؛ قرأ مرّة في دفتري الإنشائي في تلك المرحلة موضوعًا كتبته عن التّدخين، وفيه: إنّ المدخن تمرّ به لحظات ينظر إلى السّجارة كما ينظر الوثنيون إلى آلهتهم.

فنصحني أن أترك مثل هذه العبارات التي تعظّم من قدر التّدخين إلى جعله عقيدة وفكرة، وهو لا يخرج عن كونه عادة سيئة.

كنتُ ساذجًا، فتًى يقرأ شعر نزار قباني ومنى غزال وفاروق جويدة، ولكن بسطحية ودون عمق وفهم، ويقتبس منهم فكرةً أو أكثر، ليحبّر رسالةً إلى فتاة هو بها معجب. أو (فزعة) لأحد أصدقائه.

هذه أوراق مبعثرة من تجربتي المبكرة مع القلم –يا ولدي– ستجد أنّها مرتبطة دومًا بالقراءة، ثم تعقبها محاولات الكتابة.

حتى تكون كاتبًا؛ لا تحتاج إلى دورات في فن الكتابة عند من يُدرِّبك على مهاراتها، ويستنزف وقتك ومالك، وهو لا يُعرف بأنّه كاتب= وإنما

أنت بحاجة إلى أن تكون قارئًا جيّدًا، وأن تدمن الكتابة اليومية، حتى تجد نفسك في عوالمها، أو خارجِ أسوارها، فتقرر بنفسك أن تمضي، أو تتوقف.

ابحث بداخلك عن شغف الكتابة!!

الخميس 18 صفر – 17 أكتوبر

للّه درّهم!!

اجتمعنا بعد صلاة الجمعة عند شقيقتي أم فيصل (حفظها الله) بعد أن عادت من زيارتها لمحافظات جنوب تايلاند. كانت زيارة طيّبة مباركة، وَصَلَت فيه رحِمها من جهة والديها، فزارت كلّ مَن له حقٌّ عليها من أعمامها وأخوالها.

استمتعنا بمائدتها العامرة، واستمعنا إلى ظَرف حديثها مع رَشَفات شاي ابنها عزّوز، وكان زوجها أبو فيصل حاضرًا بحكاياته ونوادره. وامتدّ المجلس الماتع إلى أذان العصر.

كانت أم فيصل تناديني وأنا صغير بـ (دِينا)، وترسمني على كراساتها بشعر طويل، وقوام ممشوق، يسحب ذيل ثوبه الملوّن، الحقّ أنّها كانت ترسمنا جميعًا، ولكلّ واحدٍ منّا (النك نيم) الخاصّ به. وتغدق علينا من عطفها وحنانها، كانت أمًّا لإخوتها الصّغار.

في بعض الليالي كانت تمتد محاضراتها في الجامعة، فتصل حافلتها عند مدخل شعب عليّ في التّاسعة ليلًا، فتجدني واقفًا بانتظارها حتى أرافقها إلى البيت. وفي الغالب كان يرافقني صديقي صبري يعقوب السيامي، ليصحب شقيقته التي تصل في الحافلة نفسها. وكنّا قُبيل وصول الحافلة نخوض في أحاديث شتّى، وكان يتقدّمني بصفّ دراسي، فتًى يتوقّد ذكاءً، ويشتعل حماسةً؛ كان يذكر لي في تلك الأيّام (1404) أنّه يكتب مذكراته.

كنّا نتحلّق حول شقيقتي فور عودتها من الجامعة لتوزّع علينا حلوياتٍ تبتاعها أثناء عودتها، ولا أذكر أنّها خرقت عادتها يومًا. سحّاء اليد على فاقةٍ وحاجةٍ، نفسٌ كريمةٌ تقتطع من مصروفها اليومي وهي جَذْلَى.

في شهر شعبان من عام 1414 كنتُ أجهِّز شقّتي التي في ملحق سطح منزلنا، كنتُ حينها طالبًا بمعهد الحرم المكيّ الشّريف، ولم تكن عمّتكم أم فيصل قد توظّفت، كانت ربّة منزل، ورغم ذلك قامت بفرش الشّقة المكوّنة من غرفتين وصالة، باعت إسورتين من حُلِّيها لتُساهم في بناء عائلتنا، لم أكن على علم بذلك، تمّ الأمر بهدوء (دون ضجّة إعلامية) عن طريق عمّكم عثمان الذي لم يخبرني بحقيقة المال إلا بعد زمن.

هذه قصة من قصص كرمها معي، ولها مع كلّ واحدٍ منّا قصة وحكاية، وما زالت تصلنا ببرِّها وإحسانها، وما زلنا رغم السّنين إخوتها الصّغار.

ذكر بعضُ أهل العلم أنّ يوسف عليه السّلام لو كان له أختٌ لما رضيت بخطّة إخوتها في التّخلص من يوسف، وأنّها لو علمت بصنيعهم؛ لقصَّت أثرَه إلى البئر حتى تستنقذه منها، كما فعلت أختُ موسى عليه السلّام؛ قصّت أثرَ أخيها، وتتبعته حتى وصلت إلى قصر فرعون.

لم تنثر لكم ماما من بطنها أختًا، ولكنها وهبتكم من صدرها أختًا من الرّضاع، فاستوصوا بها خيرًا؛ فإنّ الأخت بركةٌ ورحمةٌ.

لِله درُّ فلان!!

الدَّرّ هو مصدر درّ الحليبُ درًّا، فالعربُ حين تقول للرّجل الدّاهية الباقعة (لِله درُّه)؛ فإنّها تتعجب ممّا بلغه من المنزلة والرِّفعة، وكأنّه رضع هذا الأمرَ الذي رفع من شأنه، يشيرون بذلك إلى دور المحضن الأوّل في التّربية، وهو الأمّ المدرسة الأولى.

ولذلك كانوا يتخيّرون المراضع لأبنائهم؛ لأنّ الحليب الذي يتغذّى منه الطّفل لا يترك أثرًا في بدنه فقط، بل وفي طباعه وسلوكه أيضًا.

وشقيقتي أم فيصل رُزِقت من زوجها إسحاق محمد فلمبان= سبعة أولاد، كلّهم ذكور: أبو إسحاق فيصل الذي استقرّ بولاية واشنطن، وأبو أُبي عمر، وأبو رِفاء محمّد، وعبد الله، والدكتور عبد الرحمن، وعبد العزيز، وعبد المجيد.

ممّا نشره ابني سفيان في يومياته على (السناب شات) في يوم ما: جهازه القديم (اللاب توب) الذي اصطحبه معه من مكة قبل ستّ سنوات، وقال يخاطب أصدقاءه في (السناب): أين المحسنون، أين الذين يكفلون طلاب العلم؟!!

وكلّ ذلك من باب (الاستهبال) اليومي الذي يمارسه على (السناب)؛ تفاجأ في اليوم نفسه باتصال من ابن عمّته محمّد فلمبان، وقال له: حوّلت لك 3000 ريال، عشان تشتري جهاز جديد، وإذا نقصك شيء؛ كلمني بدون استهبال.

وفي اليوم التّالي اتّصل به ابن عمّته عبد الله فلمبان، وقال له: أرسل لي صورة جوازك عشان أحوّل لك فلوس تشتري لاب توب. شكره سفيان، وأخبره أنّ أخاه محمدًا قام بالواجب.

وفي اليوم نفسه اتّصل به ابن عمّته عبد العزيز فلمبان، وقال له: أرسل لي صورة جوازك عشان أحوّل لك فلوس تشتري لاب توب. قال له سفيان: إنتم إيش قصّتكم!!

هؤلاء قصّتهم أنّهم .. أبناءُ عمَّتكم أمّ فيصل، لِله درّهم!!

الجمعة 19 صفر – 18 أكتوبر

شعب يوليو

أقومُ عادةً بعد أن أنتهي من الكتابة= بقراءة المقالة عدّة مرّات، أتمكّن خلالها من استدراك بعض الأخطاء الطّباعية التي يزل فيها (الكيبورد). وعادةً أستدرك أكثر تلك الأخطاء في القراءة الأولى للمقالة، ونادرًا ما أكتشف أيّ خطأ بعد هذه القراءة، فأنا بعد القراءة الأولى لا أقرأ بعين رأسي، وإنّما بقلبي، فلا أبصر الأخطاء، إن وُجِدَت.

يتعاهدني اثنان من طلّابي الذين قرؤوا عليّ قديمًا؛ أحدهما درّسته في صفوفه الدّراسية الأولى، ويزعمُ أنّي أنرتُ له السّبيل نحو العربية وعلومها. والآخرُ قرأ عليَّ متنًا من متون (النّحو) من الجلدة إلى الجلدة. ومعهما ثالثٌ قرأ عليَّ المتنَ نفسه، ولكنه في نفسي أجلّ من أن أدرجه ضمن طلّابي، فقد قمتُ بتصحيح تلاوتي عليه، فهو مجازٌ في القراءات العشرة. ومع هذين الاثنين اثنان آخران؛ قرؤوا عليّ متنًا استخلصتُه من كتاب (الكفاف) للدّكتور يوسف صيداوي (رحمه الله)، وسمّيته (قواعد الكفاف).

هـذان الاثنـان يقومـان باسـتدراك الأخطـاء اللغويـة والطّباعيـة في المقالـة، وتفوتهما أشياء أقف بنفسي عليها، أو ينبّهني إليها غيرهما. ومن الجدير بالذّكر أنّ هذين الاثنين قاما بمراجعة روايتي (رائحة المطاط) قبل طباعتها، واسـتدركا جملـةً مـن الأخطـاء اللغويـة والطّباعيـة في المسـودات الأولى للرّواية، وبعد الطّباعة وقفتُ في القراءة الأولى على أكثر من ثمانية عشر خطأً طباعيًّا، وقد فاتتهما معًا (كم ترك الأوّل للآخر).

فشـكر الله جهـدكما أيّهـا الفاضـلان، فهـو مـن الوفـاء الـذي مـن معدنـه لا يُستغربُ.

في الحياة عليك أن تكون مستعدًّا دومًا لتبادل الأدوار، وأن تعطي القلمَ الأحمـرَ الـذي اعتـدتَ أن تصـحِّح بـه أخطـاء الآخـرين؛ مَـن يصـحِّح أخطـاءك؛ حـتى وإن كنـتَ في يـومٍ مـا؛ كتبـتَ علـى دفـتره (شُـوهد، أو: نُظِر).

الحيـاة مسـرحٌ عظيـمٌ يتبـادلُ النّـاسُ فيـه الأدوار بصـفة مسـتمرّة، لتسـتمرّ الحياة؛ الصّغار يكبرون، والكبار يُردُّون إلى أرذل العُمُر. الموظفون يترقون، والمسـؤولون يتقاعـدون أو يُنحّـون. الأبُ يرعـى أبنـاءه، وغـدًا يحتـاج إلى رعايتهم. الأغنياء يفتقرون، والفقراء يغتنون. أمّا الأغبياء فيزدادون غباءً،

والحمقى يهلكون بحمقهم، والمثل المصري يقول: (ما تخفشِ من الهبلة، خَفْ من خِلْفِتْها).

عانى السُّود في (جنوب إفريقيا) تمييزًا عنصريًّا متوحشًا، انتزع منهم البيض الطّارئون على أرضهم كلّ الحقوق والامتيازات التي اختُصّوا بها كمواطنين في دولة إفريقية خالصة، دون أن يكون للإفريقيين أهل الأرض حقوق المواطنة التي للبيض (كوميديا سوداء، ومن البليّة ما يُضحك).

ولكن السّود في النّهاية ثاروا، واندلعت في (جنوب إفريقيا) الحروب الأهلية التي صبّت جام غضبها على كلّ ما هو أبيض. فأحرق كثيرٌ من الخدم السُّود منازل أسيادهم البيض، وروّعوهم، وقتّلوهم، واضطروا المدنيّين منهم أن يتركوا منازلهم، ويفرّوا بأنفسهم وأولادهم.

من وحي هذه الأحداث تحكي نادين جورديمر في روايتها (شعب يوليو) حكاية عائلة من مواطني جنوب إفريقيا البيض. فرّت هذه العائلة من جحيم هذه الحروب الأهلية بمساعدة خادمهم الأسود (يوليو)، الذي قضى في خدمتهم خمسة عشر عامًا. وذهب بهم إلى قريته، وأسكنهم في كوخ قديم لوالدته.

تدور أحداث هذه الرّواية في وصف تبدّل الأدوار الذي حصل بين يوليو وأفراد هذه العائلة المكوّنة من ربّ الأسرة المهندس المعماري وزوجه وأبنائه الصّغار الثّلاثة، وكيف تغيّرت طريقتهم في الحياة. بدايةً باختلاط أبناء الأسرة في محيط أفراد قبيلة يوليو الإفريقية، فصار فيكتور الابن يختلط بلِداته من أطفال القبيلة يتعلّم منهم كيف يحيا حياتهم، دون أن يشعر أنّه يمتاز عنهم ببياض بشرته أو شُقرة شعره. وهو أمرٌ لم يكن ليتصوّر أحدٌ حدُوثه في المدينة التي جاء منها. وابنتهم الصّغيرة التي التصقت بأحد أطفال القرية، وصارت تصطحبه في كل مكان تذهب إليه، وتعدّه صديقها الحميم، الذي تدافع عنه على هذا الأساس. ولو حصل هذا في وقتٍ سابقٍ في المدينة؛ لعُلِّق هذا الصّغير من أصابع قدميه.

وعلى الرّغم من أنّ الخادم (يوليو) كان يؤويهم في قريته من باب الالتزام الأدبي الذي فرضته تلك السّنوات الخمس عشرة التي قضاها في خدمتهم، إلا أنّ المهندس المعماري وزوجه قد أخذا وقتًا حتى يستوعبا أنّ الأدوار قد تبدّلت، ولم يعد يوليو ملزمًا بخدمتهم، فهو صاحب الرّقم (واحد) في هذه القرية، بينما هم مجرّد أرقام لا أهمية لها.

ومع تبدّل هذه الأدوار، تغيّرت النّفوس، وأصبح المهندس المعماري الآمر والنّاهي في يوم ما، يُسلِّم يومًا بعد يوم أنّه في هذه القرية السّوداء

التي لا يستطيع مغادرتها= عديم الجدوى قليل الحيلة. وصارت زوجه (مورين) تنظر إلى (يوليو) في مملكته نظرة مختلفة، لم يعد أمامها مجرّد خادم، بل سيّدًا، له نفوذه وسحره وجاذبيته. الرّواية ليست عبقرية، ولكنها إنسانية.

نالت الكاتبة (نادين جورديمر) عام 1991جائزة نوبل للأدب، وهي جائزة نوبل للأدب الثّالثة التي تفوز بها إفريقيا بعد النيجري وول سونيكا عام 1986، والمصري نجيب محفوظ عام 1988. وصدرت النّسخة العربية من روايتها بترجمة أحمد هريدي، عام 1994، عن الدّار المصرية اللبنانية–القاهرة.

عاشت (نادين) حياتها وهي تحمل على التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، وتناصر مطالب السُّود لنيل حقوقهم الدّستورية. وكانت تجاهر بهذه الأفكار في أعمالها الأدبية التي تنوّعت بين مجموعات قصصية قصيرة، وروايات، ومقالات.

ولعلّ هذه الأفكار الإنسانية توّجتها لنيل جائزة نوبل وغيرها من الجوائز. وهذا ليس جدالا في أحقيتها لجائزة نوبل، بل محاولة لفهم السُّؤال الذي يلحّ على لجنة التّرشيحات لهذه الجائزة العالمية الأولى في عالم الرّواية،

وهو: هل تذهب هذه الجائزة إلى أدباء لأجل أدبهم، أم لأجل أفكارهم وأيديولوجياتهم؟

سرّرتُ باتّصالك يا مالك، وسماع صوتك. وعذرًا يا سفيان، فمع أنّ الوقتَ كان ضُحًى، إلا أنِّي كنتُ نائمًا (اليوم سبت، ما عندنا دوام).

السبت 20 صفر – 19 أكتوبر

بدون عنوان

اقترِح عليَّ غيرُ واحدٍ من القُرّاء أن أجعل هذه المدوّنة أسبوعية، وأن أخرج من الالتزام بالكتابة اليومية. وأنّ هذا أسهل على القُرّاء المتابعين حتى لا يملّوا، ويفقدوا حماستهم في متابعتي.

إنّ الاستجابة لهذا الاقتراح معناه: أنّي لم أعد أكتب لنفسي ولا لأبنائي، وإنّما أكتب للنّاس. وأنّه بات يهمني أن تكون لديّ قاعدة من القُرّاء المتابعين، والأمر في حقيقته ليس كذلك. فأنا إنّما أكتب لنفسي، أكتب لملء الفراغ العاطفي الذي أحسّه في وحدتي. حين تدقّ السّاعة العاشرة ليلا أصعد إلى غرفتي، فأعلق ثيابي، وأطفئ الأنوار، ما عدا المصباح الذي بجانب سريري، ثم أجلس إلى الحاسوب، وأدوِّن أحداث يومي. ثمّ أكتب ما أريد أن أشارك به أبنائي ممّا أُراه يفيدهم وينفعهم، ويثير حماستهم، ويُطلق أفكارهم، نبحث لأرواحنا عن مكان تستروح فيه، ولا يشغلني في مجلسي ذلك، ويذهلني عمّا أنا فيه إلا فراشتان تعانقان المصباح العاري.

الشّأن فقط: أنّي علّقتُ ما كتبته على جدار فضائي، بإمكان أي شخص أن يعثر به، ويقف عليه. وأشرف حقيقة بكلّ المتابعين الفضلاء الذين يقرؤون هذه الجداريات، وبخاصّة الذين يتفاعلون معها بكتابة تعليقاتهم عليها.

وأنا أجزم بأنَّ هذا الجدار الفضائي قد عثر به عددٌ من الذين لم يُعجبوا بمحتواه، وكتبوا آراءهم السّلبية عنه؛ لأنّ موقع (ووردبريس) المضيف لهذه الجداريات: يقوم بفلترة التعليقات المزعجة التي تتضمن مفردات خارجة عن حدود الذوق في قاموسه، ويتخلص منها بمجرد أن يتلقاها. وقد وجدت في (الإحصاءات) التي يبرزها (لوحة التّحكم) أنّه تخلّص من أكثر من 149 تعليقًا وصفها بالمزعجة، ولم يمكِّني من قراءتها.

من فوائد الكتابة اليومية التي بدأت أحسّها في نفسي= الشّغف بالكتابة، وهو شيء بحثتُ عنه طويلا دون جدوى. والآن بدأتُ أحسّه يمسّني مسًّا، دون أن يتمكّن من أن يكون شعورًا داخليًّا مستقرًّا، كهبّات النّسيم في الهاجرة، أو بتعبير أصدق؛ كلحظة مرورك أمام أحد أبواب توسعة الحرم الجديدة في ظهيرة مكّة.

ومن الأشياء التي ظهرت على السّطح مؤخّرًا: سؤالُ عددٍ من خاصّة إخواني أن أقوم بطباعة متن (قواعد الكفاف) الذي أشرتُ إليه في

التّدوينة السّابقة، وهذا اقتراحٌ قديم، وقد ظلّ طي النّسيان طيلة السّنوات العشرين السّابقة؛ حتى ظهر على السّطح البارحة.

ولا زلتُ أعتقد أنّ (قواعد الكفاف) يصلح أن يُتداول بين المعتنين بدارسة قواعد اللغة العربية، وليس له أن يذهب أبعد من ذلك؛ لأنّه لا يعدو أن يكون جهدًا لا يُذكر في استخلاص قواعد منثورة في الكتاب الأصل (الكفاف)، والذي يستطيع أيّ أحدٍ لديه عناية بعلم النّحو أن يقوم به. وقد قمتُ به في تلك الأيّام من أجل الإخوة الذين كانوا يقصدون منزلي لمدارسة النّحو؛ فالمتون العلمية هي بوابة كل العلوم، ولا بدّ لطالب العلم الذي يريد أن يبرع في علم من العلوم= من متنٍ يدرسه.

والدكتور يوسف الصّيداوي (رحمه الله) في كتابه (الكفاف) ثار ثورةً على قضية (تيسير النّحو)، وقال: إنّ النّحو فلسفة، والفلسفة لا تقيم اللّسان، وإنّما الذي يقيم اللّسان هو قواعد اللغة العربية، والتّدرب على أساليب العرب في الكلام. ثم بذل جهده وعصر فكره وأعاد صياغة قواعد لكلّ أبواب النّحو، ورتّب تلك الأبواب على حروف المعجم، وهي قواعد كفيلة بتقويم لسان من يعتني بها.

فكانت تلك القواعد جديرة بأن تستلّ، وترتّب على أبواب النّحو، وتبذل لطلبة العلم، كمتن في علم النّحو، وهو ما صنعتُه، ويستطيع أي أستاذ للنّحو أن يصنعه كمذكرة لتدريس اللغة العربية، وليس ككتاب يُطبع، ويُتَأكّل به من علم الصّيداوي (رحمه الله). بل يجب أن يظلّ كتابه (الكفاف) مرجعًا لمن أراد استيعاب القواعد التي صاغها في ضوء مناقشاته التي أفردها لتلك القواعد.

عودًا إلى الحديث عن أهمية المتون العلمية ..

لا أزال أذكر سؤالا وُجِّه إلى شيخنا محمد الخضر الناجي الشّنقيطي رحمه الله تعالى عن أمثل كتاب في التفسير لمن أراد دراسته من طلبة العلم، فأجاب شيخنا (رحمه الله تعالى) إجابةً عَلِقت في ذهني إلى يومي هذا، قال: إذا أردتَ كتابًا في التّفسير لتقرأه بينك وبين نفسك أو مع إخوانك وزملائك؛ فعليك بتفسير ابن كثير أو تفسير ابن جرير أو تفسير السّعدي. أمّا إذا أردتَ كتابًا لتقرأه على شيخ؛ فعليك بـ (تفسير الجلالين).

أدركتُ أنّ شيخنا (رحمه الله) ينظر إلى (الجلالين) على أنّه متنٌ من متون التّفسير، ولا أزال مذ ذلك اليوم شديد العناية والاحتفاء بتفسير الجلالين= أديم النّظر فيه وفي حاشية الجمل (الفتوحات الإلهية).

إنّ الشّرح يكون على المتن؛ والشّرح لا يمكن أن يُشرح؛ وإنّما يكتب على الشّروح حواشٍ لبعض ما فات الشّارح، وعلى الحواشي تقريرات، لما قد يفوت أصحاب الحواشي، وهكذا. والسّبيل في هذه الشّروح والحواشي والتقريرات: أن تُجرد من قبل طلبة العلم جردًا سريعًا، لا أن يُعقد لها دروسٌ يُشرح فيها الشّرح.

وأذكر تجربة لم تكن مريحةً، ولا ممّا أذكره فأحمده، وذلك أنّي درّست مرّة في معهد للطالبات (مادة الفقه)، وكان الكتاب المقرر من قِبل القائمين على المعهد (الملخص الفقهي)، فكنتُ أقرأ الكتاب قراءةً، وكأنّ الطالبات لا يستطعن أن يقرأن الكتاب في بيوتهنّ (وهذه كذلك من المضحكات؛ إذ كيف يُشرح الشّرح الميسر الواضح؟!!).

أبنائي .. لا أدري إن كنتم واصلتم قراءة هذه التّدوينة الثّقيلة نوعًا ما، إلى هذا الحدّ، ولكني أذكره لكم من باب أن أحدثكم أكثر عن أبيكم الذي مرّ بعدّة تجارب في حياته ساهمت كلّها في بناء شخصيته، وصناعة أفكاره وقيمه ومبادئه.

وممّا يهمنّي في هذه الصّفحات التي أبرزها لكم من صفحات عُمُري: أن تعرفوا أسماء الأعلام الذين كان لهم فضلٌ –بعد فضل الله– على أبيكم، فتترحموا عليهم كلّما ذُكِروا في مجالسكم، وتبيّنوا للنّاسِ فضلَهم على

أبيكم، فقد مضوا ومضى ولم يُقم بحقّهم (رحمهم الله، وتقبّل منهم، ورفع درجاتهم).

الأحد 21 صفر – 20 أكتوبر

❖❖❖

بيننا اتّصال!!

حدث بعد صلاة المغرب أن رافقتُ صديقي أبا سعيد شمس العالم إلى عيادات الطبيب زاهر قضيب البان الكائنة عند مدخل مخطط الإسكان؛ إذ كان يشكو ألمًا في بطنه.

كانت موظفة الاستقبال قصيرة القامة، إذا وقفت لم يستطع أحدٌ من الجالسين في الانتظار أن يبصرها. لستُ دقيق الملاحظة، ولكني لم أستطع أن أتجاهل النقطة التي وضعت عليها دبوسًا، كان عند الحد الذي يكتمل عنده الاستدارة، أشبه بنِسر يقف على رأس جبل شاهق.

تركتُ صديقي في العيادات وعُدْتُ إلى مكتبي، وقلتُ له: بيننا اتّصال!! خرجتُ وأنا أخفض رأسي حتّى لا أتبيَّن ذلك النّسر الشّامخ.

من حديث هذا الصّباح تعليقٌ كتبه الدّكتور عبد الله الطّارقيّ، ذكر فيه اتّصاله بشيخنا الوالد محمّد الخضر النّاجي، وقوله: (الله أعلم) عند مسألة من مسائل النّحو.

والحقّ أنَّ الذين اتّصلوا بشيخنا الخضر (رحمه الله) بمكّة عددٌ كبيرٌ جدًّا، فقد كانت دارُه مفتوحةً لطّلاب العلم ليلَ نهارَ، وكنتُ أحدَ أولئك الذين اتّصلوا بشيخنا صحبة عددٍ من الفضلاء أذكر منهم؛ عبد الله طاهر وسمير سباعي وسلطان العمري، وكلهم بعد ذلك حملوا (الدّال)، كنّا نقرأ عليه يوم الجمعة بعد صلاة العصر (تفسير الجلالين). وكان أخونا عبد الله طاهر هو أوسط هذه المجموعة، شديد البرّ بالشّيخ، أوقف نفسه على خدمته، ورعاية مصالحه، وبخاصّة حين يذهب ليغسل كليته.

وبعض تلك المجالس تكون في أعطان الإبل التي في طريق جدّة القديم. نقرأ الدّرس هناك، وقد يصحبنا في تلك النّزهات الدّكتور محمد سيدي الحبيب الشّنقيطيّ.

توفّي شيخنا محمّد الخضر النّاجي عام 1424، بعد حياةٍ حافلة بالعطاء العلمي، والدّعوة إلى الخير.

والدّكتور عبد الله الطّارقي أتحفني بقصّة تربوية من المجالس العلمية لشيخنا الخضر، فأذكرني قصّتين حضرتهما في مجالس (تفسير الجلالين)، أولى هاتين القصّتين تتّصل بطبيعة الدّروس التي تقام في منزل شيخنا الخضر؛ إذ كان الطالب هو من يختار الكتاب الذي يريد قراءته، وينتظر

دوره في القراءة. فإذا حضر الشيخ أذن للطلاب بالقراءة بحسب ترتيبهم في الحضور، فمن حضر أولا يقرأ أولًا، وهكذا. وكان الشّيخ لا يسمح لمن انتهى درسُه أن يواصل الجلوس في دروس غيره، بل يقول له :حياك الله .أي: انصرف راشدًا، والطلاب يعقلون عنه هذا، فينصرف الواحد منّا فور سماعه لهذه الكلمة.

وكان من عادتنا أن نكون أول الحاضرين لمجلسه، فنفتتح تلك المجالس المباركة، وكان من ينتظر دوره من غيرنا يحضر درسنا انتظارًا لدرسه، وحَدَث أن كان في الحاضرين طالبٌ يشارك الشّيخ في التّعقيب على الدَّرس، والشّيخ يحتمله حياءً، ونحتمله أدبًا، وذلك منه سوء أدب معنا ومع الشّيخ.

وحدث يومًا أن سبقنا ذلك الطالبُ ورفاقه لمجلس الشّيخ، وكان يومًا مشهودًا أذكر في الحاضرين صديقي عدنان بن صفاخان البخاري، فأمر شيخُنا ذلك الطّالبَ بعينه أن يفتتح الدّرس بالقراءة، وكان في متن من متون العقيدة، فقرأ وأخذنا في الاستماع له، فكان لا يقرأ جملةً إلا ولحن في كلمة أو أكثر، والشّيخ أثقل ما يكون عليه اللحّن في القراءة، كعادة علماء شنقيط، فيردُّه كارهًا للحن، منزعجًا منه، حتى كثرَ ذلك منه، فزجره الشّيخ مغضبًا: ما هذا؟ ظننتك طالب علم؟

وكأنَّ اللَّحن لا يجتمع مع وصف (طالب علم)، ثم أمره بمواصلة القراءة، حتى قرأ كلمة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، قرأ: (للهُ)، بضم آخر اسم الجلالة، متجاهلا لام الجرّ. فقال شيخنا الخضر: لا، لا، لا، لا .. يكفي هذا، المجلس القادم تأتي ومعك (متن الآجُرُّومية).

مجالس العلم تُربّي على التّواضع، ولا تربّي على التّعالم، كلّما ازداد المرء في هذه المجالس علمًا؛ ازداد علمًا بقدره ومكانته، وعَلِم أنّ الله يفتح على من يشاء بواسع فضله.

القصّة الأخرى تبيِّن خُلُق الوفاء عند علمائنا، وما طبعوا عليه من الأدب والتّواضع ولين الجانب مع مشايخهم؛ تربية عملية تراها ماثلةً أمامك؛ كنّا يومًا في مجلس (تفسير الجلالين)، وفي أثناء المجلس طرق طارق الباب؛ وكان باب المجلس مفتوحًا، فصاح شيخنا من مجلسه ليُسمع الطّارق: تفضّاااااااااااال.

فدخل علينا في المجلس رجلٌ يمشي على أربع يديه ورجليه؛ حتى وصل إلى شيخنا فاحتضنه شيخنا والضّيف يقبل رأس الشيخ ويديه، وشيخنا يضحك له فرحًا. ثم التفت الضّيف إلينا، فإذا هو الدّكتور عبد الله بن الشّيخ محمّد الأمين الشّنقيطي صاحب (أضواء البيان).

عبد الله بن الأمين يدخل على شيخه الخضر يمشي على أربع تواضعًا لشيخه، ويقبل يديه ورأسه، والشيخ يحتضنه ويضاحكه فرحًا بابن شيخه الأمين. حدثت هذه القصّة والدّكتور عبد الله بن الأمين في ذلك الوقت يشغل درجة أستاذ (بروفيسور) في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة.

لا يُولد الإنسان متواضعًا، ولكنه يكتسبه من مجالس العلماء، ومن سيرهم وأخبارهم. وما تواضع أحدٌ لله تبارك وتعالى في مجالس العلم؛ إلا وبسط الله له القبول في الأرض، وما تعاظم أحدٌ بعلمه وتطاول به على أقرانه؛ إلا وآل أمرُه أن طوى الله علمَه، وأخمل ذكره.

مشى الوقتُ بعد صلاة العشاء حتى تجاوز السّاعة، ولمّا يتّصل صديقي أبو سعيد، فاتّصلتُ به فلم يردّ على اتّصالي، فأهمّني أمرُه، وأردتُ قصد العيادات لأنظر خبرَه، فتذكّرت ذلك النِّسر الشّامخ على قمة ذلك الجبل، فتراجعتُ، وتذكّرتُ أنّي قلتُ لصديقي: بيننا اتّصال!!

الإثنين 22 صفر – 21 أكتوبر

الأفكار الحُرّة!!

أظلّ مغمض العينين، في ظلام لا يُسمع فيه إلا أنفاس السّكون، ليس ثمّة صورة للحياة إلا دبيب النّمل عند سلّة المهملات= أحاول التقاط حوار ليليٍّ، أو انتزاع فكرةٍ طاردتها، أو حبس وجهٍ مختبئٍ في حلمي قبل أن يسرقه ضوء النّهار.

جسدي داخل هذه الحجرة المظلمة، ولكن روحي خارجها، تغزل من النّجوم وشاحًا لجسد اللّيل العاري، وتنظم من هذياني قصيدةً يُغنيها القمر. أنتفض من فراشي ولا أزال مغمض العينين، فأنغمس في نهر السّماء، وأغتسل من أمسي.

يوم كنّا صغارًا كنّا أنبياء، تجري الحقيقة على ألسنتنا؛ كنّا أحرارًا، لا نعرف الخوف، ما كان شيءٌ يربطنا بالأرض إلا نبع الحياة في صدور أمهاتنا.

كبرنا وتعلّقت قلوبنا بكل نبع للحياة، وصرنا نُنَازع في ملكيته، فكذبنا وسرقنا، وغصبنا، وقتلنا، وتكلمت ألسنتنا بكلّ شيء إلا الحقيقة، فلم نعد أحرارًا، بل جبناء.

ما الذي يجعل أستاذًا جامعيًّا يتبرأ من عمل الطالب الذي يشرف على رسالته الجامعية طيلة سنوات، بعد صدور قرار اللجنة المشكّلة لمناقشة الرّسالة العلمية، بأن يُمهل الطالب سنةً كاملة لإعادة صياغة الرّسالة، ثم تُعاد مناقشتها= غير الجُبن من تحمّل مسؤوليته كأستاذ مشرف على رسالة الطالب، والذي وقّع على ورقة الإذن بطباعة الرّسالة، والذي معناه أنّ الرّسالة صالحة للمناقشة.

الحقيقة لا يملك أن يصدح بها إلا رجلٌ حرٌّ، ولكن هذا الأستاذ الجامعي ليس حُرًّا، فيعترف بأنّه يتحمّل إخفاق الطّالب، بدل أن يتبرأ منه، ويعلن في قاعة المناقشة أمام الحضور: رفضه الاستمرار في الإشراف عليه، ويوقع الطّالب في معضلة إدارية جديدة في البحث عن مشرف جديد.

مسرحية هزلية، ضحيتها الطّالب، وبطلها الأستاذ المشرف. ولكنّ التّاريخ لا يكذب، ولا يُداهن، ولا يُحابي، وعند الله تجتمع الخصوم.

أذكر موقفين حين نُوقشت في مشروعي العلمي الذي قدّمته لنيل درجة العالمية (الماجستير)، توقّف المناقش الدّاخلي عند قولي في تخريج لفظ حديث: لم أقف عليه في كتب الحديث المسندة. فقال الأستاذ المناقش: يعني يا شيخ عدنان، لو بحثنا عنه في (المقاصد الحسنة) لن نجده؟ فالتفت إليه الدكتور زياد منصور المشرف على بحثي، وقال: يقول: المسندة المسندة!! (المقاصد الحسنة أحاديثه غير مسندة).

الموقف الآخر: أنّ المناقش الخارجي سألني: لماذا لم تذكر كذا أو كذا (نسيتُ ما الذي أراد استدراكه، هل إغفالي ترجمة راوٍ أو خدمة نصّ ما)، فالتفت إليه الدكتور زياد منصور، وقال: بل ذكره في الصّفحة السّابقة، أو قال كلمةً نحوها.

الشّاهد من هذين الموقفين أنّ الأستاذ المشرف على عمل الطالب إذا قام بكل واجباته الإشرافية، فإنّه سوف يكون أول المدافعين عن البحث؛ لأنّه قرأه كلمةً كلمةً. ولن يوقّع على ورقة الإذن بطباعة الرّسالة، إلا بعد أن يتأكّد تمامًا أنّ عمل الطّالب يستحق المناقشة.

سفيان!! مالك!!

ممّا أحمدُه في ذلك اليوم أنّكما كنتما حاضرين في قاعة المناقشة، وهذا خبرُ بعض ما غاب عنكما إدراكه في ذلك اليوم لصغر سنّكما.

أذكر الشيخ الوالد الدكتور زياد منصور وموقفه الدّاعم لبحثي أثناء المناقشة، ثم أقارنه بما صدر من أحد أساتذة جامعتنا في الأسبوع الماضي في مناقشة أحد زملائنا. لم أحضر هذه المسرحية الهزلية (والحمد لله)، ولكن نقل لي خبرها صباح هذا اليوم زميلٌ آخر.

ومن فصول بعض المسرحيات الهزلية أن يحضر المشرف قاعة المناقشة وهو يحمل رسالة أخرى غير التي تناقش، ويقلّب صفحاتها موهمًا الحضور أنّه يقلّب الصّفحات ذاتها مع أعضاء المناقشة. كيف يستطيع مشرفٌ بهذا الإحساس العالي باللامبالاة، وانعدام الأمانة العلمية= أن يقف موقفًا مشرّفًا!!

سيكون أمثال هؤلاء عونًا للمناقشين على الطالب، الذي يكاد يتميّز على كرسيّه من الغيظ؛ لأنّه يعاين خذلان مشرفه له.

إنّ شعار الحقيقة المطلقة هي الصّحراء، حيث الأفكار حُرّة، مطلقة من القيود، طبيعة الصّحراء في الارتحال وتتبع مواقع قطر السّماء.

لا يخلدون إلى الأرض، ولا يركنون إلى الدّعة، ولذا فإنّ الذّلّ لا يُسلّط على رقابهم، خوف المساس بمناصبهم ووظائفهم.

إنّ من سعادة الرّوح في هذا اليوم بعد تعب البحث عن الضّمير الحيّ عند مَن يُنسبون إلى العلم والفكر= متابعة حلقة من حلقات برنامج الأديب الشّاعر ياسين عدنان (بيت ياسين)، والذي أضاف فيه الرّوائي اللّيبي إبراهيم الكوني. وقد تحدّث عن أفكار كثيرة يعجز المستمع من عمقها أن يختزنها في ذاكرته من المرّة الأولى، ومن تلك الأفكار التي عرض لها: فكرة موت المؤلِّف.

قال الكوني: إنَّ كثيرًا من الأعمال الأدبية الخالدة خُلِّدت بعد موت مؤلِّفيها؛ لأنّ العالم الثّقافي قرأ أعمالهم كنصوص مجرّدة، فأنصفوا تلك النُّصوص بعد أن ظلموا مؤلِّفيها. مات المؤلِّف، فماتت الضّغائن والأحقاد والخصومات التي كانت حيّةً بحياته. وهكذا يجب أن تقرأ النّصوص على ضوء هذه النظرية (موت المؤلِّف).

لماذا نقرأ؟

نقرأ -يا أبنائي- حتى إذا حُبست أجسادنا في وظيفة أو منصب أو تجارة أو مسكن أو شهوة أو أي صورة من صور الملكيات التي يُتنازع عليها= تبقى قلوبنا مطلقة، وأرواحنا مرسلة، وأفكارنا حُرّة!!

الثلاثاء 23 صفر – 22 أكتوبر

ممارسة الصّمت

تتحول الذِّكريات في الظّلام كائنات زاحفة، تختبئ تحت الأسرة والوسائد، توقظ بدبيبها شعيرات جسدك، توجعك حيثُ تنشد الدِّفءَ والهدوء، تدوِّي طنينًا في أذنيك، ويشرق عليك الصباح وأنفاسُها تملأ أركان حجرتك، ورائحتُها رئتيك!!

كتبتُ ذات مرّة: إنّ الحبّ الأوّل ليس هو أول نطقك لكلمة (أحبّكِ). ولا دهشة الحبّ الأولى التي شعرتَ بها، بل هي ضياع الكلمات من خزائنك حين كانت منك النظرة الأولى. في الرّجفة التي أصابتك حين أطلّت عليك بسحرها فجفَّفت كلَّ ينابيعك القديمة. في قُشَعْريرة الرُّوح التي تاهت في دهاليز الزّمن.

وجعُ الذّكريات يحنُّ إلى قصة قديمة، حيث النّوارس تهجر فيها الجزر المنسية، تبسطُ أجنحتها في شواطئها، فيعمّك الظّلام من جديد!! كلّ هذا الوجع يهجم عليَّ في الظّلام.

ترتكز في السّكون نقطةَ الدائرة، تغدو ربيعًا إذا جفَّ الرّبيع، وتبدو حُمرتُها حين يميل شفق الغياب. أوراق خريفها حكاية، وسراب طيفها نهار طويل، وليالي الشتاء فجرها ممتدٌّ بعيد.

إذا مارس القلم الصّمت كتب بأحرف لها صوت غير مسموع، صرخة مدوّية في غُرفة مفرغة من الهواء. أشياء ممّا يريد أن يحتفظ به المرءُ في دفاتره، دون أن يقرأه غيرُه. ليس لأنّه ممّا يخجل منه، فتلك أمورٌ لا يرغب عاقلٌ بكتابتها= ولكن لما يتّسم به من خصوصية تتعلّق بغيره، فيضنّ به كجزءٍ منه، ذكرى عزيزةٍ عليه، مثل صورة (مادونا صاحبة معطف الفرو) على مكتب موظف المصرف العجوز، توقفت حياته عند هذه الصّورة، فصار بعدها جسدًا بلا روح. صورةٌ صامتة دون صوت، ولكنها تبوح له حين ينظر إليها بكلّ شيء.

وجعٌ آخرُ يدبُّ في الظّلام ..

الليالي في الشّتاء تعيد عليَّ حكاية احتضارك، تسحب رداءها الأسود عن صورتك، تقتلني أجراس الماضي وأنت تصارع الألم وحدك. تختصر لوعةَ احتضانك في ساعاتك الأخيرة أدعيةٌ لا أملّ تردادها.

عرفتُ جدّكم أوّل ما عقلته يمتهن إصلاح السّاعات، فكان يُدعى أحمد السّاعاتي (مأ جَي)، ولا أذكر سيرته في هذه المهنة متى تعلمها؟ ومن علّمه إيّاها؟ ولعلّ عمّكم أبا إياد يذكر خبرَ ذلك. ولكن الذي أعرفه أنّ جدّكم في أيّامه الأولى بمكة اتّصل بصديقه محمّد إسماعيل، وهذا الصّديق امتهن طوال حياته مهنة إصلاح السّاعات، فهل كان أستاذ أبي في هذه المهنة؟ لا أدري.

كان لهذا الصّديق شقيقة أرملةٌ (أو مُطلّقة) لديها ابنةٌ وحيدة، فعرضها على صديقه (أبي) زوجًا، فوافق أبي. فأرسل إلى شقيقته في فطاني، وأقدمهما للحجّ.

هذه قصّة لقاء جدّيكم، وقد جرت أحداثٌ في هذا اليوم اتّصلت بأحداث في الأسبوع الماضي، أمورٌ عالقةٌ في العمل والسّكن، ولذلك؛ سأعودُ فيما بعد لأتمّ ما أختزنه في ذاكرتي عن جدّيكم.

تصبحون على خير،،

الأربعاء 24 صفر – 23 أكتوبر

ما مات وما دُفن!!

ولدتُ في بيتٍ يقع في جبل أبي قُبيس، منزلٍ جديدٍ استحدثه والدي، وانتقل إليه صحبة زوجه وأمّها، وأولاده الأربعة؛ شكري وفايزة ومحمّد وعثمان.

كنتُ أوّل مولودٍ يحتضنه هذا البيت الذي تألّف ابتداءً من دورين؛ أرضي وعلوي، ولأنّه أقيم على أرض جبلية، فكأنه كان يرتفع مع الجبل صعودًا؛ إذ الدّور الأرضي له مخرجٌ خاصّ، والعلوي له مخرجٌ خاصّ، وحين استحدثنا دورًا ثالثًا فوق هذا الدّور العلوي، جعلنا له مخرجَه الخاصّ.

يفضي بك مدخل الدّور الأرضي الواقع في جهة اليمن جنوبًا إلى (سيب ممتدٍّ، يواجهك في نهايته سلّمٌ يعرُجُ بك إلى الدّور العلوي، وبجانبه دورة مياه دون بابٍ ساترٍ، وإنّما يحجبُ من بداخلها ستارةٌ ملوّنة. وكأنّ نفقة البناء وقفت عند هذا الحمّام فقصرت به، أو أنّ الوالد اختار أن يجعله هكذا كنوعٍ من الحنين إلى بيئته الأولى، حيث أبواب الكُنُف قطعةُ قماش.

وإذا التفتّ عن يمينك فستجد بابين، بابًا يفضي إلى غرفةٍ لها بابٌ جهة الشّام يفتح على صالةٍ بحجم الغرفة، والباب الآخر يفضي إلى تلك الصّالة وغرفة أخرى جهة الشّام.

إذا صعدتَ إلى الدّور العلوي ستجد بابَ مخرجِهِ عند منتهى السّلّم، فإذا استدبرت المخرج؛ فأنت قد جعلت مغرب الشّمس خلفك حيثُ الكعبة المشرّفة، وعن يمينك جهة اليمن فسحةٌ صغيرةٌ هي ساحةُ ألعاب ومُنتدى ثقافات. وتستقبلك شقّة صغيرة، بابُها يفضي إلى (سيب) صغير، ستجد أمامك مغسلة صغيرة، ثم حمّامًا صغيرًا. ويجاوره يمنًا مطبخٌ صغيرٌ، ثم غرفة الوالدين، ولها مخرجٌ خاصٌ إلى الفُسحة الخارجية، وشُرفةٌ جهة الشّرق ذات إطلالةٍ رائعة على الحياة التي في جبل خندمة، قبل أن يعلو بناءُ بيت (المنديلي) ويحجب تلك الإطلالة. ويقابل هذه الغرفة جهة الشّام غرفةُ بقيّة أفراد العائلة.

في ذاكرتي أنّ سيدي محمّد إسماعيل (خالَ والدتي) أقام بعائلته (أم حسين وأبنائها) في الدّور الأرضي، في الغرفة التي جهة الشّام، بينما أقامت شقيقته جدّتي لأمِّي (سِتّي زينب، رحمها الله) في الغرفة التي بقرب المخرج جهة اليمن، وفي الصّالة كان ينام أفراد العائلة، وأتذكّر جيّدًا أنّ أمّ وسامٍ ولدتْ في هذه الفترة الزّمنية. وحين غادرت عائلة سيدي محمّد،

حللنا مكان هذه العائلة الكريمة، وجاورنا سِتّي، وتركنا الشّقة العُلوية للوالدين.

أوّل مشهد للحياة أحفظ تفاصيله لهذا البيت: أنّ الدّور العلوي كان يُبنى، وكنتُ أقف عند حافة السُّلّم وفي فمي ملهاةٌ (مصاصة)، أغلب الظّنّ أنّي كنتُ في رعاية أمّ فيصل، أشاهد الحمير التي تحمل أحمال الرّمل وبقية موادّ البناء.

أذِنَ المولى القدير بخروجي إلى هذا العالم في الثّانية عشرة ظهرًا؛ فكأنّ الشّمس وسَمتني بسُمرة ميّزتني عن إخوتي، وكان يحلو لهم أن يتندّروا بها؛ فإذا سئلوا عني (مين هذا؟)؛ قالوا :ما ندري، تربّى عندنا!!

الحياة في تلك الأيّام لم تكن معقّدة، فلم يكن لمثل هذه الدّعابات أثرٌ سلبي في النّفس، حتى وإن بالغوا فيها أحيانًا (فكان ماذا؟). تربّيتُ في عائلةٍ يصدقُ عليها قول ريمي: (تهوى المرح).

في هذا البيت دَرَجَ إخوتي الصّغار أم فادية وأبو محمّد إبراهيم وأبو زاهد عبد الرّحيم، وتوفي لوالدتي جنينٌ في شهره التّاسع أسميناه عبد الكريم كان آخر الأبناء، كنتُ وقتها في الصّفّ الأوّل المتوسط (**1405**).

الإنسان ابن بيئته، يعشق أرضها وترابها، وإذا غاب عنها هبَّت عليه النّسائم بطيبها، فتنسَّم هواءها وهو على البعدِ عنها. وتعزُّ عليه الأشياء التي نشأ وهي من حوله، ويحنُّ إليها حنين الناقة إلى فصيلها. ومهما ابتعدت به السنون فإنَّه لن يملك دمعتَه إذا اشتم يومًا ريَّاها.

لم يكن هذا البيت بناءً جامدًا بل كيانًا حيًّا يحيا بحياتنا، ويكبر كما نكبر، ويوم غاب عن حياتنا بكيناه جميعًا، بكاه كلٌّ بطريقته.

حين انتقل والدي بعائلته إلى البيت كنّا عائلةً واحدة من سبعة أفراد، وحين غادرها بعد قرار إزالة حي شعب بني هاشم بأكمله؛ تفرّعت عن تلك العائلة عائلتان، وتضاعف عدد الأفراد إلى الضّعف.

ولذلك اضُطر البيت أن يتمدد حتى يستطيع أن يواكب هذا الحراك الذي ينمو بداخله، فبعد أن كان دورين، صار ثلاثة أدوار، تمدد إلى قطعة الأرض التي أمامه فابتلعها، وتطامن وارتفع حتى صنع لسطحه إطلالةً جديدةً على الحياة في شعب علي وجبل خندمة.

كنّا حياةً تحيا بداخله، حين هجرناه لم يتضعضع، بل بقي شامخًا، وظلّ بعض إخوتي يتردد عليه، وأذكر أنيّ قصدتُه لألقي عليه نظرةً أخيرة، كان الوفاء هو مَن دفعني لذلك اللّقاء؛ وقفنا نتأمل بعضنا بعضًا زمنًا

شعرنا فيه أن عقاربَ الساعة توقفت عن الدوران، وأنَّ سكون الظلام من حولنا امتدّ إلى الزّمان فاستوقفه ليخلِّد هذه اللحظة الخاشعةَ في ذاكرته لحظة وداعٍ أخيرة.

كانت لغة العيون في تلك اللحظة أبلغ من أية لغة، ودون أن نتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ مشيتُ القهقرى وأنا أنظر إليه، وحين تواريتُ عنه، وأيقنتُ أنه لا يراني= أجهشتُ بالبكاءِ، ثمّ بكيتُه كأني أبكي قطعةً مني أواريها التراب، بكيتُ حتى خِلتُ كل جزء من جسدي يبكيه، وحين آبت إليَّ نفسي؛ أخذتُ أعيدُ ذكرياتي معه، وبدأت الصور تعرض في مخليتي فأراه في كلّ صورةٍ من صور حياتي، يشاركنا أفراحنا وأحزاننا.

لقد شهد ولادتي وولادة إخوتي الصغار، يجمعنا في الليالي الشاتية ليحكي لنا حكاياته الدافئة فننام في حضنه، ونصحو على أنفاسه. ذكرياتنا بكل أرجائه، تتمثل شخوصنا أشباحًا تحكي ضحكات الفرح ودموع الألم التي عشناها، لا تغيب عنه تفاصيلها، نستدعيها من ذاكرته، فيرويها حيَّة نقيّة.

كان دائمًا يقف على تلك الفسحة المرتفعة من جبل أبي قبيس شامخًا بكلِّ عزَّة وكبرياء، ولكنه في الليلة التي ودّعتُه فيها شاخَ وكبُر رُغمًا عنه،

خُلعت أبوابه ونوافذه، كان فارغًا فراغًا يُسمع فيه صفير الرِّياح في كل جوانبه، ونال الغبارُ من كبريائه فتكدس في كل زواية منه.

هذا ما تبقى منه هيكل شاخص يقومُ في ذلك الظلام كأمثاله من الهياكل التي قامت بجواره تنتظر الإزالة والهدم، فكيف لا أبكي عزيز قومٍ ذلّ!!

أكثر من ثلاثين عامًا توالت على تلك النّظرة الأخيرة، ولم تزل ذكراك فينا وفي بعض أبنائنا حيّةً، وستظل عنوانًا خالدًا للحبِّ والعطاء، ذكرى لا تموت ولا تُوارى.

الخميس 25 صفر – 24 أكتوبر

اللّقاء الشّهري

يجتمع أعضاء الملتقى الفطاني في آخر جمعة من كلّ شهر، ينظرون في أمورهم العالقة فيما يخصّ برامجهم السّنوية، وقضايا اجتماعية أخرى تخصّ أفرادهم.

ومن أبرز القضايا التي ناقشها الأعضاء خلال هذا الاجتماع قضيتان؛ الأولى مسابقة الملتقى التاسعة للقرآن الكريم، والأخرى تصحيح أوضاع عائلة أخينا أبي سلمان (رحمه الله تعالى) تهيئةً لخروجهم النّهائي إلى تايلاند.

ثمّ بعد اللّقاء الشّهري؛ حضرنا عقيقة ابن أخ حمودة فطاني، عضو الملتقى الفاعل في مخطط سمو، وكانت عقيقة ووكيرة في الوقت نفسه، أسأل الله أن يبارك لأخينا حمودة منزله الجديد، وأن يكون عونًا له على الطّاعة.

قبل سبع سنوات انضممتُ إلى مجموعة الملتقى برغبة شخصية؛ طلبتُ من أخي عضو الملتقى محمّد مودور كاليفيه أبو حسين أن ينقل رغبتي هذه إلى الإخوة في الملتقى، وكانت هذه الرّغبة نابعة من استجابة داخلية لأهمية التنوّع الفكري داخل هذه المجموعة، والتي تنادي بها أدبياتهم نحو بناء الشخصية المسلمة الفطانية.

كنتُ معروفًا لدى المجموعة بخلفيتي الفكرية (الوهابية)، ولديّ تاريخ قديم من الاصطدام بعدد من أعضائها في مجالس اجتماعية وصفحات إلكترونية حول قضايا يدور فيها الجدل العلمي الفكري قديمًا مثل احتفالهم بمولد النبيّ صلى الله عليه وسلم، والمجالس الصمدية والأربعينية والحولية لأمواتهم؛ إرثٌ علمي فكري ورثوه عن علمائهم وأجدادهم. لكن، كان لدينا (أنا وهم) الاستعداد لترك هذه الأمور جانبًا والعمل معًا لبناء الإنسان الفطانيّ.

أبرز أنشطة (الملتقى) السّنوية التي برزوا فيها قبل أن أطلب الانضمام إليهم؛ مائدة الإفطار الرّمضانية، وتوزيع السّلال الغذائية الرّمضانية، وحفل المعايدة.

وهي أنشطة اجتماعية يحتشد لها المجتمع الفطاني بمكة، وتحمل قيمًا اجتماعية عالية من روح التّعاون والتّآزر والتّكاتف والمحبّة والوئام والمواساة

والتّكافل والسماحة، وكانت حفلات المعايدة السّنوية مسرحًا لإبراز المواهب الفطانية الواعدة في التّمثيل والإنشاد والإلقاء.

قوبلت رغبتي هذه بترحيب ظاهر وتوجّس خفي، ودعوني لحضور لقاءاتهم الشّهرية. سُررت بالدّعوة، وسعدتُ بالكوكبة التي تتألف منها المجموعة من مهندسين وأطباء وطلبة علم ونشطاء اجتماعيين. لديهم تنوّع اجتماعي وتنوّع فكري وسلوكي، يوحّدهم الدّمّ الفطاني، ويجمعهم حبّ العمل التّطوعي.

بعد انضمامي إليهم استُحدِثت فكرة (صندوق معين) القائم على مساهمة الفرد الفطاني بـ (10 ريالات) شهريًا لمواساة الأسر الفطانية الفقيرة والحالات الإنسانية الطارئة. والذي تطوّر خلال أربع سنوات إلى استخراج صكّ الوقفية (وقف معين الفطاني).

واتّسعت دائرة أنشطتنا لتشمل النّشاط الرّياضي؛ فانطلقت بطولة الملتقى الأولى لكرة القدم لأبناء الجالية التّايلاندية وبقيّة الجاليات الملايوية عام 1435، واليوم نتهيأ لانطلاق البطولة السّابعة.

توقف (الملتقى) عن إقامة حفلات المعايدة في السّنتين الماضيتين؛ لظروف حلول عيد الفطر المبارك في الإجازة الصّيفية، وعامّة العائلات

الفطانيـة تقضـي إجازتها السّـنوية في تايلانـد، ولكننـا نتهيـأ هـذا العـام لإعادتها ضمن برامجنا؛ لعودة الدّراسة في شهر رمضان المبارك.

أمّا برنامج السّلال الغذائية؛ فقد سُلِّم هذا الملف إلى السّادة القائمين على (وقف معين الفطاني)، وقاموا بتنفيذه في السّنتين الماضيتين، والحمد لله على فضله وتوفيقه.

هذا تقرير مختصر جدًّا لأنشطة (الملتقى الفطاني) خلال السّنوات الأربع عشـرة الماضيـة تمثّـل تجـربتهم في العمـل الاجتمـاعي التّطـوعي للجاليـة الفطانية بمكة.

لا يجب أن يمنع استمرار الاختلاف الفكري والسّلوكي في الفطانيين وفي غيرهم= من أن يعملوا معًا لبناء الإنسان الفطاني الذي يحمل آمال أمّته في بناء أمّة مسلمة قادرة على مواجهة التّحديات.

نحن (الملتقاوية) قدّمنا أنفسنا أنّنا بقليل من الوعي بضرورة محاولة فهم المخـالف، واسـتيعاب الخـلاف= قـادرون علـى الاشـتراك والتّعـاون في العمـل القيمـي الاجتمـاعي، بـل لـيس هـذا فحسـب، بـل قـادرون على إنشاء لُحمة أخوية قويّة قائمة على المحبّة الصّادقة، وليس على المجاملات الزّائفة.

الشّخص الإقصائي في فكرته، لا يخرِج الحقُّ من دائرة ما يعتقده ويؤمن به، فهو لا يحتمل الاختلاف. ولا يمكن له أن يستوعب المخالف، ويتحزّب دون شعورٍ حول نفسه ومجموعته، وهو في الوقت نفسه من أكثر النّاقمين على الحزبية وأفرادها.

قيل لابن تيمية: أبشر، فقد تُوفِّي فلان (يعنون أكثر من كان يناوئه من علماء زمانه). فقال له ابن تيمية: بئس ما قلت. ثمّ ذهب إلى منزل ذلك العالم المتوَفّى، وطرق عليهم الباب، وعزّاهم في مصابهم، وذكّرهم بما لفقيدهم من سابقة في العلم والفضل، ودعا لهم بالخير، وأخبرهم أنّه لهم مكان فقيدهم لحاجتهم وفاقتهم.

هذا الجانب الإنساني من ابن تيمية مع مخالفيه؛ لا يكاد يُعرف، ولا يُستصحب حتّى من قِبل أصحابه في زماننا، فالشّدّة العلمية وقوّة العبارة في المفاتشات والنّقاشات العلمية= هو جانب الاقتداء الذي يستهوينا في ابن تيمية. والحقّ أنّ ابن تيمية لم يكن يصطحب هذه الشّدّة العلمية خارِج تلك المجالس، بل يخلع عباءتها فور انفضاضها، وفي سيرته مواقف كثيرة تدلّ على إنسانيته وتجرّده للحقّ؛ إذ كان يقول لخصومه وفيهم غلاة أهل البدع من المعتزلة والجهمية: أنتم عندي لستم بكفّار، ولو قلتُ بقولكم لكفرتُ.

ويُروى عن الحجّام الذي كان يعالج الدّم المتجمد من ظهر الإمام أحمد ابن حنبل من أثر سياط جلادي المعتصم بالله: أنَّه إذا توّجع من شفرته، واضطرب جسده من شدة الألم؛ وقال: اللهمّ؛ انصر المعتصم بعَمُّورية.

الجمعة 26 صفر – 25 أكتوبر

الصفحة الأولى!!

رائحتها ..

يظنّ المرء إذا تراكمت عليه السّنون غرورًا أنّه لن يختبر مشاعر جديدة عليه، لم يسبق له أن شعر بها، ويختبر مذاق الدّهشة الأولى لها. ولكن ها أنتَ وقد تراكمت عليك سنون خبرتك الطّويلة، ولا زلتَ تشعر بحيرة التّائه، فتغيبُ عمّا حولك، ويفقد الزّمان قيمته. وتخرج بحيرتك خارج حدود المكان، بلا تعريف يجمعك، تتشرذم منك (الأنا)، فتجد نفسك بلا ضمير يتكلّم عنك، وبلا قصةٍ تُحكى.

الألوان تفقد أسماءها، والكلمات على الشّفاه يغيبُ مذاقُها، والأزهار تضوع بأغنيات الغروب، وقطرات المطر تبلل المرايا. انظر، لا شيء في يديك إلا عبقُ زهرة مجنونة!!

حديث الفجر ..

لم أعد أحتملُ الذّهاب وحيدًا إلى المدينة، بعد أن كنتُ أيّام الدّراسة أعدّ طريق مكة/المدينة مثل طريق مكة/جدة. وبلغت بي الاستهانة بمشقّة الذّهاب وحيدًا إلى المدينة؛ أن أقضي ساعةً واحدةً مع المشرف الوالد زياد منصور، ثم أعود إلى مكة. ولا أحفل بطول الطّريق، ولا ثقله.

اليوم تخلّفت عن اللّحاق بزملائي في (مشروع تعظيم البلد الحرام)، وكان الرَّأي أن ألحق بهم فجرًا رُفقة أخي مصعب أبو النّور، فلمّا اعتذر عن مرافقتي لظرف صحيّ؛ ثَقُل عليّ الطّريق.

في ذاكرتي سبعٌ وعشرون سنةً جلستُ فيها على مقاعد الاختبارات؛ ستّ سنوات في ابتدائية الرّحمانية، ثم ثلاث سنوات في متوسطة الرّحمانية، ثم مثلها في ثانوية الملك عبد العزيز، ثم ستّ سنوات في معهد الحرم المكي، ثم سبع سنوات في دار الحديث الخيرية، ثم منهجية العالمية (الماستر)، ثمّ منهجية العالمية العالية (الدّكتوراه). أضف إليها الاختبارات التحريرية للالتحاق بمنهجية (الماجستير والدّكتوراه)، والاختبار الشّامل الذي استُحْدِث بعد منهجية (الدّكتوراه)، والتي قد تنتهي مسيرتك التّعليمية عنده.

جلستُ على مقاعد الاختبارات حتّى ظُنّ بي أنّي أدمنتُها، ولستُ كذلك. ولكن، هل الحياةُ إلا اختبارٌ كبيرٌ؟ وغدًا تُعلن نتائجه، فسعيدٌ أو شقيّ، اللهم اجعلنا من أهل السّعادة.

حين أنعم النظر في ذاكرتي أجد فيها صفحات كثيرة ملتصقة أوراقها. وقائع كثيرة تقفز من بين السنوات حيّة غضّة، وأخرى لا نبض بها، ولا حراك. ومنها: ذكريات السّنة الدّراسية الأولى؛ صفحات مليئة بالإثارة. لا أزال أذكر مشاعر ذلك الطّفل الصّغير حين عاد في أوّل أيّامه الدّراسية وهو يحتضن كتب الصّف الأوّل؛ فأعطته والدته دُرجًا خاصًّا به، يضع فيه كتبه ودفاتره وأدواته المدرسية. شعر لأوّل مرّة بالإثارة؛ لقد بدأ يبني عالمًا خاصًّا به، هو فقط مَن يملك مفتاحه.

دار العلوم الدّينية ..

ألحقني شقيقي أبو إياد بمدرسة خيرية تقوم على صدقات المحسنين (مدرسة دار العلوم الدينية)، جلّ أبنائها من إندونيسيا وفطاني الذين لا يملكون أوراقًا ثبوتية، وأذكر في السنة التي درستُ فيها طالبين يمنيين وسط هاتين الجاليتين، وغنيّ عن القول وحشتهما في هذه المدرسة، وما لقيا من تنمر طلابها (الجاوات)، وإن كان لا يُذكر، ولكن لا يزال يُسمّى تنمُّرًا بغيضًا، وفي التحاقي بهذه المدرسة الخيرية قصّة، سوف أحكيها إذا عرضَتْ

مناسبةٌ وكتبتُ عن السّنوات الخمس التي قضيتها في المدرسة الابتدائية الحكومية.

لا أذكر من أسماء أعضاء هيئة التّدريس أحدًا سوى مربي الأجيال الأستاذ حسنين فطاني، الذي كان وكيل المدرسة، وكان –ولا يزال– أحد معلمي حلقات المسجد الحرام لتحفيظ القرآن الكريم، ويعدّ من أقدم أولئك الصّفوة الأوائل من معلمي المسجد الحرام، وكنتُ في تلك السّنة نفسها أحد طلاب حلقته المباركة (حفظه الله، وختم لنا وله بخير). وأذكر معلم فصلي الدِّراسي بصورة باهتة، كان شيخًا فطانيًّا سِنًّا ومنزلةً، وكان صديقًا للوالد، وأظنّه قد توفي (رحمهما الله). كان رجلا فاضلا شعرتُ على صغر سِنّي أنّه كان حريصًا على تعليمنا وإفادتنا علمًا وتربيةً.

تضرب مدرسة (دار العلوم الدينية) في صدر الزّمان عراقةً وقِدمًا، ولا أدلّ على ذلك أنّه كان في أعضاء هيئة التّدريس علماء تشدّ إليهم الرِّحال، وتُضرب إلى ديارهم أكباد الإبل، ومن أجلِّهم مؤسِّس هذه المدرسة وأول مدير لها سنة 1353هـ: الفقيه الشّافعي أحد علماء المسجد الحرام السّيد محسن بن علي المساوي (توفي سنة 1354هـ)، ومسند الدّنيا في وقته الشيخ محمّد ياسين الفاداني (توفي سنة 1410هـ)، وأخرجت على مرّ سنواتها نجباء الطلبة الذين نالوا أعلى الدّرجات،

وتسنّموا أرقى الوظائف من أطباء ومهندسين وطيّارين وطلبة علم شرعيين.

وكان منهجها قديمًا قريبًا من منهج المعاهد الأزهرية، وكان خريجوها محلّ حفاوة من الأزهر في معاهدها وكلياتها. ثم عدلت عنه إلى مناهج وزارة المعارف حينذاك، وهو المنهج الذي أدركته.

كان مبناها حجازيًّا قديمًا فيه عبقُ الحجاز برواشينه ودهاليزه، المبنى في حقيقته مبنيان، يفصل بينهما ساحة صغيرة تقام عليها كلّ الأنشطة الطّلابية من فرص بين الحصص وألعاب رياضية وطابور الصّباح. لا أذكر أنّه كان فيها إذاعة مدرسية، ولا أنشطة طلابية لا صفيّة. ويتلقى طلابها العلم جلوسًا على الحصير، عدا الصّف السّادس الذي كان به مقاعد وطاولات.

ذكرتُ أنّ المدرسة خيرية تقوم على صدقات المحسنين، ويدفع طلابها رسومًا رمزية عند تسلم الكتب الدّراسية والشّهادات، أذكر أنّي دفعتُ عشرة ريالات لأتسلم شهادةً كُتب فيها: أني تجاوزتُ الصّفّ الدّراسي الأوّل، وكان ترتيبي الرّابع عشر.

كوّنت في هذه المدرسة بعض الصّداقات، بعضها امتدّ إلى يومي هذا، ولا زالت عُراها موثوقة قوية، وبعضها تاه في أروقة الزّمان، أذكر منهم: طالبًا إندونيسيًا اسمه (سفيان أنفناني)؛ جميلَ الصّورة، زكيَ الفؤاد، فصيحَ اللّسان، ذا بديهةٍ حاضرة.

كنتُ ألتقي به بين فترة وأخرى وأتتبع أخباره، وأذكر أنّي لقيته ليلةً في صحن المسجد الحرام، كنتُ يومها في مدرسة الرّحمانية المتوسطة وهو في متوسطة الزّبير بن العوّام في حي المعابدة، ولم أره بعدها، ولم أسمع عنه شيئًا (وأرجو أن يكون بخير في دينه ودنياه، وأن يجعل عاقبتنا إلى خير).

لا أحتفظ بذكريات كثيرة في هذه المدرسة لأني لم أمكث بها غير سنة واحدة تمرّ في ذاكرتي بكثير من مشاهد المشاجرات والتّحزبات بين الإندونيسيين والفطانيين. ولكنها –بلا شك– كانت لبنةً في بنائي العلمي فضلها يُذكر فيشكر.

هذه صفحة من حياتي عمرها أكثر من أربعين عامًا.

السّبت 27 صفر – 26 أكتوبر

الصّفحة ذاتها!!

أتذكرين مقالةً كتبتُها قديمًا؛ حيث أطارد ذاتَ ليلةٍ في حُلُمي فكرةً مجنونةً، وعندما استيقظتُ نسيتُها، غير أنّ طعم السعادة عالقٌ على شفتي!! أتذكرين؟

حدث ذلك قبل سنواتٍ عدّة، وما زلت أستيقظ بالشعور ذاته، وبات يتكرر مرّاتٍ حتى تحوّل الحلمُ إلى فكرة، وبكدٍّ مستمرٍّ بدأت تتضح معالمها في نفسي: إنّها حيرتي حين أستيقظ بدفء جسدك على فراشي!! بنشوةِ ليلةٍ مجنونةٍ. بعبق قهوة سوداء ينبعث من مطبخك. برائحة عطرك التي تدعوني ثانيةً إلى فراشكِ. بأثر كلماتك حين تتكلمين عن بُقعة على قميصك الوردي. وعن خطيئتك حين اختلستِ نظرةً على دردشات هاتفي المحمول. عن الليالي الكثيرة التي سهرتِ فيها تتأملين وجهي وتهمسين بكلمات الحبِّ في أذني.

كنتُ مجنونًا تنام ليلى في قلبه وهو يحتضنها، فيحضر جنونها حين يغمضُ عينيه!!

وفي غيابكِ ..

تحضرُ في أحلامي الدافئة ذاكرةُ الطفولة، حيث جدّتي في مُصلَّاها، وأمي على مَكَنة الخياطة، وأبي في ورشته المنزلية يُصلح ساعة روليكس قديمة، وأبو إياد يضرب على الآلة الكاتبة ليخرج مجلّته الأدبية (شروق)، وأم فيصل تعبث بالآلة الحاسبة حيث عشقها القديم، ومحمّد يقف عند النّافذة، وابتسامة عثمان حين يريد أن يبثّ الرّعب في قلبك.

هؤلاء الرِّفاق حاضرون دومًا على خشبة المسرح في معظم فصولها ومشاهدها، يمثلون أدوارهم الرئيسة في حياتي. السِّتار يرفع دومًا على المعالم نفسها: مدرسة دار العلوم الدينية، المعتصم بالله والرّحمانية، المدرسة الليلية، مقليّة عم عبد الله اليماني، سبيل الشيخ محمد سفر، بقالة جمعة أم زكريا، صالون الحلّاق عبد الرّحمن فطاني، محل ناصر اليماني الفكهاني، دكّة العمدة محمد علي عياد، مسجد مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومركاز عم حسن خشّاب ورفاقه كوزمي وأبي فروة، عمارة البنك الأهلي، قهوة الوجيه سراج عياد عمدة سوق اللّيل؛ حيث شلّة نادي الزُّهور (قدّس الله أرواحهم)، ومعالم أخرى تحضر حين أكون مطاردًا من المجهول. دائمًا أجدني

في أحلامي مطاردًا من أعلى جبل خندمة حيث منزل عبد الناصر السِّيامي وجاره عطية الزّهراني، مرورًا بمنزل آل كابو صلاح وأسامة، ثم ملعب نادي الجزيرة، بيت ذي الخيري، منتدى حسين سمّان، زكي نواوي، آل فيرق، حلمي رماني، مخبز سيف اليماني.

ولكن من بين هذه الأحلام المتكررة وفصول المسرحية التي يعاد عرضها يختفي من ذاكرتي معلمان اثنان كنتُ كثير التّرداد عليهما: أحدهما منزل يسكن في أعلاه عدنان جامُو، وفي أسفله: بقالة عبد الله كيري. والآخر المنزل الكبير الذي يسكنه أبو هشام عزمي فطاني.

ما بين أنا وأنا ..

هناك الكثير ممّا يقال بعد أن يمزق المرء في حياته مجلدات كاملة من أوراق (تقويم) ثمانية وأربعين عامًا، ينظر خلالها في مرآة السِّنين، فيتراءى له في صفحتها أكثر من (أنا).

أوَّل هؤلاء كان طفلا لا يتكلَّم العربية أبدًا كل نطقه لأحرف ملايوية، ولا يعي كلامًا خارج هذه الثّقافة. وبقي متمسكًا بها حتى أمسك به شقيقه الأكبر يومًا وهو متأبط ملفًا أخضر اللّون ومضى به إلى المدرسة الرّحمانية الابتدائية.

كانت (الرّحمانية) مدرسة صباحية، ولكن مبناها احترق، فانتقلت إلى مبنى المدرسة (المشعلية) التي في حلقة الخضار القديمة في الخريق، وغدت مؤقّتًا مدرسةً مسائية. من الذكريات المؤلمة في ذلك اليوم أني رُفِضت رفضًا قاطعًا من قبل المسؤول عن قبول تلاميذ العام الدراسي الجديد أظنّه الأستاذ عبد الباسط فلمبان (رحمه الله)؛ لأنّي لم أتجاوب مع المعلِّم الذي حاول أن يسألني عن اسمي؛ فلم أكن أعِ عنه كلمةً واحدةً.

وبعد عدَّة محاولات فاشلة من شقيقي لإقناع المعلِّم أني سأتجاوز هذه المعضلة، وأدرك ركب التلاميذ الآخرين= جاءت فكرة أن ألتحق في سنتي الأولى بمدرسة خيرية لا تتبع وزارة المعارف في ذلك الوقت، وهي مدرسة (دار العلوم الدّينية)، حتى لا يتقدّم بي العمر، ويتجاوزني لداتي في الدِّراسة، وأكون متخلِّفًا عنهم دراسيًّا، وهو عاملٌ مؤثِّر نفسيًا.

هذه قصّة التحاقي بـ (دار العلوم الدينية) التي أشرتُ إليها البارحة، وأشرتُ إلى أنّ عامّة أبنائها من الجاليات الملايوية، وبخاصّة الذين لا يحملون أوراقًا ثبوتية، وأذكر قصّة محزنة لأحد أبناء هذه المدرسة؛ أرويها على لسانه على عجالة، يقول عدنان جامو (القصير):

لم أكتشف أنّي لم أكن مسجلا في مديرية جوازات العاصمة المقدسة كمقيم له حقّ الإقامة في البلد الحرام، إلا وأنا في الصّف الخامس

الابتدائي بمدرسة دار العلوم الدّينية، كنتُ أتحلى ببراءة الأطفال وسذاجتها الصّادقة معتقدًا أنّي مواطنٌ لدي كافّة حقوق المواطنة في أرضٍ ولدتُ على ثراها، ولا أعرف أرضًا سواها، ولا أترنّم بغير نشيدها الوطني. أخرجني يومها وكيل المدرسة الأستاذ حسنين خارج الصّف، وأخبرني في الرّواق أنّ إدارة المدرسة بحاجة إلى نسخة مصورة حديثة من رخصة إقامة والدي، ويجب أن أكون في هذه النسخة الحديثة ضمن المرافقين صحبة والدتي. بعد ثلاثة أيّام من هذه الحادثة وجدتُ نفسي خارجَ أسوار المدرسة بلا حقٍّ في مقاعدها الدِّراسية؛ لأنّي أقيم في البلد الذي وُلِدتُ فيه بصورة غير نظامية. اختبرتُ في تلك الأيَّام مشاعر الحرمان من حقِّي الإنساني في التّعليم دون مرارة ولا غُصّة؛ لأنِّي لم أكن أعي يومها تلك المشاعر، فقد كنتُ طفلا في العاشرة من عُمُره. تسارعت بعدها الأحداث بصورة لم أكن ألتقط فيها أنفاسي جيّدًا، حتى الليلة التي عانقتك فيها عند بيت المغربي. لحظة العناق تلك يا صديقي، ما زالت خالدةً بذاكرتي، وكانت تميمتي وأنا في الطّائرة متّجهًا إلى أرضٍ لم أسمع بها من قبل، قالت والدتي وهي تربت على وجهي: إنّها وطنك يا ولدي!! فصدّقتها. ولا زلتُ أشعر وأنا أقلِّب صفحات خمسة وثلاثين عامًا من ذاكرتي= أنِّي رحلتُ عن وطني.

قضيت في (دار العلوم الدّينية) عامًا واحدًا، ثم انتقلت إلى (الرّحمانية) بعد أن تجاوزت مشكلة (اللغة العربية)، وصرت ثنائي الثّقافة، ولكن في (الرّحمانية) عُدْتُ إلى (الأحادية) من جديد، وشيئًا فشيئًا ضعفت لغة الملايو عندي لعامل المدرسة والحي والشّارع والنّادي والرّفاق.

وجاء اليوم الذي وقفتُ فيه أمام أكثر من ستِّ آلاف طالبة في (معهد البعوث الإسلامية في جالا–جنوب تايلاند)، وطُلِب مني فجاءة أثناء زيارتي الصّباحية أن ألقي كلمةً توجيهية للطالبات. رفضتُ واعتذرت، ولكن وكيل المعهد كان أكثر إصرارًا وعزيمة، فاستسلمتُ وصعدتُ المنصّة ولم أر أمامي سوى البياض الذي لا ينتهي، فألقيت السلام، وحمدتُ الله، ثمّ ساد السّاحة صمتٌ رهيبٌ حتى سمعت همسات ضاحكة، فدعوتُ لهنّ بخيرٍ، ونزلتُ عن المنصّة.

لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة بلغتهنّ؛ لأنّ الذي يقف على المنصّة في ذلك الوقت ليس هو نفسه ذلك الطّفل الذي لم يكن يتكلم بغير لغة الملايو، ورُفِض في المدرسة (الرّحمانية) بسبب ذلك.

وها أنتَ يا توفيق، لا زالت هذه المعضلة تقف بينك وبين المدرسة في بانكوك. وليكن لك في أبيك عِظةٌ وذكرى، فلا تُعِدِ المأساة نفسها. بل أنتَ أمام فرص عدّة لتتّصل بأكثر من ثقافة حيَّة، فاجتهد في تعلم

السّيامية فهي بوابتك إلى مجتمعك، وطوّر لغة الملايو لديك فهي جزءٌ أساسٌ في هويتك، وحين تبدأ تعلّم الإنجليزية في المناهج المدرسية اجتهد في إتقانها حتى توسّع دائرة خياراتك المهنية.

ولكن، إذا أردتَ أن تعبّر عن نفسك، وتبوح بمشاعرك، فلا تكتب إلا باللغة العربية، فهي اللّغة العبقرية المعجِزة الخالدة؛ إنّها لغة الفكر والشّعر والموسيقى!!

الأحد 28 صفر – 27 أكتوبر

جِدٌّ وهزلٌ!!

لحظة سكون غير منتظرة، تشعر بها وسط صخبك اليومي المعتاد. تنتزعك من بين زملائك في العمل، وتعيدك إلى حيّك القديم، وإلى أزقتك، إلى مقاعد الدراسة. كل الذكريات المؤلمة، والمطاردات التي تقطع في الفراش أنفاسك= تعود إليك أكثر ألمًا، وبشعور أعمق.

لا زِلتُ أعِدُ فريقي (درّاج الملتقى) كلّ أسبوعٍ: أنّي سأكون معهم في يوم التّمرين الرّسمي للفريق (كلّ إثنين)، ثم أتخلّف عنهم لأدنى طارئ. وأسوِّف في العودة والانتظام في تمرين الفريق الذي بحمد الله يتطوّر كلّ أسبوعٍ، يكثرون عددًا، ويزدادون حماسةً، ويدوّي صوتهم هُتافًا (درّاج المتلقى .. همّة، وصحّة، وقوّة).

هسيسها ..

افتحي القلبَ، واسكبيني في الوريد، واملئيني حدّ ارتواء الوليد، واتركيني فوضويًا على الشّفار العذابِ لأرتوي حبًّا، ومن وراء الحبِّ حبٌّ

لا ينتهي!! أهوى على يديكِ الموتَ؛ فاقتليني في الهوى وصلاً، وقولي للدُّنا: هذا قتيلي. هذا الوَلِه مسّ حدّ أشعاري، وانتهى عزفًا بأوتاري، يتلهى في الهوى فهوى رُغم تحذيري، وبمداد قلبي خط خاتمةً على ماءِ الحياة!!

حياةُ الكلمة ..

إنّ للكلمة حياة، وهي: أن تولد من رحم معاناة الكاتب. فلا تكتب إلا بإحساس وصدقٍ، اكتب ما تشعر به، وما تريد أن تقوله، لا ما يريده النّاسُ. احترم قرّاءك، فجوِّد ما تكتبه، واعتنِ بتصحيحه إملائيًا ونحويًا ولغويًا، واعتن بعلامات الترقيم؛ فإنه دليلٌ على عنايتك بهم، وحرصك على إفادتهم.

القدرات تختلف باختلاف المواهب التي وهبها الله تعالى لكلٍ منّا، ولكن المواهب مكتسبة، والقدارت تُنمّى، والتدريب يصقل الموهبة، هذه أمورٌ لا يختلف عليها أحد، فهي من القضايا التي لا ينتطح فيها عنزان (على حدِّ التعبير القديم).

من أين لنا أن نحكم على مقدرتنا في الكتابة إن لم نمارس الكتابة؟! وبجانب ذلك نقرأ أساليب الكُتّاب، ونتعرف على أسرار الكتابة. لا يجبُ علينا

نشر ما كتبناه، بل علينا البحث عمّن نثق في طرائقهم الأدبية، ونثق في نصحهم وأمانتهم، فنعرضها عليهم، لينيروا لنا الدّرب.

ولا يجب أن نستهين بأي ورقة نكتبها، بل علينا أن نعتزّ بها، فهي تمثِّل مرحلة فكرية مهمة في حياتنا، بل لعل تلك القصاصات والورقات تكون نقطة تحوُّل كبيرة في حياتنا الأدبية من حيثُ لا ندري!!

يُصاب الرِّوائي الكولمبي غابريال ماركيز غارسيا بارتعاشٍ في أصابع يديه إذا أراد أن يمزِّق أيّة ورقة، ولازمتُه هذه الحالة إلى آخر حياته، ويعزو أسباب ذلك إلى ليلةٍ زاره فيها الشاعر خورخي غيتان دوران، وطلب منه شيئًا ينشره في مجلة (ميتو). وكان غارسيا ليلتها يحزم أمتعته للسفر، يقول: كنتُ قد انتهيتُ من مراجعة أوراقي، فوضعتُ في مكان أمين ما رأيتُ أنه جديرٌ بالحفظ، ومزَّقتُ ما هو ميؤوسٌ منه.

وخلاصة القول: أنّ ذلك الشّاعر أمسك بسلّة المهملات، وبدأ يبحث فيها، فعثر على فصلٍ كامل من رواية مزّقها غارسيا، فقام بترقيع ذلك الفصل، ونشره على أنه قصة قصيرة. يقول غارسيا: وهكذا استُعيدت من القمامة إحدى قصصي القصيرة التي قوبلت بأفضل إطراء من جانب النّقّاد، ومن جانب القُرّاء على وجه الخصوص.

لذلك ما نراه نحنُ من كتاباتنا سخيفًا وساذجًا قد يكون في حقيقته رائعًا وبديعًا ومن أجمل ما كتبناه، وما نراه رائعًا وبديعًا قد يكون على العكس تمامًا سخيفًا وساذجًا، فنقد العارفين بطرق النّقد مع الصِّدق وإرادة النّصح مهمٌ جدًّا في تنمية الأسلوب وتطويره.

يريد كثيرٌ من النّاسِ أن يصبحوا كُتّابًا، وأن يُعرفوا بين الناس بأنهم كُتابٌ، وأن يُمدحوا على ذلك، دون أن يدركوا أنه يجب عليهم أن يصيروا قراءً قبل ذلك. وإذا كتبوا لم يكتبوا من معاناة وإحساس، بل يكتبون دون عناء يذكر، ولعله لم يسبق تلك الكتابة أي إيحاء أو فكر، فتخرج الكلمات لا حياة فيها.

يكتبون ما يعتقدون أن الناس يريدون قراءته، تمامًا كما يكتب كُتّاب الصّحف اليومية، ولذلك نادرًا ما تجد لأحدهم (وهم كثير) مَن يتابع مقالاته اليومية، يقول الرّوائي البيروفي ماريو فارغاس يوسا: (في اللحظة التي يجلس فيها أي كاتب ليكتب؛ فإنه يقرر إن كان سيصبح كاتبًا جيِّدًا أم كاتبًا رديئًا).

يعلقُ غابريل ماركيز غارسيا على هذه المقولة بقصّة، يقول: جاء إلى بيتي بمدينة مكسيكو شابٌ في الثّالثة والعشرين من العمر، كان قد نشر روايته الأولى قبل ستّة شهور، وكان يشعر بالنّصر في تلك الليلة؛ لأنّه

سلّم مخطوطة روايته الثانية إلى ناشر. أبديتُ له حيرتي لتسرعه، وهو ما يزال في بداية الطريق. فردّ عليّ باستهتار لا زلتُ أرغب في تذكره على أنه استهتارٌ لا إرادي: أنتَ عليك أن تفكِّر كثيرًا قبل أن تكتب؛ لأنّ العالم بأسره ينتظر ما ستكتبه، أمّا أنا فأستطيع أن أكتب بسرعة؛ لأنّ قلّة من النّاس يقرؤونني. عندئذ وبإيحاءٍ مبهرٍ فهمت مغزى عبارة ماريو فارغاس يوسا، فذلك الشّاب قرّر سلفًا أن يكون كاتبًا رديئًا.

ديوان الأصمعي..

للأديب الشّيخ علي الطَنطاوي مقال عنوَن له بـ (ديوان الأصمعي) خلط فيه الجدّ بالهزل، والقديم بالجديد، والمفيد المضنون به على غير أهله بالبَدَهي المُدْرَك ممَّن هم ليسوا بأهلِه. وكنتُ قديمًا كتبتُ شيئًا على مثال ما كتبه الطّنطاوي أترجم فيه لبعض إخوتي الذين عرفتهم من باب الدّعابة والمُزاح، وإدخال السّرور عليهم، فكتبتُ عن أخي عبد القادر يوسف فطاني المقيم بمكة، وعن أخي أبي دُحمي عبد الله فطاني المقيم ببانكوك. وضمّنتُ المقالَ أمورًا لا يدركها إلا خواصّهما.

وقد نشرتُ الترجمتين في صفحتي على (الفيس بوك)، ولأنّ ما كُتب هناك مظنّة عدم وقوفكم عليه باستثناء سفيان الذي أعتقد جازمًا أنّه

وقف عليهما، وقرأهما؛ فقد عدْتُ إليهما وهذّبتُ بعض ما فيهما من عبارات موهمة، وأعدتُ صياغة بعضِ الجمل المشكِلةِ غير الواضحة.

عبد القادر الأعرج، روائي وناقد ومؤرِّخ ..

سئل عنه الرّوائي الجزائري واسيني الأعرج، فأجاب: هو أحد أبناء عائلة الأعرج الكبيرة الممتدة من الشرق إلى الغرب، وهو ملهمي الأول، لم ألتق به أبدًا، ولكني قرأت أعماله الكاملة، وأستمع إلى قصص الكبار عنه، وأتمنى أن أكون وارث مجدِّه الأدبيّ.

قرأتُ هذا الحوار في "الصّنداي تايمز البريطانية"، وتردد سؤالٌ في ذهني؛ أين وجد هذه الأعمال الكاملة؟ أكاد أجزم أن واسيني الأعرج يكذب في أنّه قرأ أعمال عبد القادر، وإلا لو كان كذلك لطرقت روايات واسيني أبواب العالمية.

ولمن لا يعرف عبد القادر الأعرج، أقول: عبد القادر الأعرج (أو بالدّارجة القديمة: كادي كيجؤ) خليطٌ من عدّة ثقافات؛ إذ وُلِد في جنوب شرق آسيا، ونشأ وتكوّن تكوينه الأوّلي في جنوب غربها. عصامي شِعبوي ملتقاوي مَعيني تأبوغي، اجتمعت فيه الخصال المتضادّة.

له من الأبناء أحمد الذي لم يرث عن أبيه عرجته، ولكنه ورث عنه طريقته في تنفيذ الرّكلات الحُرّة، فكان يرسلها مقوّسة لا تُصدّ ولا تُردّ، فلُقّب بـ (إِسكوروبي)، وله ابن آخر سمّاه على لعبة شهيرة أدمنها الأعرج في صغره (يو يو)، وابن ثالث يتوّسط هذين فَرَق عن أبيه شكلا ومضمونًا.

ومن الرّوايات التي انتشرت لعبد القادر الأعرج: (ذات السّلال الهندية)، وهي في الأصل سيرة ذاتية أرّخ فيها لمسيرة طبيب عرفه عبد القادر في دهاليز دار العلوم. ومن خلال هذه الرِّواية عرف العالم قلمًا روائيًا نضج قبل أن يعرفه أحدٌ. ثم توالت أعماله الأدبية، منها ثلاثيته الشّهيرة: عشرة آلاف بيت ودكّة، وسحائبُ مزنة، وراضي وما راضي.

يؤرّخ في الجزء الأوّل للأسر الملكية التي نزحت عن مملكة فطاني إلى الحجاز وأوروبا إبّان الاحتلال البريطاني. وفي الجزء الثّاني يُخلِّد في ذاكرة الفطانيين أعذب قصّة حبّ في أدبيات شعوب الملايو. أمّا الجزء الثّالث؛ فهو رواية هزلية ساخرة كوميديا سوداء، يصوّر فيها علاقة صداقة قامت بين اثنين، جمعتهما مقاعد الدّراسة، ودرات بهما الدّنيا بأحداثها، فتارّة تفرقهما وتارّة تجمعهما.

ولعبد القادر الأعرج كتابات نقدية عدّة، منها: (المراجعات) وفيها تعريف بأهم أعمال أعضاء رابطة أدباء أحياء مكة الاجتماعية والأدبية والفكرية، ولولا هذه (المراجعات) لم يسّلط الضوء على تلك الأعمال، ولا عرفها الناس. ومن خلال هذه المراجعات عرفنا الأعرج مؤرِّخًا؛ لأنّه ترجم لأعضاء هذه الرّابطة، ونقل تجربتهم إلى الأجيال يتوارثونها جيلا بعد جيل.

اعتزل الأعرج الكتابة في سنواته الأخيرة، واحترف السّياحة الدّينية، مكتفيا من المجد الأدبي بأن يبقى حيًّا في ذاكرة عشّاقه. وقد جُمِعَت مسوداته الأدبية من الصّحف والدّوريات في محاولة من رفيقِ دربه الأديب الصِّيني (سَين لاسأ) لكتابة سيرته الذّاتية، حتّى لا تغيب شمسُه عن ذاكرة الفطانيين.

أعاني اللّيلة جفافًا في عيني يُسبِّب لي (حرقانًا)، فلعلّي أنقلُ لكم ما كتبته عن (أبي دُحمي) في وقتٍ لاحق!!

تصبحون على خير،،

الإثنين 29 صفر – 28 أكتوبر

أعزِزْ عليَّ أبا اليقظان!!

لا أزعمُ أنّكِ كنتِ حاضرةً دومًا بداخلي في كلّ أحوالي، فالنّفس تضطرب بها أمواجُ الحياة، وتتكسر أحلامُها على صخرتها، ولكني لا أذكر أنّي استدعيتُك مرّةً وخذلني طيفُك. تلك لحظاتٌ احتجتُ فيها لتجليات فكر ونفثة روح، فأجدكِ دومًا مرسلة الفكر، حاضرة العبارة، مع نسائمك المعطّرة وأغنيةٍ من أغاني الحقول!!

مبارك يا توفي، هذه خطوة في الطّريق، جاءت متأخّرة نوعًا ما، ولكنها خطوة واثقة. لا أدري لماذا لم تخبرني بها بنفسك؟

وتركت ماما هي التي تنقل لي هذه البشرى، أعني بشرى قبولك في الصّفّ الرّابع منتظمًا وليس مستمعًا كما فهمتُ من ماما في اتّصال سابق، وأنّه سوف يتاح لك دخول اختبارات الفصل الثّاني.

اتّصلتُ بك صباح اليوم؛ لأبارك لك هذه الخطوة المباركة، وأشكرك على جهدك في تعلّم مبادئ اللّغة السّياميّة، والتي مهّدت لقبولك في

معهد بانكوك الإسلامي. وحين لم تردّ على اتّصالي اتّصلتُ على (حمودي)، فأخبرني أنّك ذهبتَ إلى المعهد لتسلم أغراضك المدرسية من ملابس وكتب وغير ذلك.

وفي غمرة انشغالي بالحديث مع (حمودي) عنك، نسيتُ أن أشكره على جهده المبذول في تلقينك مفردات هذه اللّغة، وكيف أنّه خطى بك في هذه اللّغة خطواتٍ كبيرة. وحقُّه أن يُشكر، وأنا أقترح عليكَ أن تشتري له هدية رمزية (سنكرز، أو كيكات) تعبّر له عن تقديرك لما بذله معك.

إنّ التّاريخ سوف يكتب في دفاتره أنّه معلمك الأوّل في (السّيامية)، وإن نسيتَ هذا الفضلَ يومًا، أو جحدْتَه (حاشاك).

الجميل في الأمر أنّ هذا كان اختيارك، اخترتَ أن تتعلّم مع أخيك، وفضّلته على ابنة خالك بعد أن قطعتَ معها شوطًا. وهذه شجاعةٌ أحمدُها فيك؛ وضعتَ ثقتك في أخيك، ولم يخيّبك، وكان عند حسن ظنّك.

في القصص المصوّرة: عائلة إجرامية عاشت في الغرب الأمريكي (الإخوة دالتون)، لا يفترقون داخل زنزانات السّجون أو خارج أسوارها، يجمعهم عدّة قواسم مشتركة؛ ملامح الوجه نفسها، الغباء بدرجات نِسب

متفاوتة من الكبير أقلّهم غباءً وأقصرهم طولا إلى الصّغير أكثرهم غباءً وطولًا، عدوّهم اللّدود (لاكي لوك) راعي البقر الوحيد في الغرب الأمريكي البعيد الذي يطلق النّار حرفيًا أسرع من ظله (سأحرص أن أعيد إليكم المجموعة الكاملة التي خلفتموها بمكتبتي).

قصص (لاكي لوك) المصوّرة ليست قصصًا هزليةً للتّسلية فقط؛ بل نقدٌ ساخرٌ، خليطٌ من العبث والنّقد اللّاذع لسياسة الحكومات الأمريكية في تلك الفترة الزّمنية. فنقدت السياسات الطّبقية والإقطاعية، والممارسات العنصرية ضدّ العبيد السّود، واغتصاب أراضي الهنود الحُمر، في قالب هزلي ساخر.

الجميل في الإخوة دالتون بعيدًا عن كونهم أشقياء حمقى: أنّهم لا يفترقون، قوّتهم رغم حمقهم وغبائهم في اجتماعهم.

ولا يستطيع (لاكي لوك) أن ينتصر عليهم إلا بعد أن يفرّق جمعهم، ويوقع الخلاف بينهم، السّياسة الأمريكية نفسها؛ فرِّق تسد.

قد تكون أصغر إخوتك يا توفي، ولكنك تستطيع أنّ تكون الُعقدة التي تُعقد على علائقهم، فلا تزال مشدودة العُرى (بعد الله) بك. ثِق في قدراتك، وثِق في حبّهم لك، فقد تكون في (الإخوة دراؤه)، مثل (جو)

في (الإخوة دالتون)، الشّخصية التي يجتمع عليها إخوته، ولكن على الخير، لا يكسر جمعَهم إلا عصى المنون.

إنّ ذِكْر (الإخوة دالتون) ليس إلا إثارة لذاكرة الطّفل فيك، ولكن الحديث يُساق لواقعة تاريخية ليس لها مثيل في تاريخ النّاس القديم والحديث؛ أعني واقعة المؤاخاة التي جرت بين الأنصار والمهاجرين. الأنصار أهل المدينة أصحاب الأرض والمال والدّار، والمهاجرون الذين تركوا بمكّة أموالهم وديارهم وأهليهم. فعقد النّبيُّ صلى الله عليه وسلم رابطة أخوّة بين المهاجري والأنصاري، يتقاسمان المال في الحياة، ويتوارثانه في الممات، وبقي هذا العقد فيهما عقدًا لازمًا، حتى نُسخ التّوارث بعد فتح خيبر، ونزل الأنصار عن غنائم تلك الأرض –التي سُمّيت خيبر؛ لخصوبتها–، لتكون خالصةً لإخوانهم المهاجرين.

ومن أشهر قصص المؤاخاة في مبدئها قصة مؤاخاة عبد الرّحمن بن عوف مع سعد بن الرّبيع، وسلمان الفارسي مع أبي الدّرداء.

هذا عقد المؤاخاة، وهناك عقد أقوى وهو عقد الأخوة في العقيدة التي بين عامّة أصحاب النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، هذه الأخوة التي تمثّلت في مصعب بن عمير حين مرّ بعد غزوة بدرٍ، فرأى أخاه أبا عزيز أسيرًا بيد أحد الأنصار، فقال للأنصاريّ: أُشْدُدْ يديك به، فإنّ له أمًّا بمكة

كثيرة المال. فقال أبو عزيز: هذه وصاتُك بي يا أخي؟! فقال مصعبٌ: إنّه أخي دونك.

ومن طريف ما يُروى في هذا الباب (الأخوّة التي جمعت بين الصّحابة): أنّ النّحاة لديهم شاهدٌ مأثورٌ يحتجّون فيه باب (التّعجب) لصيغة (أفْعِلْ به)، وعَلِق دون غيره بذاكرتي لقوّة معناه، وهو: أعزِزْ عليّ أبا اليقظان أن أراك صريعًا مجندلًا.

يُقال: إنّ عمّار بن ياسر كان يقاتل في معسكرٍ وطلحة بين عبيد الله يقاتل في المعسكر المقابل، فمرّ أثناء المعركة طلحة بن عبيد الله على عمّار بن ياسر وهو مقتولٌ، فنزل عن فرسه، ورفع رأس عمّار، ووضعه في حِجره، وجعل يمسح التّراب عن وجهه، وهو يقول: أعزِزْ عليَّ أبا اليقظان أن أراك صريعًا مجدّلًا.

فتنةٌ عصفت بهم، تأوّلوا فيها لأنفسهم، يطلبون فيها الحقّ، ولكنها لم تستطع أن تقتلع غرس الأخوّة التي غرسها النّبيُّ صلى الله عليه وسلم بيده في قلوبهم، ثمّ هم يوم القيامة إخوانٌ على سرر متقابلين قد نزع الله ما في قلوبهم من غِلٍّ. وقصّة هذا الشّاهد النّحوي الذي أورده ابن الوردي في (تحفته) رغم قوّة أثره في الوجدان، إلا أنّه لا يصحّ ولا يثبت،

فقد قتل طلحة بن عبيد الله في موقعة الجمل، ومات عمّار بن ياسر بعد ذلك في موقعة صِفِّين.

ويُروى هذا الشّاهد على لسان عليّ بن أبي طالب في موقعة الجمل، وأنّه مرّ على طلحة بن عبيد الله وهو مقتولٌ، فمسح التُّراب عن وجهه، وهو يقول: أعْزِزْ عليَّ أبا محمّد أن أراك مُجدّلا تحت نجوم السّماء، إلى الله أشكو عُجري وبُجري.

وهذه القصّة أقرب إلى القبول، وإن لم ترد إلا في كتب النُّحاة وأهل الأدب، وأن تكون هذه الواقعة حدثت في (موقعة الجمل) التي جرت بين عليّ بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم أجمعين.

هذا الشّاهد النّحوي لم أقف عليه يومًا في كتب النّحاة، إلا واستحضرتُ عظم ما قام في قلب قائله من حبّ أخوّي صادقٍ، فتخنقني العبرة. وإذا كنتُ مَن يلقي الدّرسَ فإنّي أعجزُ عن الاستمرار فيه إلا بعد أن تهدأ نفسي. رضي الله عنهم أجمعين.

وقد كنتُ أعتقد أنّ الأخوّة من أقوى العلائق، وأنّ الأخ رغم حبّه لأبنائه؛ لكنّه لو خُيِّر بينهم وبين أحد من إخوته؛ لاختار أخاه، وضحّى بأبنائه.

هنيئًا لكم، فقد اجتمع شملكم اللّيلة يا (إخوة دراؤه) بمقدم سفيان من ماليزيا، حفظكم الله، وتصبحون على خير.

الثّلاثاء 1 ربيع الأوّل – 29 أكتوبر

مَثَلُ النَّخلة!!

رأيتني -في الذّاكرة- واقفًا على رصيف أتأمّل المارّة يخطِرون في أرديتهم وزينتهم، يحملون وجوهًا لا تقرأ فيها إلا الحيرة والخوف، يجرّون خلفهم ماضيًا عجزوا عن الفرار منه. يحاولون تجاوزَه، وهو يزحف خلفهم ببطءٍ وترقُّبِ حيّةٍ اختارت فريستها، فهي لا تغيب عنها. وفي حمأة هذا الاستغراق المزدحم بالوجوه رأيتُني أجلسُ إليكِ في زاوية المقهى، أحاول أن أتبيَّن الموضع الذي وسَمَتْكِ فيه الحياةُ بوَسمها، فلم تشبهكِ أنثى.

غنيٌّ عن القول أنّي حين أخاطب واحدًا منكم؛ فإنّما أخاطبكم جميعًا من خلاله، وهذا من البَدَهي الذي يُستدرَكُ عليّ فيه من قِبل بعض الفضلاء ممّن يلحظون كثرة الموضوعات التي تدور حول واحدٍ منكم دون البقيّة. وهذه إشارةٌ أجزم أنّكم تبتسمون عند قراءتها، ولكن ما كلّ أحدٍ يستطيع أن يصادق أبناءه ويحافظ على الحدود الفاصلة في علاقة الأب بابنه في الوقت نفسه، وهذا من فضل الله علينا.

ولا يعـني هـذا أنّـه لم يحصـل أن تجـاوز أحـدٌ مـنكم خطوطـه الحمـراء، واختلطـت عليـه الأمـور بـين الصّـديق والأب، فـأرده بحـزمٍ، حـتى تثبـت بوصلته، ولا تضطرب.

أدركـتُ خـلال مسـيرتي التّعليميـة كطالـب، أنّ أهـم جـزء في العمليـة التّعليمية هو المعلم؛ إنّ السّرّ في كون جيل الصّحابة جيلٌ عظيمٌ فريدٌ غير قابل للتّكرار أنّ المعلمَ هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. وهكذا تجد أنّ العظماء يقف خلفهم موجّهون عظماء، كانوا جزءًا من عظمتهم، وإن جهلهـم النّـاس. قـاموا بـدور المعلـم في فـترة مـن الفـترات، وأحـدثوا النُّقلـة الفارقـة في مسـيرة الحيـاة، سـواء كانـت الأمّ أو الأب أو الأخ أو الأخت أو العمّ أو الخال أو الجار أو المعلم في المدرسة. وقد يكـون فـردًا واحدًا، وقد يكـون عـدّة أفـراد، كلّ شـارك في صناعة هذا المنتج العظيم بطريقةٍ ما.

ولـذلك أُثِـرَ عـن الإمـام أحمـد أنّـه دعـا لشـيخه محمّـد بـن إدريـس الشّـافعي أربعين سنة، يخصّـه في دعائه بالسّـحر يسـمّيه باسمه لعظيم أثره فيه، حتى سأله ابنُه عبد الله عنه: أيّ رجلٍ كان الشّافعيّ؟ لكثرة ما يسمعه يدعو لـه، فقال أحمد: كان الشّافعيّ كالشّمس للدّنيا، وكالعافية للبدن، فهل

تجد لهذين من خلف أو عِوض. ولقي ابنًا للشّافعيّ مرّة، فقال له: أبوك من السّتّة الذين أدعو لهم في السّحر.

والطّريف أنّ في قائمة الإمام أحمد لصًّا، اسمه: أبو إسحاق، لقيه في سجن المأمون.

ولذلك تأسرني هذه العلائق التي تقوم بين التّلميذ ومعلمه، وقد خبرتُ خلال حياتي العلمية أكثر من معلم ترك أثرًا في نفسي، ولكنه دون الأثر الذي تركه الشّافعي في أحمد، فلا يرى عنه خلفًا ولا عِوضًا كالشّمس للدّنيا. أذكرهم بخير وأدعو لهم في الجملة، ولكن لا أخصّ أحدًا منهم بدعوةٍ خاصّة كالورد اليومي.

ومن أجمل الرّوايات التي قرأتُها في هذا الجانب الإنساني: الرّواية التي كتبها الرّوائي الإندونيسي أندريا هيراتا (عساكر قوس قزح)، والتي بيع منها في إندونيسيا أكثر من خمس ملايين نسخة، وصدرت نسختها العربية عن دار المنى بلندن. وكثيرًا ما أرشح هذه الرّواية للناشئة، وقد سرّني أنّ سفيان استجاب لتوصيتي، وقرأها.

الجوانب المؤثّرة والملهمة في هذا الرّواية كثيرة، ومنها سبب تأليفها؛ فـ (هيراتا) كتب الرّواية وفاءً لعهد قطعه على نفسه حين كان تلميذًا في

أفقر مدرسة ابتدائية في إندونيسيا؛ فالرّواية تتحدث عنه وعن زملائه الأحد عشر تلميذًا، و(عساكر قوس قزح) هو اللّقب الذي أطلقته عليهم معلمتهم الفتاة اللّطيفة (بُوْ مُسْ)، كما ينادونها.

لقد تركت هذه المعلمة في نفوس (عساكر قوس قزح) أثرًا بالغًا، نفختْ فيهم روحها، فأذكت فيهم حبّ العلم والشّجاعة والشّرف والكرامة؛ حتى نذر أندريا هيراتا في تلك الأيّام أنّه إنْ مدّ الله في عمره، ومكّنه من أدوات الكتابة؛ ليكتبنّ روايةً يخلّد فيها ذِكْر هذه المعلمة، وفضلها عليه.

وتمضي الأيّام بـ (هيراتا)، فيتخرّج ويواصل دارسته، وينال منحةً لإكمال دراسته (الماستر في الاتصالات) في إنجلترا، ثم يعود إلى إندونيسيا، ويتوظّف، ويُطوى ذلك الوعد في ذاكرة هذه السّنوات كلّها؛ حتى يضرب إعصار (توسونامي) عام 2002 جزيرة إتشيه، ويتطوّع إندريا ضمن الفرق التطوعية لإغاثة أهالي الجزيرة، فيقف على أطلال مدرسة فيها، وتمرّ حافلتُه بأطفال يرفعون لوحاتٍ (أنقذوا مدرستنا)؛ فتذكّر مدرسته القديمة وتذكّر زملاءه عساكر قوس قزح، وتذكّر معلمته (بُوْ مُسْ)، وتذكّر وعده الذي قطعه على نفسه؛ فكتب الرّواية التي ألهمت شباب إندونيسيا في تحدي الفقر، ومواصلة التّعليم، وذكّرهم بمعلميهم

وفضلهم عليهم، ففي إندونيسيا والعالم نسخٌ لا تُحصى كثرةً من أمثال (بُوْ مُسْ).

وشقيقتي أمّ فيصل نسختي الحيّة من (بُوْ مُسْ)، حفظها الله، وغفر لوالدَينا، وأجزل لهما المثوبةَ، وكتب لهم الرّفعة في الدّرجات.

قديمًا قالوا: إنّ المعلم كالشّمعة التي تحترق لتلاميذها، وهذا حقٌّ إن فهمنا أنّ المقصود بالاحتراق أنّه يعطيك وقتَه الذي هو عُمُره، ويخصّك به ليبنيك. وإن كان المقصود به الاحتراق الذي يعني أنّ المعلم يهدمُ نفسَه، ويهملها= فهذا المثل ليس بجيّد. فالعملية التعليمية يجب أن تستثمر في الجانبين، وأنّ المعلم في هذا المعنى ينبغي أن يكون مثل النّخلة، يضربُ بها المثل في العلو وفي العطاء. وهو المعنى الذي جاء في حديث النّبي صلى الله عليه وسلم أنّ مثلَ المؤمن مثلُ النّخلةِ؛ لا يسقط ورقُها.

الأربعاء 2 ربيع الأوّل – 30 أكتوبر

رائحة الحبّ

ذاكـرة شـوارع المدينـة لا تعـرفني، وأشـرعة المرفأ لا تحتفـل بأناشـيدي، وعـزف نايـي القـديم لا يشـجي المـارّة. غريـبٌ أنا في مـدينتكِ، وجـوه الأطفال بلا ملامح، ولا ضحكات.

ما أكثر ما مشيتُ في شوارعها، وتردّدت على بائعي الكتب في أزقّتها، رواياتها لا تكلمني، وقصصها متاهةٌ لا نجاةَ منها. ورغمُ ذلك رأيتُك من بـين الزّحـام، واخـترتُ أن أتبعـكِ، اخـترتُ أن أتبـع غريـزة الحيـاة، وأن أستجيب لنداء الأنوثة فيكِ، وأستسلم للحبّ.

اللّيلـة سـنحتفل بمقـدم ضـيف جديـد، سـبطٌ مـن أسـباط جـدّكم أحمـد سـامق: عـدي بـن عبـد الله بـن إسـحاق فلمبـان، بِكْـر أبنـاء (الجـوكر) السّعيد.

الحفيد السّابع لعمّتكم أم فيصل (حفظها الله، وبارك في ذرّيتها).

وعبد الله هو الابن الرّابع من أبناء أم فيصل، يختلف عن أبنائها بأنّه أكثرهم جسارةً وعِنادًا.

وهو متفرّدٌ في مواهبه عن إخوته ببنية جسدية مرنة شديدة المرونة، فمن ثمّ عَلِق به لقب (الجوكر) وسط أصدقائه. تمرّد عن الدّراسة وانقطع عنها، ثمّ عاد إليها بعد أن أفرغ كلّ ما في نفسه ممّا يتعلّق به الشّباب عادة. وتجاوز عدّة تحديات، وانتهى به الأمر موظفًّا في (أرامكو).

أحتار في مثل هذه المناسبات الاجتماعية كيف أكون جزءًا فيها، يبقى في ذاكرة أصحابها. والعُرف الاجتماعي أن يُحمل فيها هدايا عينية تزيد في جوّها بهجةً وسرورًا، ولكن الخيارات كثيرة، والنّفس تبحث عن المميّز الذي يُحفر في ذاكرة السّنين.

وُلد لابن قيم الجوزية ولدٌ، فأهداه مُؤلَّفًا في أحكام المولود (تحفة المودود في أحكام المولود)، جمع فيه ابن القيم كلّ ما يتعلّق بالمولود من أحكام شرعية؛ بدءًا باستحباب طلب الولد، ثم كراهة تسخط البنات، ثم استحباب التّأذين في أذنه اليُمنى والإقامة في اليُسرى، ثم استحباب تحنيكه، ثم حلق رأسه والتّصدق بوزنه، ثم في أحكام تسميته، ثم حكم

ثقب أذن الصّبي والبنت، ثم حكم بول الغلام والجارية في فترة الرّضاع، ثم حكم ريقه ولعابه، ثم في جواز حمله في الصّلاة دون التّحقق من طهارة ثيابه، ثم استحباب تقبليهم، ثم في وجوب تربية الأولاد وتأديبهم والعدل بينهم، في فصولٍ ماتعةٍ أخرى تتعلّق بأطوار الإنسان، وأحوال حياته.

ومكث الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني زمنًا يلحّ في الدّعاء أن يُرزق ابنًا، فلم يُرزق من زوجه، فتسرّى بجاريةٍ فولدت له غلامًا، فلما علمت زوجه وكانت امرأة صالحةً غلبَتْها غيرةُ النِّساء فدعت على الولد أن لا يُفلح في الدّنيا.

فجزع الحافظ ابن حجر أن يُستجاب لها؛ فألّف له كتابًا (بلوغ المرام في أدلّة الأحكام) على فقه الشّافعية، وبذل الغاية في انتقاء الأحاديث؛ وضمن لمن يحفظه ويُعنى بدارسته الإمامةَ في الفقه والحديث، وأراد بذلك أن يعتني به ولدُه فيُدرك الفلاحَ في الدّنيا والآخرة.

فهذا الولد كان سببًا في هذا العلم النّافع الذي انتفعتِ الأمّة به، كانت هدية والد له بمثابة وقفٍ ينتفع به النّاس إلى يوم القيامة، حسناتٍ تدوّن في صحائف المولود، لتتقدمه يوم القيامة كأمثال الجبال، فما أجلّها من هدية!!

تعبيرٌ صادقٌ عن الحبّ غير المشروط الذي يحمله الأب في صدره لأبنائه، وليس (هياطًا) بحشد الأموال الورقية حول مهد الطّفل، ونشر ذلك (الهياط) في وسائل التّواصل.

تعبيرٌ عن الحبّ غير المسؤول، وهو إلى السّفه أقرب.

الهدايا التي يتلقّاها الأبناء كثيرة، وكلّها تعبيرٌ عن مشاعر الحبّ. ولكنّ أجلّ تلك الهدايات هي التي تُحْدِث تغييرًا في حياته، وتحدّد له مسارَه.

كان من أثر حرب الخليج عام **1990** تعليق الدّراسة في مدارس المملكة؛ كنتُ يومها في ثانوية الملك عبد العزيز في السّنّة الأخيرة، فكان من أثر ذلك أنّي كنتُ أرافق أبي لصلاة الفجر في المسجد الحرام، وكنتُ حديثَ عهدٍ باستقامةٍ، والالتحاق بحلقة تحفيظ القرآن الكريم في حلقات الكبار بمعهد الأرقم بن أبي الأرقم بالمسجد الحرام–الدّور الثّاني جهة القصور الملكية.

وفي هذه الحلقات التقيتُ برُفقة قديمة من زملائي في المرحلة المتوسطة، اتّصلت لقاءاتنا بعد صلاة العشاء في صحن المسجد الحرام، وعرفتُ منهم أنّهم يجلسون بعد صلاة الفجر إلى حلقة الشّيخ العلّامة محمّد خيرو حجازي (الشّهير بالشّيخ مكّي)، من علماء الهند. وكان الشّيخ

يقرأ فيها كتابين (تفسير الجلالين، وجامع التّرمذيّ)؛ أدركتُه يفسّر آخر (سورة النّحل)، ويشرح آخر أبواب كتاب الصّوم.

واظبتُ على حضور تلك الدّروس الصّباحية رُفقة زملائي عبد العزيز الآنسي وخالد عنتر وعبد الرّحمن هوساوي، فمرّ أبي يومًا بالحلقة ورآني جالسًا فيها، فجلس يستمع، وهو على معرفةٍ سابقة بدروس الشّيخ محمّد مكّي، فقد كان يختلف إلى حلقته ويستمع إليه في فتراتٍ سابقة. وفي اليوم نفسه بعد صلاة العشاء خرجتُ من المسجد الحرام إلى حيث ننتظر أخي عثمان ليقلّنا إلى البيت صحبة أبي وإخوتي الصّغار إبراهيم وعبد الرّحيم، وَصَل أخي عثمان وتأخّر الوالد على غير عادته، فلما جاءنا كان يحمل في يده حقيبتين من النّايلون بهما أحد عشر مجلدًا تجليدًا فاخرًا يُسمّونه (كعب جلد)، أسود اللّون.

لما توسّطنا السّيارة، وانطلقت بنا، نظر إليّ وقال لي: رأيتُك تحضر بلا كتاب، فاشتريتُ لك (تحفة الأحوذي بشرح جامع التّرمذيّ) لأبي العُلا المباركفوري.

لم أعِ تمامًا معنى كلامه (تحفة الأحوذيّ بشرح جامع التّرمذيّ)، بل لم أكن أعِ مَن التّرمذيّ؟، وما جامعه؟، وما تحفة الأحوذيّ؟ ومَن المباركفوري؟

سهرتُ تلك اللّيلة من فرط الحماسة، وأنا أقلّب مقدمة (تحفة الأحوذيّ)، واستغرقتُ في التّراجم التي أفردها لنَقَدة أئمة الحديث (يحيى بن معين، وأحمد ابن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن سعيد القطّان، ومحمّد بن إسماعيل البخاريّ، ومسلم بن الحجّاج القُشيري).

ثم استعرضت المجلدات حتّى وقفتُ على الحديث الذي كان يشرحه الشّيخ في درسه الأخير، وبدأت أدرك قيمة هذا الكتاب الذي أحمله بيدي.

لقد وضعني الوالد في ذلك اليوم في أوّل الطّريق للتّخصص في (علم الحديث) دون أن يُدْرك كلانا أنّي سوف أسير فيه إلى آخر الطّريق الأكاديمي.

هذه الهدية تعدُّ حلقةً في سلسلة هداياه الكثيرة التي أتحفني بها في حياته، ولكنّي نسيتُها جميعًا، بعد أن لهوتُ بها زمنًا، إلا هذه الهدية الفريدة من نوعها. فلا أذكر ساعةً ولا حقيبةً ولا لعبةً ولا ثوبًا جميلًا. لا أذكر إلا هذه المجلدات التي تعودُ إليَّ مشاعر الدّهشة الأولى التي أصابتني في تلك التي الليلة التي خصّني بهديته= كلّما قلّبتها، وشممتُ أوراقها ورائحة جلدها؛ إنّها رائحة الحبّ.

رحمك الله رحمةً واسعة، وجزاك الله عنّي خيرَ ما جزى والدًا عن ولده. مضيتَ إلى ربّك وغدا ولدُك يُنادى في النّاس بلقبٍ أكاديميّ، وهو ثمرةُ غرسك، انتزعه منك، وأرجو أن يُدْركَكَ أجرُّه موفًّى.

ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرًا.

الخميس 3 ربيع الأوّل – 31 أكتوبر

ثرثرةٌ!!

ذكّرني القمر البارحة بحوار قديم، بأحلام قديمة لطفلة غادرت جزيرة مهجورةً مع قاربٍ إنقاذٍ قديم، بصيحات النّوارس في صباح قديم، بساعة رملية على حافة منضدة قديمة بجوار سرير قديم في كوخ قديم بابُه ملاءة سرير قديمة. ذكّرني القمرُ بحبّ قديم.

يوم الجمعة يوم عطلة، وهو يوم اجتماع العائلة. ولا أتصوّركم في هذا اليوم إلا متحلّقين حول مائدة ماما، وقد أحطتم بها إحاطة السّوار بالمعصم. تسكنُ نفسي وتطمئن لهذه الصّورة العائلية التي أتصوّرها، وبخاصّة حين تكتمل كافّة تفاصيلها بحضور سفيان بينكم.

أريد أن أثرثر معكم، أن أقول كلامًا مرسلًا، لا خِطام له، ولا زمام، دون إسراف في باطل، ولا تفكُّهٍ بحُرمة مسلم. إنّه الحديث الذين نتخفّف فيه من ثقل أسبوع مزدحم بالواجبات المدرسية والمنزلية والوظيفية.

أظلّ في هذا السّكون وحدي غارقًا في ابتسامةٍ شاردة؛ حتّى يختفي صوتكم، فأمسك بقلمي وأرسل إليكم ثرثرتي اليومية ..

التّغافل من أجمل الصّفات التي يعيش بها الإنسان في بيته وخارجه، بين أهله وأصدقائه. يتغافل عمّا ينكره ممّا يكون في النّاس عادة من أشياء لا تحبّها، حتّى تستقيم الحياة.

وليس هناك من بديل للإنسان الذي لا يستطيع أن يتغافل من أن يعتزل النّاس، ويعيش وحده. والتّغافل ليس ضعفًا، بل قوّة. ولذلك اتّصف به الفهد من السّباع، وجاء في ثناء زوجة: (زوجي إذا دخل فَهِد، وإذا خرج أسِدْ، ولا يسألُ عمّا عهِد)، أي إذا دخل بيته صار فهدًا؛ يتغافل عن الصّغائر، ولا يدّقق، ولا يحاسب، ولا يتفقد ما نقص من مؤنة البيت. أمّا إذا خرج من البيت فهو أسدٌ لا يُضام.

وفي علاقاتي كنتُ كعامّة النّاس أعرف من إخوتي وأنكر، ويعرفون منّي وينكرون، وأختلف وأخاصم، وأتودّد في علاقاتي، وأتجنب فيها، وأصل الحبالَ وأقطعها. كنتُ كآحاد النّاس، تصدر منّي الأخطاء، وأرتكب الحماقات الكثيرة. وأحسّ بالنّدم والحسرة حين يعود عليّ ذلك بخسارة أحدٍ من فضلاء الرّجال. صحيحٌ أنّ الإنسان يتعلّم من أخطائه، ولكن بعض الدّروس غالية الثّمن جدًّا.

لذلك يا أبنائي؛ تغافلوا، وغضّوا الطّرف عن التّفاصيل الصّغيرة، وتسامحوا، وتجاوزوا، ولكن لا تصاحبوا أبدًا شخصًا بخيلًا، فرّوا من البخلاء فراركم من المجذوم والمجذوب. لا تجلس إلى بخيلٍ، ولا يدخل بيتك بخيل، ولا يأكل من طعامك بخيل؛ فإنّ البخل من أخسّ طبائع البشر، وإذا ابتُليت بزوجةٍ بخيلة؛ فطلّقها دون تردد، فإنّ العِرق دسّاس.

البخل والجبن صفاتان متلازمتان، لا تجد بخيلا إلا وهو جبان، ولا جبانًا إلا وهو بخيل. يقولون: إنّ الصّديق وقت الضّيق، وشعار البخيل وقت الضيق يقول: نفسي نفسي.

ولا تقرأ قصص الجاحظ عن (البخلاء) إلا للعظة والعبرة، صحيحٌ أنّ الجاحظ كتب تلك القصص في قالب الطّرفة والنّادرة، ولكنها كوميديا سوداء، نضحك من سوء أخبار أصحابها، فنتّعظ ونعتبر. والسّعيد مَن وُعِظَ بغيره.

في المرحلة المتوسطة عرفتُ زميلا من الزّملاء يحكون عنه قصةً أذكرها لكم للعبرة والعظة، يقول: لا أنسى يومًا خرجت فيه والدتي حافية تتبع أبي تسأله ريالا من أجلي؛ لأذهب به إلى المدرسة، وتلحّ عليه في السّؤال، وهو يصرخ فيها: ما عندي. فلما مات ورثنا عنه أسهمًا في

شركة من شركات الإسمنت قيمتها (14 مليونًا)، فما زِلْنا كلّما تذكّرنا حياة الفقر التي عشناها معه= لعنّاه في السرّ والعلن.

تصبحون على خير،،

الجمعة 4 ربيع الأوّل – 1 نوفمبر

لم تكتمل!!

نشأتُ مُذ كنتُ طفلا بريئًا في غُدُوّي ورواحي حييًا، لا أُحِدّ النّظر في وجوه الفتيات اللّاتي يقفن في طريقي أو يَسرن بجواري، لكنّ العُزوبة التي أكابدها في الفترة الأخيرة؛ رقّقت من طباعي، وشفّت عن روحٍ حائرةٍ استوحشتِ الوحدةَ، لا سيما وليالي الشّتاء تمتدّ في حجرتي حالكةً غُدافيةً، سوادٌ لا ينتهي.

في البدْءِ كنتُ أتوَهم شبحَ ابتسامةٍ على وجهها حين تتقاطعُ دروبُنا فجرًا وأنا عائدٌ من الجامع وهي غاديةٌ لشأنها، فأصرف القلبَ عن وساوسه وخَطَراته، وأمضي في طريقي، ولكنّ ذلك الوهمَ لم يعد كذلك، بل غذّاه الخيالُ حتّى بات هاجسًا، يتملكني حين أراها تَخْطِر في مِشيتها غاديةً أو رائحةً. كيف لها أن تكون في طريقي دومًا؟!!

مدّتِ الأيام واللّيالي حبالا بيني وبينها، أنظر في عينيها فأتمثّل قولَ ابن أبي ربيعة:

فأيقنتُ أنّ القلب قد قال: مرحبًا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيَّم

لم أكن في الحقيقة متيَّمًا، كنتُ إلى رفيق يؤنس وحشتي أكثرَ احتياجًا وافتقارًا؛ أشعر بحرارة جسده على فراشي، وأستيقظ من نومي فأجد وجهًا باسمًا أشعر بأنفاسه على وجهي.

تعمّدتُ السّير بجانبها حتى صارت أجسادُنا تتلاصق دون أن تفزعِ منّي أو ممّن قد يترصّد غوايتنا، ومشينا في هذا الدّرب من الغزل الخفيّ؛ أبدي نحوها جسارةً، وتبدي حياءَ الرّاغب المتمنّع؛ حتى استنزلتُها من عليائها، وأسلستُ قيادَها، وكشفتُ عنها حياءَها، وأغلقتُ عليها بابي، فانزلقت إلى الفراش، وقد نضّت عن جسدها كلّ ما يستره، وتكوّرت على نفسها حياءً.

لم تكن ليالينا حمراءَ مجنونة، ولكنها خفّفت عن كلينا ليالي الشّتاء القاسية، تقاسمنا فيها الحبّ على مائدة عُذرية. أقرأ لها أناشيدي فأجد جسدها يتجاوب تناغمًا، ويصدر عنه لحنًا شجيًّا، هو إلى نداء الطّبع

أقرب. وإذا انصرفتُ عنها إلى يومياتي التصقت بجسدها التصاق الولَهى المُغيّبة.

ذات صباح افتقدتُها، افتقدتُ ملمسَ جسدها النّاعم. خطر في نفسي أنّ أمرًا طارئًا أهمَّها، فلم تُرِد إزعاجي وتسللتْ لشأنها، فلم أجزع، وقلتُ: ستعود حتمًا، فلم تعدِ الحياةُ بعدها كالعهد قبلها.

ولكن اللّيالي مضت ولم تعد، حتّى هرب الشّتاء، فلهوتُ عنها وفي القلب حيرةٌ. أتلفتُ في شوارعِ الحيّ فلا أجد لطيفها أثرًا. وقبل أيّام رأيتُها ولكن ببطن منتفخ انتفاخًا ظاهرًا لا تخطئه العينُ، ومرّت بجانبي تتبعها بنات جنسها وكأنّي من آحاد المارّة، فأيقنتُ أنَّ فطرتها تغلّبت عليها، ومشت في طريق الغِواية، وتلبّست ثوب الخيانة.

وعدتُ إلى الوحدة من جديد، وكرِهتُ قطط الدّنيا، عدا هِرّة عبد الرّحمن بن صخر، و(**The catwoman**).

من ذاكرة جبل أبي قُبيس ..

كان لبيتنا في جبل أبي قبيس فناء، نصفُه مسقوفٌ، نفضي إليه من الدّور العلوي. بناه والدي في وقتٍ لاحقٍ، وألحقه بمنزلنا، وعاش في هذا الفناء عددٌ لا يُحصى من القطط. بدأ الأمر بقطّة ملوّنة عَلِق بها أخي

عثمان، يلهو بها ويُلاعب صغارَها، وكان من عادتها أن تغيبَ عن منزلنا حين يكبر صغارها، ولا تعود إلا عند قرب مخاضها، فتضع صغارها في زاويةٍ من زوايا البيت أو الفناء، وكأنّها تعهد لنا بصغارها. وكان أبي يضيق بها وبصغارها الذين يملؤون الفناء، فنحملها في أشولة، ونذهب بها إلى حي الملك عبد العزيز، فنطلقها بجوار مركز عصمت للتّسويق، منطقة تُسمّى قديمًا (حوض البقر)، فنرتاح منها عدّة أشهر، ولكنها تعودُ وتهتدي إلى الفناء، وتحنّ إلى أخي عثمان، حبّها الأوّل، وعادةً ما تكونُ حُبلى، فيغفر لها، ويهتم بصغارها.

بيئة الحياة التي نشأنا فيها كانت بيئة مفتوحة، متّصلة بالطّبيعة، كنّا نبيتُ في الفناء داخل (ناموسية)، ونستيقظ على صياح الدّيكة، وزقزقة العصافير. وكنّا نسمع أذان الفجر الأوّل من منارات المسجد الحرام، ونميّز أصوات أئمة الحرم من ذلك الفناء، ولا أعرف منهم إلا الشّيخ علي جابر (رحمهم الله جميعًا). وفي الشّتاء كنّا نرى أسراب الطّيور المهاجرة تطير في السّماء على شكل (V).

أمّا أنتم فنشأتم في شُقّة مغلقة، لم تتعلقوا بحيوانات من حولكم دجاج أرانب حمام عصافير ببغاء، حتى الفئران لا تفاجئكم بين ثيابكم بصغارها. ولذلك لم تكن القطط حاضرة في حكاياتكم وقصصكم.

معالم في الذّاكرة..

مركز عصمت للتّسويق في تلك الفترة الزمنية (1400–1408) من المعالم البارزة في مكّة، وكان بجوارها قهوة مشهورة تُسمّى قهوة الطّلاقي، وكافتيريا توتي فروتي، ومكتبة مرزا للأدوات المدرسية.

معالمُ كانت بارزةً في فترة المراهقة حافلة بالذّكريات الجميلة. كنتُ أتردّد عليها صحبة أصدقاء الطّفولة صبري يعقوب أبو هاشم، وعزمي عبد الله أبو هشام. يحملُنا إليها حافلات النّقل الجماعي التي تحمل الرّقم (10) أو الرّقم (3).

صبري وعزمي، تساءلتُ في تلك الأيّام؛ (ليش ما أغيّر اسمي إلى شكري أو فكري أو حلمي أو فوزي أو رمزي)، هناك عدّة خيارات. لو كانت ثقافة (النيك نيم) في تلك الأيام منتشرة؛ لاخترتُ اسم: فوزي؛ لأجل (نبيل فوزي).

السّبت 4 ربيع الأوّل – 2 نوفمبر

الأسماء المستعارة

حصل اليوم بيني وبين أحد الفضلاء نقاش حول نصٍّ أدبيّ في (الفيس بوك)، واتّسم النّقاش بشيء من الحِدّة من جانبي. ولم أفطن في بداية النّقاش أنّ الذي أحاوره أكبر منّي سنًّا وفضلًا. صحيحٌ أنّ النّقاشات الأدبية تدور حول النّصّ، ولا علاقة لها بالمتحاورين كأفراد لهم مكانتهم الاجتماعية= ولكن يغيبُ عنّي أحيانًا أنّ هذا سقفٌ من حرية الفكر يختصّ بالسّاحة الأدبية، وليس في المواقع الاجتماعية، حيث الأفراد يتواصلون مع أبنائهم وأحبابهم، فينبغي أن يحافظ على مكانتهم وصورتهم الاجتماعية.

كان الأمر أهونَ في هذه الحوارات والنّقاشات الأدبية حين كنّا نستتر خلف الأسماء المستعارة في المنتديات الثّقافية في أواخر التسعينات، وأوائل الألفية الثّالثة، فقد كتبت بعدّة أسماء مستعارة (ابن الوادي، والسّيامي، وروميو، وكعب بن ربيعة، وسعيد ياسيني، وناثر العمّار). ونشبت بيني وبين عددٍ من الأعضاء في هذه المنتديات معارك أدبية

عدّة. فتحمينا هذه الأسماء المستعارة من اللائمة والعتب إذا ندّت منك عبارة غير لائقة، أو تجاوزتَ الحدّ في النّقد أو خرجت عن الموضوعية لتتشفّى من خصمك الذي قد يكون جارك من جماعة مسجدك، أو زميلك في العمل.

لا شيء ممّا كُتب في تلك المنتديات يُعدّ أدبًا أو يصلح أن يحتفى به، وإن وُجِد فهو نزرٌ يسير لا يُذكر. ولكن، مهما يكن فهو جزءٌ منك، تتمنّى أن لو احتفظت بنسخة من كلّ حرف نثرته في تلك المنتديات لتعود إليها، فتذكر تلك الأيّام واللّيالي التي أسهمت في تكوينك الفكري والأدبي. كما أنّ الإنسان يودّ أن لو احتفظ بكلّ صوره الفوتوغرافية القديمة، وحافظ عليها.

وفي أواخر أيّام الكتابة في المنتديات بدأت الكتابة باسمي الصّريح (عدنان السيامي)، فتسلّط عليّ بعض الأعضاء الذين يستترون خلف الأسماء المستعارة في النّقاشات الفكرية الجدلية في موضوعات مجترّة بين السّلف والخلف. وكانوا يجاهرون بالعداء لك، ويستفزّوك في كلّ موضوع، حتى وإن لم يكن له علاقة بالخلافات القائمة بين الفريقين.

كان أبي (رحمه الله) شافعيًّا في الفروع، أشعريًّا في الأصول، صوفيًّا في السّلوك، وكنتُ أختلف معه في كلّ تلك الانتماءات، فيتّسع صدره لكلّ

ذلك، ويحتمله. وما زالت هذه السّماحة فينا نحن الأشقاء، فاتّسع صدرنا للاختلاف في هذه الانتماءات. بل تجاوز ذلك واتّسعت دائرته لتشمل الأصدقاء والمعارف. وهناك مواقف كثيرة حدثت بين الوالد وأحد أبنائه تبيّن ما كان يضمّه بين جناحيه من سماحة وسعة صدر.

النّص الذي كتبته البارحة عن قصّة الحبّ التي لم تكتمل، يشبه النّصوص التي ضاعت في المنتديات ممّا نشرته، وبخاصّة في كتابات (روميو) في (منتديات النخبة العربية) في أوائل الألفية الثّالثة. كنتُ أحاول أن أكتب نصوصًا ساخرة تأثرًا بالمدرسة الطنطاوية في كتابه (صور وخواطر). وكتابات نقدية شرسة تأثّرًا بالمدرسة الرّافعية في كتابيه (على السّفود، والمعركة تحت راية القرآن).

ذهبت كلّ تلك الكتابات، وتاهت في الفضاء، حتى خزانة (قوقل) عجزت عن احتوائها. ولكن بقي في قلمي بقيّة من ذلك النّفس القديم، وقد ظهر اليوم في عبارة واحدة (سطحي) في الحوار (الفيس بوكي)، تزلزل لها الرّجل الفاضل، ونالت منه. فاعتذرتُ إليه، وبيّنتُ أنّ النّقد موجّه لنصِّه لا لشخصه، فلم يعِ ذلك، ولم يتقبله.

وبقي كذلك حسّ الطّرفة والنّادرة، ولكني أبقيه ضمن دائرة محدّدة، فما كلّ أحدٍ يحتمل أن يكون موضوعًا يتفكّه القُرّاء به، ومن ذلك نصٌ قديمٌ كتبته

عن صديقي أبي دُحمي، ونشرتُه قبل سنتين في (الفيس بوك)، أعيد نشرَه في هذه (الجدارية) لعلّها تكون بمأمن من الضّياع، فيما إذا قررت إدارة (الفيس بوك) أن تغلق حسابي لسببٍ ما، وقد فعلته معي من قبل، ولكن الحمد لله فقد حفظ أكثر ما كان في ذلك الحساب من أفكار في (رائحة المطاط).

الرّحالة أبو دحمي ..

اسمه: عبد الله بن عبد الرحمن فطاني، وفي رواية ذكرها أبو المعتمر المُرّي في (التّذييل): أحمد بن رومي فطاني. قال ابن الفضي في (تاريخه): وهما رجلٌ واحدٌ لا رجلان، وقد يظنّ بعض الناس أنهم اثنان لكثرة أرقام هواتفه المحمولة. قال الكفراتي في (ألقاب وكنى الأعاجم): ويكادُ لا يُعرف إلا بكنيته.

ولد بمكة عام ١٣٩٩هـ، وفيها نشأ وقرأ القرآن وتلقّى تعليمه، ثمّ رحل إلى تايلاند، واستقرّ ببانكوك عاصمة الديار البوذية.

رجلٌ جمع الله فيه خصالا عدّة، شهمٌ كريمٌ، دمث الأخلاق، يألف ويُؤلَف، دانٍ من القريب والبعيد، حافظٌ للسرّ إذا استُودِع. وقد زان كلَّ ذلك بحفظه لكتاب الله، ولم يذكره الذهبي في (معجم القراء الكبار)؛ لأنَّ حفظه ساء بأخَرَة.

وفيه خصالٌ بشرية أخرى، تُطوى ولا تُروى، وكذلك ابن آدم لا تستقيم كلّ أموره، قال ابن صخر في (التّبعيد): صدوقٌ، تعرف منه، وتنكر.

وأبو دحمي رجلٌ مغامرٌ، ذاع صيته في تايلاند وما جاورها من البلاد، قال ابن وَزُّوزَة في رحلته لجزر المالديف: أهل المالديف يدونون أخباره، ويغردون بها. وله رحلة عجيبة خلّدها (الفيس بوك) في تقرير وثائقي مصوّر، ولولا الحقوق الأدبية، لأدرجتها في كتابي.

وممّا يذكر في أخباره التي طارت بها الرّكبان: رحلته إلى جالا بجنوب تايلاند على دراجته النارية، خرج من بانكوك بعد صلاة الفجر، فما أظلّته سماء جالا، إلا عصر اليوم التالي. في رحلةٍ استغرقت أكثر من ثلاثين ساعة. وهذه الرحلة لم يقم بها أحدٌ من قبل فيما تذكره كتب الرّحلات.

قال زُمُرّد الحموي: جالا إحدى الولايات الجنوبية لتايلاند، وكانت في وقت مضى جزءًا من مملكة فطاني.

وقد رأيتُه مرّة يتودد إلى فتاة تعمل في مكتب سياحي بجالا، فإذا به حسنُ الحديث، يكاد يخلِبُ قلب الحسناء بحلو منطقه، وسمعتُها وأنا مدبرٌ عنهما تقول له بالملايو: كاسِيهْ لُوّا (اِلْعب بعيد).

وفي خبر رحلته يقول العارف المؤرِّخ الدّينجو (قدّس الله سرّه) في كتابه (ذيل تحفة النّظار): الدّراجة النّارية التي جعلها أبو دحمي دابّته من بانكوك إلى جالا سرعتُها سبعون كيلا في السّاعة، وهو ما جعل رحلته تستغرق كلّ هذا الوقت. ولم ينم في رحلته هذه إلا مسّ الأرنب. وهو في هذا محلّ تهمة من مناوئيه؛ إذ قالوا: لو أُجْريت عليه فحوصات لجنة المنشطات لجاءت النتيجة إيجابية.

قلتُ: ولا زال أبو دحمي مقصد السائحين في بانكوك من عرب الخليج، متّعه الله بالصّحة والعافية، وختم لنا وله بخير.

الأحد 6 ربيع الأوّل – 3 أكتوبر

أنا عليّ!!

تابعتُ اليوم حوارًا في (مجموعة الأحفاد) يذكر فيه أحدُ الأحفاد أنّ وليد بن أخي محمّد كان يقول عن نفسه وهو صغيرٌ: أنا عليّ!!

فرجعتُ بالذّاكرة إلى ذلك اليوم الذي استهلّ فيه هذا الولد المبارك واقتحم هذا العالم بنفسه، دون أي مساعدة من أحد. لمّا حان موعده، وشعرتْ أمّه بآلام المخاض= انحدر منها، ولم يبطء عليها، ولا تركها تعاني آلام طلقات الولادة، فلم تشعر بألم طلقة واحدة. خرج ليعلن في ساعاته الأولى أنّه شخص فريدٌ لا يحبّ الاعتماد على أحد، ولا يسهل التّأثير فيه من أحد. ما رأيتُه مُذ فُطِمَ حتّى شبَّ باكيًا، إلا في صغره حيثُ يُقهر على أمرٍ لا يريده. أمّا إذ يُحرِم من شيء؛ فذلك أبعد من أن تسيل دمعتُه.

كان أبي (رحمه الله) قد رغب حين وُلِد أن يُسمّيه عليًّا، ولكنه أسرّ ذلك في نفسه، ولم ينقل هذه الرّغبة إلى ابنه والد الوليد. ولما كبر الوليد

تغلّبت على أبي رغبتُه هذه، فصار يُطلق عليه هذا الاسم، ويناديه به. فكان الطّفل ينزعج من الاسم، ولا يردّ على جدّه حين يُنادى بـ (عليٍّ).

توفي والدي رحمه الله، وهذا الطّفل (وليدٌ) دون العاشرة من عمره، وقبل انقضاء أيّام العزّاء؛ أسرّ وليدٌ إلى أبيه أنّه يريد أن يغيّر اسمه إلى (عليّ). كان ذلك تعبير طفلٍ عن افتقاده لجدّه، أراد أن يخبر جدَّه وهو في قبره أنّه يحبّه.

حين راهق وليد الاحتلام بدأ ينتظم في الصّفّ الأوّل في المسجد، ثمّ انتظم في حلقات التّحفيظ دون أن يدفعه إليها أحدٌ، وأتمّ حفظ القرآن في صمت، لم يعلم به أحدٌ من أهل بيته. عاد والده ذات ليلةٍ فرأى في البيت عددًا من الهدايا المغلّفة، فسأل عنها، فقال وليد: لقد أهديت إليّ عصر اليوم من جماعة حلقات التّحفيظ.

- ولِمَ كان ذلك؟

- لقد ختمتُ القرآن.

حين كنتُ أتردّدُ على الجامعة الإسلامية في منهجية (الدّكتوراه) ثلاثة أيّام كلّ أسبوع، استأذنتُ إدارة مدرسته، واصطحبته معي إلى المدينة.

فكنتُ إذا ذهبتُ إلى المحاضرات تركته في المسجد الحرام، ثم أقلّه بعد المحاضرات.

خرجنا من مكّة، ومكثنا في المدينة ثلاثة أيّام، وعدنا إلى البيت، ولم يكمل معي حوارًا من أكثر من ثلاث جمل. قليل الكلام، لا يبدأ حوارًا، ولا يستطرد في الإجابة. وإذا عاتبته ابتسم.

الأنشطة التي تثير اهتمامه يشترك فيها، والتي لا تثير اهتمامه لا يشترك فيها وإن اشتركت فيها المدرسة بأكملها. شارك في مسابقة حفظ السّنّة النبوية التي أقيمت في (تعليم مكّة) وحاز المركز الأوّل. أمّا القرآن الكريم فقد اكتفى بإتمام حفظه في حلقات التّحفيظ، ورفض الاشتراك في المسابقات، ورفض دخول الاختبار لنيل شهادة الحفظ، ولم يكن يعلّل رفضه. وإذا رغّبه أحدٌ؛ استمع لنصحه دون أي تعليق، حتى يسكت النّاصح، ويملّ الكلام. وأنا أحدهم.

تخرّج في الثّانوية العامّة بتقدير ممتاز ونسبة 98% علمي، ولغة إنجليزية ممتازة بجهد ذاتي عبر المنصّات التعليمية الإلكترونية، وصحبة الجادّين من زملائه.

حاولتُ أن أكون صديقه، ولكنه ظلّ يعاملني كعمّه الذي له حقّ الوالد في التقدير والاحترام، فاكتفيتُ منه بهذه المنزلة.

لا يُكثر الاختلاط ببقية الأحفاد من أبناء عمومته، ولكنه إذا خالطهم استمتعوا بصحبته. وهو الآن على أعتاب الدّراسة الجامعية في (بانكوك) حيث الاختلاط في مدرجات الجامعة، فاللهم سدِّده، واحفظه.

دائمًا يُشعرك وليد أنّك قادرٌ على الاعتماد عليه، وأنّه عند حسن ظنّك دومًا، دون أن ينطق بكلمة. أشعر بوليد ممتلئًا بالعاطفة الجيّاشة والمحبّة الصّادقة، ولكنه لا يحبّ الإفصاح عنها بلسانه، ويفضّل أن يكون حاضرًا بأفعاله.

يا ولدي، الحبّ ليس ضعفًا، ولا التّعبير عنه ضعفٌ. الحبّ أقوى من أن يُحبس داخل الصّدر. قد تكون قويّا، ولكن تأكّد أنّك لستَ أقوى من الحبّ .

حَبَس الشّاعر الفرنسي سيرانو دي برجراك –وكان قائدًا عسكريًّا– في قلبه حبّه لابنة عمّه روكسانا، فماذا حصل له؟= قتله الحبّ!!

أبنـائي، الحيـاة قصـيرة، لا تحتمـل أن نحبس مشـاعرنا داخـل صـدورنا، ولا نبـوح بهـا لبعضـنا بعضـا. الحيـاة معقّـدة مسـالكها، شـائكة دروبهـا، فلا يحلو المُقام بها إلا بالحبّ.

العمرُ يومٌ سوفُ نقضيهِ معًا

لا تتركيهِ يضيعُ في الأحزانِ

ما العمرُ يا دنياي إلا ساعةٌ

وقد يكونُ العمرُ بضعَ ثواني

أتُرى يفيدُ الزَّهْرَ بعدَ رحيلهِ

حزنُ الرّبيعِ ولوعةُ الأغصانِ

فالعمرُ كالأزهارِ.. يومٌ عابرٌ

هيا لنسكرَ من رحيقٍ.. فاني

(فاروق جويدة)

ماذا تنتظر لتعبّر عن مشاعر الحبّ تُجاه مَن حولك؟، قد تفاجئك الحياة فتفوت الفرصة، ويمضي مَن تحبّهم ولا يعلمون بك، وقد تحول حوائلُ بينك وبينهم، فما ينفعُك عند ذلك أن تغيّر اسمك إلى عليّ!!

الإثنين 7 ربيع الأوّل – 4 أكتوبر

سحر البيان

ذهبتُ ضحى هذا اليوم إلى محكمة الأحوال الشّخصية؛ لأشهد في قضية (حصر ورثة). مكثت طوال ليلة البارحة وأنا أستظهر أسماء الورثة العشرة من (أم، وزوج، وأولاد بنين وبنات)، وظللتُ أعيد ما استظهرتُه وأنا في طريقي إلى المحكمة.

لم تستغرق القضية في (المحكمة) أكثر من دقيقتين، وقد كان مثل هذه القضايا في وقتٍ سابق يُحشد لها. أذكر قبل عشرين عامًا واقعةً كان القاضي فيها يُمحّص الشّهود تمحيصًا، يسأل في دقائق الأمور المتعلّقة بحال الورثة؛ أسماءهم أعمارهم مدارسهم. ولم يكن حالنا اليوم في شيءٍ من ذلك، بل لم نرَ القاضي ولم يرَنا. اكتفى الكاتب بسؤال أحدنا: ما علاقتكما بالمتوَفَّى؟ فأجاب: (نِحْنا عيال حارة).

فأمرنا بالتّوقيع، وانصرفنا، وخرج صاحب القضية يحمل (صكّ حصر الورثة) في يده، موقّعًا من القاضي، ومختومًا بخَتْمه.

وهذا تطوّرٌ يُحسب لمحكمة الأحوال الشّخصية؛ إذ المسألة ملقاةٌ على عاتق الشّهود، وهم الذين يُحاسبون عند الله على أيّ زُورٍ في شهادتهم. وبياناتهم مسجلة لديها فيما إذا جدّ في الأمر ما يستدعي إعادة النّظر في الشّهادة.

بين يدَيّ كتابٌ أهداه إليّ الأخ الفاضل الصّديق مصعب بن طلال أبو النّور (المحاماة فنٌ رفيعٌ)، كتبه المحامي المصري محمد شوكت التّوني. وقد صدرت طبعته الأولى عام 1958م، عن المطبعة العالمية بالقاهرة. وهي طبعة نادرة يعزّ وجودها في هذه الأيّام، والطّبعة التي بين يدي طبعة جديدة أعيد صفّ حروفها، وأخرجت إخراجًا سيئًا، صدرت عن المكتبة القانونية بعابدين، وقدّم لها محامي النقض قمر محمّد موسى.

عمل محمّد شوكت التّوني في المحاماة عقب تخرّجه في الجامعة المصرية عام 1930 (ليسانس حقوق)، وتوفي عام 1980 وهو عائد من المملكة المغربية بعد مشاركته في التّرافع عن أحد القضايا الكبرى، بعد خمسين عامًا قضاها في مهنة المحاماة.

وقد كتب كتابه هذا في منتصف مسيرته المهنية بعد خمس وعشرين عامًا قضاها في دراسة قضايا مجتمعه، وهموم أمّته، كتب كل ذلك بلغة كبار الأدباء في تلك الفترة الذّهبية للأدب والثّقافة في مصر. والكتاب أشبه

بالسّيرة الذّاتية من خلال فصول تتحدّث عن المحامي داخل المحكمة، وخارجها، وفي مكتبه، وعن مدارس المحاماة، وعن الإصلاح في المحكمة، وعن علاقة المحامي بزملائه المحامين والقضاة.

يقول التّوني في (المحاماة فنٌ رفيعٌ) :إنَّ المحاماة فنٌ رفيع من أدركها فقد ظفر؛ ومن اتّخذها صناعةً فشل، ولو أصاب فيها مجدًا ومالا وصيتًا ذائعًا. وهي إن كانت صناعة أو مهنةً كما يسميها العوام من أهلها والجاهلون من جمهور النّاس المتأثرون بأخلاق وسلوك بعض المحامين= فهي لا تستحق أن يمارسها ذو كرامة أو ذو علم أو ذو دين وخُلُق. أمَّا إن كانت فنًّا .. وفنًّا رفيعًا؛ فإنّها وسيلة لإسعاد الخلق، وإلى رفع مستوى المجتمع، وتدعيم بنائه، وتمكين قوائمه، بل إنّها طريقٌ من طرق نشر السّلام في هذا الكون. والمحاماة تعبّر عن الحقّ والعدل، وليس أجمل من الحقّ، ولا أبهى من العدل. إنّ المحامين إمّا فنانون أو صُنّاع، و(الصّنايعى) قد يكون ماهرًا أو صانعًا بدائيًا كنجار السّواقي في الأرياف. والمحامي الحقّ؛ هو الفنان، أمّا (الصّنايعى) فهو محامٍ فاشلٌ.

أكتبُ هذا التّعريف بالكتاب ولمّا أتمّ قراءته، وإنّما جرّني إليه حديث (محكمة الأحوال الشّخصية). وأنا شديد الاحتفاء بمثل هذه الكتابات التي تبرز جوانب العبقرية في المرافعات والمناظرات العلمية والمساجلات

الأدبية التي تقرعُ الحُجّة بالحُجّة. ولذلك؛ علق في ذاكرتي كثيرٌ من الحوارات الأدبية التي أجراها مصطفى لطفي المنفلوطي على لسان الشّخصيات التي أنشأها في أعماله، أو التي ترجمها في أعمال غيره، والتي تجلّت في (قصص النّظرات، ومذكرات مارغريتا، وفي رواية الشّاعر، ورواية الفضيلة، أو: بول وفيرجينيا). حوارات غلب عليها مخاطبة العقل، وقوة الإيرادات المنطقية، في لغةٍ سهلةٍ رشيقة، تميّز بها قلم المنفلوطي (رحمه الله).

وهناك كتابٌ آخر لا يقلّ أهمية عن كتاب (المحاماة فنٌ رفيع)، وهو كتاب (مذكّرات محامٍ)، وتأتي أهميّة هذا الكتاب أنّه لمحام سعوديّ، وهو: علي بن عبد الكريم السّويلم، والذي كان جزءًا من منظومة العدل السّعودي خلال أربعة عقود كاملة.

من لطيف ما صادفني في طريقي إلى (محكمة الأحوال الشّخصية) في حي النّسيم؛ رؤية أخي أبي معتز حسين هارون يمشي في ممشى النّسيم بقامته الفارعة وثوبه الأبيض النّاصع البياض، يمشي مفرودَ القامة، حاسرَ الرّأس، واضعًا على عينيه نظارة شمسية (قمّة الوسامة)، يحاول يائسًا ترميمَ ما أتى عليه الدّهر، وسفَّتْهُ عواملُ التّغيير. وبعيدًا عمّا يخطط له أبو معتزّ، فالحقّ أنّه من فضلاء الرّجال الذين يحملون همومَ مجتمعهم،

ويسعون إلى خدمتهم، والارتقاء بهم. يبذل في ذلك الوُسع والغاية، وشيئًا فوقَ الوسع والغاية. كان في زيارته الأخيرة لتايلاند يتسكّع معي في معالم بانكوك، بينما ولده معتزّ يتسكّع مع ولدي مالك. أذكر هذه المصادفة؛ لأنّي قديم العهد به، وهو من أصفياء الودّ (حفظه الله).

يكاد ابني مالكٌ يرث عنّي العلاقات التي بيني وبين أصدقائي، فهو يتّصل بصلات قويّة مع جواد ابن محمّد يارجي، وأديب وأيوب ابني حسين مجيد، وبسّام ابن المرحوم محمّد سنوسي، وأحمد ابن عبد القادر سمارون، وحسين ابن محمّد مودور، وهؤلاء أبناء الصّفوة من إخوتي الفطانيين. ذات مرّة كنتُ مع أبي أحمد عبد القادر سمارون في مطعم أبي ياسر للسِّيريه، فأرسلتُ له صورةً لنا ونحن في المطعم، فأرسل إليَّ في اللحظة نفسها صورةً له مع أحمد وهما في مطعم كذلك. إنّ من سعادة الأب أن تتّفق اختيارات ابنه الاجتماعية مع اختياراته دون توجيهٍ منه، أو أدنى إشارة.

وبالعودة إلى ذكر (محكمة الأحوال الشّخصية)؛ فإنّ ممّا يتّصل بالمحاماة الحديثَ عن القضاء وعن إصلاحاته، وممّا قرأتُه في هذا الباب مقالات الشّيخ العلّامة السّيد أبي الأشبال أحمد بن محمّد شاكر، والتي طبعت مجموعةً في حياته= عن عددٍ من الموضوعات التي تتّصل بإصلاحاته في

القضاء المصري. ومن أمتع ما قرأتُه في سيرة القضاة المعاصرين تجربة الشّيخ علي الطنطاوي في قضاء سوريا، والتي ذكر فصولا ماتعةً منها في كتابه الكبير (ذكريات الطّنطاوي)، وتحتلّ هذه الفصول الجزء الثّالث من هذا السّفر الأدبي المبارك.

والطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، كان قاضيًّا يُدرك خطر إطلاق القاضي العنانَ لعواطفه في قُبّة القضاء، ولكنه أديبٌ رقيق الحاشية، إنسان في ثوب قاضٍ. ومن طريف ما ذكره عن نفسه: أنّه قرأ مرَّةً سطورًا -تحكي قصة واقعية- في كتاب (من أثر النكبة) للأستاذ محمد نمر الخطيب، وهو على قوس المحكمة بعد ما فرغ من المحاكمات، فكتب من وحيّها قصته (بنات العرب في إسرائيل) على كلّ قطعة ورق تحت يديه، ولم ينتظر حتى ينزل عن القوس إلى غرفته، بل لم ينزل حتى كتب القصّة كلّها في جلسة واحدة.

إنّ الأدب فِكرٌ وفلسفةٌ، والمفكّرون هم قادة العالم. أمّا علماء المادة فمكانهم المعامل، ولا يستطيع قيادةَ العالم، إلا مَن تعاطى الأدبَ منهم. والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء؛ هم الذين ورثوا علم الوحي، لم يرثوا علم الأرض أو علم الكيمياء أو الدّيناميكية. وإنّما ورثوا عقائد وأفكارًا قادوا بها العالم، وأناروا دروب البشرية.

إنّ الثّورات الشّعبية التي غيّرت وجه العالم، والتي انتفضت أمام الظلم والطغيان والجبروت والقهر والاستعمار= حرّكتها كلمةٌ حُرّةٌ، ألهبتْ مشاعرَ الجماهير، فدكّت عروش الباطل. والذي يدرس خطب الزّعيم الإندونيسي أحمد سوكارنو؛ يُدْرك السّرّ الذي مكّن الفلاحين الإندونيسيين الذين لا يملكون إلا الحِراب المصنوعة من أعواد البامبو= من هزيمة الجيش الهولندي بمدرعاته.

الأدب لسان الأمّة، وإنّ من البيان لسحرًا.

الثّلاثاء 8 ربيع الأوّل – 5 نوفمبر

صناعة الحياة!!

الحبُّ سيرةٌ لم تكتب، يسري في الظّلمة همسًا، وفي الضّوء ضحكات طيرٍ، وحكاياتٌ قديمةٌ لا ترويها الجدّات. ضلّت أحرفها حيرى، ونسي السّارد أين وقف؟! قصةٌ لا تُحكى في الفجر، حيثُ يختلط عبق الخزامى بندى الحشائش، فتتجدد بدايات، وتتراقص كلمات، وينحرف ضوءٌ، ويضلّ السّارد. أمّا الرّوايةُ فكلمات تنزف، تهمس بها العتمةُ كلّ ليلة، وتتردد أغنياتٍ في أشعةٍ فضيةٍ. سطور تكتبها سطور، وحياةٌ تمدها حياة، والسّارد ينزف.

كل شيء في غيابك يشتعل، والفكر مطلقٌ بلا قيد، والألم يوريه الألم. هو مضطربٌ بأحلام ممزقة، حتى القمر يرسل أشعته الفضية ساخرًا من رحلته المضنية إلى جزيرة تسكنها الأشباح. وشرفة كوخه القديم تئن من تراكم أوراق رواياتٍ غير مكتملة، ومن محابرَ جفّت بلا نهايات ولا خاتمة!!

الكتابةُ طريقةٌ في الحياة تخلصك من التَّعاسة، هذا ما يقوله لك ماريو فارغاس يوسا. ويزعمُ أنّها الثمرة الوحيدة التي يضمنها لك إذا امتهنت الكتابة. لا يضمن لك شُهرةً ولا مالًا، ولكنه يضمن أن تتخلص من بؤسك.

على ضوء مصباح السّرير بين اليقظة ووهَم الاستغراق في النّوم؛ أبصرتُ رحلتك المدرسية في يومك الأوّل. رأيتُك متمسكًا بأخيك أحمد، على درّاجته النّارية؛ خرجتْ بكم من المجمع السّكني فمرّتْ من أمام مدرسة الإمام الشّافعي بالخنساء، ثم بالمخبز، ثم ثانوية ذات الصّواري، حيث صبيةُ بني حرب يرفعون أصواتهم بالنّداء (حمودي!! حمودي!!). فتجاوزتما كلّ ذلك ووقفتما عند التّقاطع الكبير خارج حدود المجمع السّكني، كلّ الشّوارع المتقاطعة في بانكوك متشابهة!!

اجتمع زملاؤك من حولك يفحصون زميلهم الجديد، الآن سوف تختبر مشاعر زملائك الآسويين الذين لا تبينُ لغتهم العربية، فيُنْبَزون بـ (جاوة كلجة)، غير أنّ التّايلانديين سيقولون لك: (عربي كلجة). وسوف تكثر الالتفات إلى زميلك الذي يجاورك؛ لتهمس في أذنه بالملايو: ديا كاتا أفا؟ (إيش قالت المعلمة؟).

أنتَ في الصّفّ الرّابع الابتدائي ولا زلتُ أظنّ أنّ أجمل صفّ دراسيٍّ مرّ عليّ هو الصّف الرّابع الابتدائي، أضيفت إلينا فيه مادةَ التّاريخ لأوّل مرّة؛ قرأنا فيها السّيرة النّبوية، وعلقتُ بالمادة فأنهيتُ الكتابَ كلّه قراءةً في الأسبوعِ الدِّراسيّ الأوّل، ومن حينها شغفتُ بالقصص، وبمادة المطالعة؛ لأنّ الكتاب المقرر احتوّى قصصًا جميلةً مختارةً.

الدّراسة في المرحلة الابتدائية جميلة، تختبر كلّ عام دراسي شيئًا جديدًا عليك، مادة جديدة، طريقة جديدة في التّعلم. لم يُسمح لنا بقلم الحبر إلا في الصّف الرّابع، وقبل ذلك كنّا نلطخ أسفل جيوبنا بالحبر، حتى يظنّ النّاظر إلينا في حقائبنا المدرسية= أننا في الصّف الرّابع، قد تجاوزنا صفوف قلم الرّصاص. لا أذكر في أي سنةٍ تعرّفتُ على (ماجد)، ولكنِّي أذكر أنّي أدركتُ العددَ الممتازَ للذكرى الخامسة لصدور عدده الأوّل. هذه الإثارة التي كانت تصيبنا عندما نختبر كلّ ما هو جديدٌ علينا= لم نعد نشعر بها؛ لأنّنا في زمنٍ لم يعدْ يُدهشنا شيءٌ!!

عندما كنتُ أقرأ (الأيّام) أدهشتني قصة صبي ريفي ضرير سُمح له لأوّل مرّة أن يخطو بضعة خطوات خارج فناء منزله، فبدأ يتحسس بسمعه العوالمَ الكائنةَ في الضّفة الأخرى من السّاقية التي كانت تمرّ من أمام

منزله .ولم يكن وقتها يعلم أنّ الصّبية يخوضونها فلا يصلّ الماءُ إلى منتصف سيقانهم.

أدركتُ وأنا أقرأ السّيرة الذّاتية لعميد الأدب العربي طه حسين (الأيّام): أنّك حين تختار أن تقرأ سيرة شخص ما؛ فإنّك شئتَ أم أبيتَ تعيشُ حياته كما عاشها، وتضيف ذكرياته إلى ذكرياتك، بكلّ تجاربهم الإنسانية التي اختبروها، تعيش الدّهشة والإثارة التي خفقت بقلوبهم، كما تتجرع غصص المرارة والألم التي أذابت أفئدتهم.

في (ذكريات علي الطنطاوي): صبيٌ اختبر الألم لأوّل مرّة حين أصيبت والدته بذات الرّئة بسبب اضطرارهم بعد موت والدهم إلى سُكنى قبو رطب ينزّ بعضُ أركانه بقطرات ماء آسن، كان وقتها في الثّانية عشرة من عمره، وكانت ذاكرته حيّةً بذكرى داره العامرة بزائرين يطعمون من مائدة أبيه ما لذّ وطاب!!

بعضُ كُتّاب السِّير بالفعل يكتب سيرته التي عاشها، ولا يحاول أن يخلق من نفسه شخصًا آخر، لا يؤلِّف روايةً، وإنّما يحكي سيرةً، فكأنّه يعطي قلمه للتأريخ ليدوّن ما يجب أن يُدوّن.

يُعدُّ عبد الوهاب المسيري نموذجًا لهؤلاء الكُتّاب، ذكر في (رحلتي الفكرية) أنّه في السنة النهائية في مدرسة دمنهور الثّانوية قرر أن يترك الصّلاة، وأن يتخلّى عن الإيمان الذي وُلِد به، وكان ذلك أثرًا من آثار قراءاته المتعمقة لمادة الفلسفة، أثارت في نفسه أسئلة عجز عن إيجاد الإجابة عنها، فانتهى به الأمر أن أعلن أنّه لن يُصلِّي ولن يصوم حتى إشعار آخر.

على مقاعد الدّراسة يا (توفي) سوف تنهل من العلم، وتغرف من بحور المعرفة، وفي ساحة المدرسة وفنائها، ستعرف الحبّ والكره، الولاء والبراء، الأنانية والإيثار، الرّحمة والقسوة، التّعاون والتّخاذل، التّضحية والأَثَرة، الشّجاعة والجبن، الكرم والبخل.

ليست الحوادث والوقائع والمواقف التي نمرّ بها هي التي تصنعنا، وتُشكّل جوهرَنا، وإنّما اختياراتنا فيها.

فلا تنسَ يا (ولدي) مهما مررتَ بظروف ومواقف صعبة= أن تختار أن تكون طيّبًا وشجاعًا، وأن تبذل أكثر ممّا تستطيع لتساعد غيرك. تذكر صديقي (أوغست) الذي حدّثتك عنه في فصل سابق (لستَ المحور!!). من الجيّد أن تعود لقراءته.

أسِّس من اختياراتك، طريقتَك في صناعة حياتك!!

الأربعاء 9 ربيع الأوّل – 6 نوفمبر

أوزاعٌ وشتات!!

أرقتُ البارحةَ أرقًا مسّ روحي، وقطّع أنفاسي، فلا الحبُّ جاد عليَّ بوَصله فتَسْكُن له أطرافي. ولا الأفكار ملّت مطاردتي ركضًا من ساحةِ فكرةٍ إلى أخرى، فإذا الهَمُّ أوزاعًا وإذا النّفسُ شتاتًا!!

الحبُّ ليس له هوية، ولا جنس، ولا أديولوجيات. فأكرم الخلق مال الحبّ بقلبه (اللهمّ هذا قَسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك)، هو شيءٌ يذكرك دومًا بأنّك إنسان، من لحم وقلب يخفق بالدّم!!

ليس لي حيلة؛ إذ يجفّ احمرار الشّفق، وتعوي الذّئاب عند رؤية القمر. الحبُّ أقوى من نواميس الحياة ومن قوانين البشر!!

لعلّ من أسباب الأرق الذي أتلف أعصابي البارحة الانفعال الذي أحسستُه وأنا أقرأ كتاب التّوني (المحاماة، فنٌ رفيعٌ). عرض التّوني في كتابه إلى أهم القيم الأخلاقية الإنسانية التي يتوجب على المحامي أن يتحلّى بها، وأنّ غيابها في رجالها سببٌ في فساد المجتمع، وعدم استقراره أمنيًّا

واجتماعيًا واقتصاديًا وفكريًا. ودعم عرضَه لمنظومته الأخلاقية بقصصٍ من تحت قُبّة القضاء المصري، قصصٍ يذوب لها القلب، وأخرى يبتهج لها الفؤاد. يأخذك بين الإيمان بالمحاماة، والكفر بها، بين الطّمع في الخير الذي عند النّاس، واليأس منه.

هل يوجد إنسانٌ يعيش كلّ يوم قضايا النّاس، ويقف على ابن آدم كيف يؤذي أخاه، ويقتله، ويسرق ماله، ويغتصب داره. بين الخصومات التي تنشأ بين الأزواج، وبين أفراد البيت الواحد، وبين الجيران، وأفراد القبيلة الواحدة فإذا هم فريقان يتحزّب كلّ فريقٍ لطرف في النّزاع. وكيف يقتلُ الإنسان زوجه أو أخته أو ابنته في جرائم الشّرف، دون أن يرفّ طرفُه، أو تهتزّ يده، بسبب إشاعة لاكتها ألسنُ النّاس، ثم يكشف الطّبّ الشّرعي عن الجثّة، ويثبت عذرية الضّحية!!= ثم بعد كلّ هذا المعترك المزدحم من دماء النّاس وأشلائهم؛ لا تتوزّعه مشاعرُ بين الكفر والإيمان بالإنسان كإنسان!!

عوى ذئبٌ فاستأنستُ بالذّئبِ؛ إذ عوى

وصوَّت إنسانٌ فكِدتُ أطيرُ

أرِقتُ فِكرًا، وأرِقْتُ رُوحًا لا يَنْفُذ إليَّ في قاع البُرج إلا وجه القمر، يبصرني من كوّة عالية، فيُلْبسني وجهه، وينصرف.

ها أنتِ!! تختصرين الحياة في ابتسامة، في رعشة شفة، في خَفْقةِ قلب. ها أنتِ!! سريانُ دمٍ في وريدٍ، وجِريةُ ماءٍ في نهر. ها أنت!! قهقهةُ السّماء لظمأ الرّمال ورطوبة سَحَر. هذه أنتِ!! بكلّ سحركِ وجنون أزهار دوّار الشّمس!!

في أحلامي، أهرب إلى البحر عشية كلّ ليلة، فأجلس إليها، على ذات الصّخرة التي تكسرت عليها أحلامنا بفجر جديد. نرقبُ الزّمن وهو يهربُ من الظّلام الذي ينسدلُ على المحيط الصّاخب. كلّ شيء عدا الأمواج وطيور النّوارس ساكن هادئ. وحين يمسك البحر عن هديره، وتسكنُ النّوارسُ في أعشاشها، نميل برأسينا، ونتمنى ألا يأتِ الصّباح!!

جمدت عيناي وأنا أراقب عقارب السّاعة الصّدئة، مرّت ساعات طوال، أتقلّب فيها وتتقلّب فوقي أصوات المارّة الذين يحملون أوراق ذاكرتهم بأيديهم، فأطوي ورقةً من دفاتري القديمة، وأنزع أخرى. أقلّب أوراقًا فيها لا أذكر أنّي مررتُ عليها يومًا، في تلك الأوراق التي سكنها الغبارُ الذي نثره الزّمن على السّطور طبقةً إثر طبقة= رأيتني واقفًا أترقبه كلّ صباح في السّاعة نفسها، يجرجر حقيبته المدرسية وكأنها عربة دفع

انكسرت عجلاتها. كانت معاناته تتضاعف كلما قصرت المسافة بيننا، ضحية من ضحايا النّظام التّعليمي، الذي يتخرّج الطّالب فيه بعد اثني عشر عامًا دارسيًا، ويقف على أعتاب الجامعة، وهو لا يفرّق بين همزة الوصل وهمزة القطع، وينطق (الضاد) ظاءًا، و(الظّاء) ضادًا.

أشفق عليه حين يمرّ أمامي فأبتسم له، فيبادلني ابتسامة عابسة مقطبة، فأراها بعد تلك السِّنين في عينيه، وأرنبة أنفه، لقد وهبته عينيها وأنفها.

كانت تسكن بجوارنا، إذا أطلّت من نافذتها صباحًا وجدتني عند باب بيتنا أبتسم لها في سذاجة، فتهرب في افتتان، كانت تلك النظرة كافية لتنعش نهاري كلّه، فلا تفارقني الابتسامة طيلةَ يومي المدرسي.

دارت عجلة الزّمن دورةً واحدةً، فأعادتني إلى الزّمان نفسه، ولكن خارج ذلك المكان. المشهد نفسه، ولكن حركته اختلفت، وكذا أبطاله، وبقيت العاطفة نفسها، مع شعور بعطف أبوّة سرقها الزّمن.

أرقتُ حتّى رأيتني نائمًا تَعِبًا مكدودَ الفكر .. في هذيان!!

الخميس 10 بيع الأوّل – 7 نوفمبر

في ذكراه، صلّى عليه اللّه

رحلـتْ دون صـوتٍ، دون عنـوان. الحـبُّ ينـزفُ في الضُّـلوعِ، وفي الحشـا. قلبي طائرٌ تائهٌ هيمانُ أيتها الجزائرُ، أيتها الرّوابي، أيتها الوديانُ. رحلتْ ولا رجعٌ هنا، لا صـوتَ سوى الهـذيان!! رحلـتْ بـلا وعـد، ولا سَـلْوى. لا شيءَ سوى الذّكرى!!

اعتدتُ على الاتّصال بأبنائي بعد صلاة الجمعة حيثُ أجدهم حول مائدة الغداء. يتأخّر غداؤهم قُبيل المغرب انتظارًا لعودة أحمد وتوفيق من المدرسة. فأحادثهم فردًا فردًا، ولا ينتظم حديثنا في باب واحد، ولكني أحاول دومًا أن أتذكّر تذكيرَهم بالإكثار من الصّلاة على النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وبخاصّة قبل غروب شمس هذا اليوم المبارك.

هذه عادة قد لا تنتظم بيننا لظروف الحياة، ولكنه طقسٌ من طقوس التّواصل لديّ، أحرصُ عليه. ومن يُمن هذا الطّقس أنّه وافق ذكرى حدث

عظيمٍ (وُلِد الهُدى فالكائناتُ ضياءُ، وفمُ الزّمانِ تبسمٌ وثناءُ) صلى الله عليه وسلم.

وأنا لا أحضر مجالس الاحتفال بذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم اختيارًا، ولكنِّي في خاصة نفسي أحتفي بهذه الذّكرى من قديم، فأتوسّع فيه من المباحات على نفسي وأهل بيتي، وأكثر من الصّلاة والسّلام عليه، وأقلّب ليلتها في كتب السّنة الشّريفة وبخاصّة (صحيح البخاري)، حيث أحرص على قراءة سيرته من خلال الأحاديث التي روت سنّته صلى الله عليه وسلم. فالسّنة ليست مصدرًا من مصادر السّيرة النّبوية فحسب، بل هي السّيرة نفسها، تتجلّى في أجلِّ صورها. ولذلك أجد أنّ كتاب الدّكتور ناصر الزّهراني (الوجيز) من متون هذا الفن المبارك، على غرار كتب الأحكام الفقهية التي هي في حقيقتها جزءٌ كبيرٌ من سيرته صلى الله عليه وسلم. وقد طلبتُ من ابني توفيق في اتّصاله به أن يقرأ فهرس كتاب (الوجيز)، حتى يستحضر فصول سيرته صلى الله عليه وسلم في هذه الذّكرى الشّريفة، كنوعٍ من طقوس الاحتفاء.

أتّفق في الفكرة (الاحتفاء)، ولكن أختلف في التّفاصيل (الاحتفال)، وفي السّياسة قول مشهورٌ: (الشّيطان يحضر عند مناقشة التّفاصيل). فهي ذكرى شريفة أجد نفسي فيها تقبلُ على شيءٍ من الخير، وتمُسك عن

كثيرٍ من الغَيّ، وفي هذا خيرٌ كثيرٌ. وقرأتُ مؤخّرًا كلمةً للعلّامة الجزائري البشير الإبراهيميّ، أذكر لكم معالمها الرئيسة، يقول (رحمه الله):

يختلف الفقهاء في هذا الحفلات؛ هل هي مشروعةٌ أم غير مشروعة؟ ويطيلون الكلام في ذلك بما حاصله الفراغ والتّلهي وقطعُ الوقت بما لا طائل فيه. والحقّ الذي تخطّاه الفريقان أنّها ذكرى للغافلين. وإنّما لم يفعلها السّلفُ الصّالح؛ لأنّهم كانوا متذكّرين بقوّة دينهم وطبيعة قربهم، وعمارة أوقاتهم بالصّالحات. أمّا في هذه الأزمنة المتأخّرة التي رانت فيها الغفلةُ على القلوب، واستولت عليها القسوة من طول الأمد، واحتاج فيها المسلمون إلى المنبّهات= فمن الحكمة والسّداد أن يرجع المسلمون إلى تاريخهم يستنيرون عِبَرَه، وإلى نبيّهم يدرسَون سِيَرَه، وإلى قرآنهم يستجلون حقائقَه. وإنّ من خير المنبّهات مولد محمّد (صلى الله عليه وسلم)، لو فهمناه بتلك المعاني الجليلة.

هذه قناعة تشكّلت شيئًا فشيئًا عبر سنوات، وقراءات، ودراسات، ومناقشات، وصراعات، ومعارك، استنزفت عواطفنا ومشاعرنا، وتركت في أجسادنا ندوبًا وأخاديد، لم تمحها الأيّام. ولم أعد أبالي وأنا أقترب من عقدي الخامس ثناءَ موافقٍ أو ذمّ مخالف.

في وقت باكر من حياته طلب أبي العلم على مشايخ الحرم، ممن يدرِّسون بلغة الملايو، ولازم على وجه الخصوص حلقة الشيخ عبد الكريم بنجر.

فنشأ –كما أسلفت سابقًا– شافعيًّا أشعريًّا على ما استقرَّت عليه عقيدةُ أبي المعالي الجويني إمامُ الحرمين. وفي السّلوك كان صوفيًّا معتدلا مواظبًا على أوراده، وقراءة بُردة البوصيريّ، وله في أبياتها المُشْكِلةِ تخريجاتٌ علميةٌ يدين الله بها. فكان يقيم احتفالاتِ مولد النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، والمناسبات الدينية الأخرى.

لكنه ما قهرني يومًا، ولا ألزمني بموافقته في شيءٍ من ذلك. غايةُ ما كان يقول لي: لا تتعجلْ بتخطئةِ غيرك، وانظر في أدلة مخالفيك.

وكنتُ في كلّ ذلك –على تقصير مني– أقومُ بحقّه الأبوي، فأقف معه حين يقيم احتفالات المولد الشّريف، وأستقبل ضيوفه، وكلّ ما يتطلبه الأمر، غير أنّي أبقى في عُزلة عن المجلس الخاصّ به. وكان يحلو له مداعبتي عند ابتداءِ تلك المجالس، بقوله: تفضّل معنا. فأردّ عليه مُتصنِعًا وجهًا عابسًا: بدعة!!

فيتبسمُ، ويتّسع صدره لهذه المداعبة، التي لم تخرج يومًا عن كونها مداعبة ابن لأبيه. وكم تمنيت وقد مضى على رحيله أكثر من ثلاثة عشر عامًا في الرّابع والعشرين من ربيع الأوّل؛ أن لو أسعدته يومًا، وشاركته مجلسًا واحدًا على الأقل من تلكم المجالس؛ إذ كانت تعني له شيئا كثيرا من

اتّساع صدري للنّظر فيما لدى المخالف من ممارسات (رحمك الله يا أبي –يا صديقي–، ورفع درجاتك في المهديين).

وممّا يُذكر في ذكرى تلك المداعبات التي كانت بيننا: أنّ عدسةَ أحدِ أصدقائه الفضلاء التقطت تلك المحادثة، فاحتفظ بها في ذاكرته، وبنى عليها تصوّرًا سيئًا عن أخلاقي وتربيتي. وبعد وفاة أبي اتّصلت الأسبابُ بيني وبين بعض خاصّته ومن بينهم هذا الصّديق الفاضل (أبو شوقي)، فلمس من أثر هذا الاتّصال ما غير صورتي القديمة لديه. وحدث أنّ كان في دارنا يومًا، فألقت عليه والدتي السّلام من وراء حجاب، فنشأ حديثٌ بينهما، أثنى عليّ في بعضه، وحمد الله أنّ أخلاقي تحسّنت. فعجبتْ منه والدتي، وقالت مدافعةً: وما الذي حملك على الاعتقاد بسوء خُلُقه؟ فاستدعى لها تلك المحادثة من ذاكرته بيني وبين والدي، فقالتْ: هذا شأنُهما من قديم، يمزحان. وهو يمازحُ أبناءه بأكثر من هذا.

ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرًا.

الجمعة 11 ربيع الأوّل – 8 نوفمبر

الحشود!!

أنهيتُ فجرَ هذا اليوم كتاب الأستاذ محمّد شوكت التّونيّ رحمه الله (المحاماة، فنٌ رفيعٌ)، والذي يقع في **505** صفحات، ولولا دسامة المادة، وطرافة موضوعها، وعبقرية الكاتب الفنان الذي ينظم ذلك كلّه في كلماته= لأعرضتُ عن إتمام القراءة، لسوء الطّباعة، ورداءتها.

وضعتُه جانبًا بعد أن أنهيتُه، واستلقيتُ أفكِّر في جملةٍ عَلِقْتُ بها، كتبها في أخريات الكتاب، وأعْمَلَتْ في قلبي فكرًا قديمًا لطالما تطامن بقامته في فكري بين وقتٍ وآخر. فبعد أن ترجم لأحد أعلام المحاماة، وذكر أنّ الذين شيعوا جنازته عشرات (يقللهم)، قال: ليست العظمة في حشود المشيعين، ولكنها فيما خلّف العظيم من ذكر عاطر ومجد وسؤدد.

وكأنّه بهذا يقيّد الإطلاقَ في المثل السّائر: (بيننا وبينكم يوم الجنائز)، التي تشير صراحةً إلى أنّ كثرة المشيعين دليلُ فضل. وقد تدّبرتُ هذا الإطلاق طويلا فيأباه عقلي الذي يحتفظ في ذاكرته بصور الجماهير

المصرية التي خرجت في جنازة جمال عبد النّاصر. ولقد يكون هذا الإطلاق صحيحًا ومقبولًا، ولكن لا بد من استثناء جنازة عبد النّاصر. فلا يصحّ فيه إلا أن يقال: (استخفّ قومَه فأطاعوه)؛ إذ زعموا أنّ عبد النّاصر شيّع جنازتَه أكثر من خمسة ملايين مواطن مصري، رأوه رمزًا للكرامة والوحدة العربية والجهود المناهضة للإمبريالية، وهو الذي خاض ضدّ إسرائيل المحتلّة أربع حروب، خسر ثلاثًا منها. وسحق الجماعات الإسلامية، وألحق بهم جميع المعارضين السّياسيين من علماء ومفكرين، وأودعهم السّجون، وأعدم العشرات منهم شنقًا.

أنا لا أحبّ الشّأن السّياسي كلّه، ولا أتابعه، ولا أتتبعُ ما كُتب فيه، ولكني أقفُ على بعض المعاني الإنسانية فيه، فيعلق بي هذا الجانب منه، وأتفاعل معه، وأرقّ له. أحبّ الإنسان لإنسانيته بغضّ النّظر عمّا يتعاطاه في حياته من مهنة، ومهما كان انتماؤه الحزبي، أو تعلّقه الفكري، سواء تمنّى هزيمة الهلال، أو شجّع أُورَاوَا. فالجانب الإنساني فيه هو الذي يأسرني. وهاكم قصّةً من إرث القوم، قصةً تفاعلتُ معها، وكتبتُها في أوراقي:

في أوائل سنوات ثورة (الضّباط الأحرار) انضم الكاتب والأديب عبد الله الطّوخي إلى إحدى التنظيمات الشّيوعية السّرية المتعددة التي كانت

منتشرة في مصر في تلك الفترة، ودخل السّجن في إحدى حملات الاعتقال التي كان يتعرّض لها الشّيوعيون، وبالتّحديد حملة اعتقالات سنة **1954**، والتي كان من ضحاياها عددٌ كبيرٌ من ألمع المثقفين في مصر.

وقد سجّل عبد الله الطّوخي هذه التجربة القاسية بكل تفاصيلها المثيرة في مذكراته: (سنين الحبّ والسّجن)، وكان من أقسى ما جاء في هذه المذكرات ذلك الوصف الإنساني الذي كتبه الطوخي –وهو السّجين الشّيوعي– لمشهد عبد القادر عَودة وغيره من قادة (الإخوان المسلمون) المحكوم عليهم بالإعدام يوم تنفيذ الحكم، وخروجهم من السجن إلى حبل المشنقة.

فلم يكن الطوخي وهو المعادي للإخوان في كلّ شيءٍ يعبّر عن أيّ شماتة، بل كان يقدِّم صورةً مؤثرة جدًّا لذلك المشهد التّاريخي الإنساني الحزين.

فالحشود في الجنائز ليست دليلا على فضلٍ يُجزمُ للميّت به، فقد يصّح هذا، وقد لا يصحّ، والعلمُ عند الله تعالى. ولكنه أحد المؤشرات التي يُرجى للميّت الفلاحُ عند الله تعالى، لا سيما إذا كان عاطر الذّكر جميل الأثر في النّاس.

وقد شُهِد في الأسبوعِ الماضي جنازةٌ مهيبةٌ، حُشِد فيها عامّة أهل مكة وأهل الفضل منهم. فقد توفي شيخنا العلّامة محمّد الأمين الهرريّ يوم الإثنين السّادس من الشّهر الجاري ربيع الأوّل فجرًا، ودُفن بعد صلاة المغرب في مقابر المعلاة، وقد صلّى عليه قبل دفنه مَن فاتهم الصّلاة عليه في المسجد الحرام، صلّى بهم فضيلة الشيخ الدّكتور فيصل بن جميل غزاوي إمام وخطيب المسجد الحرام، واصطف خلفه عددٌ كبيرٌ ضاقت بهم مقبرة المعلاة (رحمه الله).

قرأتُ للشّيخ الهرري بعض الكتب، منها: شرح (ملحة الإعراب)، وإعرابه لمتن الآجُرّمية، ورجال مسلم. وقد زُرته مرّة صحبة أخي الشّيخ أبي عاصم عدنان صفاخان البخاريّ في داره الكائنة في سفح جبل عمر، أستجيزه إجازةً عامّة في كلّ ما صحّ له من مرويات، وخاصّة في (ثبته) الذي أخرجه عن شيخه مسند الدّنيا محمّد عيسى الفاداني، ففعل جزاه الله خيرًا.

لم أحضر للشّيخ درسًا واحدًا، ولكني تعلّقتُ بسمته وأنا أشاهده دائمًا في صلاة الفجر بالمسجد الحرام في الصّفّ الأوّل. وذلك في الأيّام التي كنتُ فيها طالبًا في معهد الحرم المكي الشّريف، فكنتُ أعجب لجَلَده وهو في هذه السِّنّ.

وحين التحقتُ بدار الحديث الخيرية كنتُ طالبًا منتسبًا؛ فاتّصلتُ بالشّيخ عن طريق أوراق الامتحانات في موادّه (صحيح مسلم وسنن أبي داود أو ابن ماجه)، ولم يكن يغيب طوال تلك السّنوات الأربعة في أسئلة الشّيخ: أُذكر السبّعة المكثرين من الرّواية في الصّحابة. كان أشبه بالسّؤال المجاني الذي يمنّ بدرجاته على الطّلاب.

ترك الشّيخ إرثًا عظيمًا من المصنّفات النّافعة في التّفسير والحديث والعربية وغيرها، وخلّف عددًا كبيرًا من تلاميذه الذين انتشروا في كل بلاد الدّنيا.

جنازةُ الشّيخ الهرريّ تُذكّرك بما قاله الإمام أحمد، وتحقّق في جنازته :(بيننا وبينكم يوم الجنائز) .كانت مهيبةً، وكان من العسير بعد أن دُفن الشّيخ أن تخترق هذه الجموع لتصل إلى أبناء الشّيخ رضوان وإسحاق وغيرهما لتقوم بواجب العزاء.

وكذلك ليس قلّة عدد الذين يشيّعون جنازة الميّت دليلا على نكارته وقلّة خطره، فقد قال النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم في حقّ أبي ذرّ رضي الله عنه: «يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

الكلمة الحرّة تؤثّر في الإنسان الحرّ، فيتفاعل معها، وينقدها، ويعيد قراءتها في ذهنه وقلبه وذاكرته. وعلى ضوء ما سبق يكتبُها من جديد فكرة جديدةً تمامًا أو أثرًا من آثارها!!

فليست مقولة الإمام أحمد بنصّ شرعيّ، بل كانت فراسةً بينه وبين أهل البدع في زمانه. ولا تصدق على كل الأزمنة، ولا في كل الأحوال. وعبارة التّوني أصدق أن تكون قاعدةً عامّة: ليست العظمة في حشود المشيعين، ولكنها فيما خلّف العظيم من ذكر عاطر ومجد وسؤدد.

العظمةُ يا أبنائي فيما تتركه خلفك من ذكرٍ حسن وثناء عاطر؛ ويكفي أن تكون عظيمًا في نظر زوجك التي كلّما ذكرتك ترحّمت عليك، واستغفرت لك، وأثنت عليك خيرًا. وغفرت كلّ زلّة سلفت منك إليها.

أو أن تكون عظيمًا في نظر ابنك، فيذكرك بخير، ويحمدك في كل أثر طيّب في نفسه؛ يراها من أثرك فيه، ومن عظيم نصحك في تربيته.

أو أن تكون عظيمًا في نظر أفراد عائلتك، فتذكرك أختك بخير، ويذكرك أخوك بخير، وكلّهم يترحّمون عليك. ويشتاقون إلى حديثك، ويستوحشون من فقدك. ولا يجدون أحدًا يسدّ فيهم مسدّك.

أو تكون عظيمًا عند خاصة أصدقائك؛ فيحملون لك في ذاكرتهم أجمل الذّكر، وأصدق مشاعر الامتنان أن كنتَ يومًا جزءًا من حياتهم.

هذه هي العظمة التي ينبغي أن تَحْشِد لها نفسك، وأن تجهد أن تغادر هذه الدّنيا وكلّ الذين عرفوك فيها يترحمون عليك، ويدعون لك!!

ورضا الناس غايةٌ لا تدرك، فحسبك أن تتقي الله فيهم، فهو الكفيلُ وحده –إذا رضي عنك– أن يُرضي عنك النّاس.

السّبت 12 ربيع الأول – 9 نوفمبر

وسائدي ملآى!!

وسائدي أفكارٌ وأشباحٌ في ذاكرة منسيّة صدئة، ما إن أطفئ مصباح السّرير إلا ويزحفون منها إلى رأسي، فأجدني أركض تارة وأمشي أخرى في أودية وهضاب ومسارح وصالات سينما. أطوّف الأماكن القديمة التي تختزنها ذاكرة هؤلاء الأشباح باختياري ودون اختياري. وفي بعض هذه الأماكن صور شاحبة الملامح، لا أكادُ أتبيّنها.

ويمضي هذا الشّأن منّي حتى يهربَ اللّيلُ ساحبًا ذيلَه عن وجهٍ حائر، فأنتفض من ظلمة الوسادة، وأضيئ المصباح!! وأظلّ ألهثَ مكدود الفكر، مشدود الأعصاب، ولا أسكنُ حتى أُقبّلَ الأرضَ بين يدي الله قبل أن يُنادي الفجرُ.

حين قاربت السّاعة من الثّامنة ذهبتُ إلى مكتبي بعد أن مررتُ على جهاز (البصمة)، وهناك أجريتُ اتّصالا بالمهندس محمّد بن عبد الكريم، وطلبتُ منه أن ينوبَ عنّي في الذّهاب إلى محكمة الأحوال الشّخصية؛

فإنّ السّهران تمسّه أعراضٌ يغيبُ فيها عن الإدراك. استجاب فورًا أبو عبد الله (جزاه الله خيرًا)، وذهب إلى المحكمة نيابةً عنّي.

بعد أن فرغتُ من بعض الملفات العالقة على مكتبي. انصرفتُ إلى غرفتي لأنام، وهذا الأمرُ يحصل منّي بشكل متكرّر، وأقوم فيما بعد بتعويض ساعات العمل، ولكن الجديد في هذا اليوم هو: هذا الموعد الاستثنائي في (المحكمة). وقبل أن أشرع في طقوس النّوم، ومحاولة استدعائه؛ اتّصل بي مدير مكتب المشرف العام (BIG BOOS)، وطلب مني زيارة مكتبه. ذهبتُ إلى مكتبه، فسلّمني تقريرًا عن (مشروع موسوعة السّيرة المكيّة) شراكة بحثية علمية بين جامعة أمّ القرى ومشروع تعظيم البلد الحرام. وطلب منّي قراءتها وموافاة المشرف العام في هذا الاجتماع بعمادة البحوث والدّراسات بعد صلاة الظهر.

أصبحت مسالة أن أنام ساعة واحدة على الأقلّ مسألة جوهرية، فصعدتُ واستلقيت على السّرير، وجهدت أن أنظّم تنفسي، وأحاول في (الشّهيق) أن أوصل الأكسجين إلى كلّ خليةٍ في جسدي. وأن أبالغ في الاسترخاء أثناء (الزّفير). محاولا في الوقت نفسه ضبط إيقاع ضربات القلب. أظنّ أنّ هذه المحاولات كلّها استغرقت ثانيتين حتّى غبتُ تمامًا في الظّلام، وسكن كلّ شيء في السّاعة العاشرة وخمس عشرة دقيقة.

في السّاعة الواحدة تمامًا كنتُ في مكتب عميد عمادة البحوث والدّراسات بجامعة أمّ القرى الدّكتور محمّد الصّوفي رفقة المشرف العام على مشروع تعظيم البلد الحرام الدّكتور طلال أبو النّور.

انتهى الاجتماع في الثّانية والنّصف، توحّد الرّأي فيه إلى الاتّفاق على خطوات عملية في سبيل إنشاء كرُس علميّ للمشروع (موسوعة السّيرة المكية). كان دوري في الاجتماع دورًا أدبيًّا، وهو الدّعم الحضوري. ولم أنبس بكلمة في الاجتماع كلّه إلا جملة واحدة فقط؛ قلتُ تعليقًا على كلامٍ للعميد: (هذا من المضنون به على غير أهله).

عدتُ إلى غرفتي بعد صلاة العصر، وقررتُ أنام إلى قُبيل صلاة المغرب، ثم أعود إلى مكتبي وأنهي ساعات العمل المتبقيّة. ولكني النّوم لم يطاوعني كما حصل قبل الظهر، بل ظلّ يعاندني حتّى نمتُ قبل الخامسة بقليل، واستيقظتُ على صوت إقامة صلاة المغرب في المسجد المجاور (مسجد السّلام).

شعرتُ بعد الفراغ من صلاة المغرب بهدوء وسكينة؛ فإذا باتّصال من معهد أمّ القرى لتعليم الكتاب والسّنة: أين أنتَ يا دكتور؟

طارت السّكينة، وفزّ الهدوء، وامتلا الفراغُ شُغْلًا، لقد نسيتُ تمامًا المحاضرة الأسبوعية في (معهد أمّ القرى). المحاضرات الأسبوعية يصعب الاعتذار عنها، حتى لا يتراكم المنهج الدّراسي، ويصبح من المستحيل المرور عليه مرور الكرام، فضلا عن القراءة الفاحصة المتأنية.

الطّلاب الذين أحاضر فيهم في (مادة أحاديث الأحكام)، وأشرح متن (عمدة الأحكام) للحافظ عبد الغني المقدسي (المتوفّى سنة 600هـ)، متنوّعون من أطباء ومهندسين ومعلمين في مدارس حكومية أو خاصّة، وموظفين في القطاع الحكومي والخاصّ، وأفراد من الأمن من مختلف القطاعات الأمنيّة، وأفراد من عامّة الشّعب.

درّستُ عددًا من فضلاء الطّلبة النّجباء، تشرّفتُ بهم جميعًا. ولا زلتُ على صلة بعددٍ منهم. أذكر من هؤلاء طالبًا كان رؤيته المجرّدة داخل القاعة تبعث في نفسي مزيجًا من الخشوع والتّواضع والسّكينة. فقد كان شيخًا كبيرًا فرنسيًا من أصول إفريقية، يحاضر في جامعة أمّ القرى برتبة (أستاذ دكتور) في قسم الفيزياء، لا أزل أذكر اسمه الذي كنتُ أخاطبه به: الدّكتور موري. كان حريصًا على أن يتعلّم فقه أحكام الطّهارة والصّلاة والصّوم وأبواب المعاملات وأحكام الأسرة المسلمة، ولكن لغته العربية كانت ضعيفة جدًّا، فواجه صعوبات كبيرة في الفهم والاستيعاب، واتّسع

صدر زملائه لأسئلته الدّقيقة أثناء المحاضرة لكبر سنّه ومنزلته الأكاديمية، فلم يتبرّم من كثرتها أحد، ولا من بدهية بعضها.

محاضرتي تمتدّ من بعد صلاة المغرب إلى أذان العشاء، وقد يستغرقنا الوقت الذي بين الأذانين (الأذان والإقامة)، فأصلّي في مسجد (المعهد)، أو أغادر عند الأذان فأدرك صلاة العشاء في مسجد السّلام وهو ما حدث اللّيلة.

كان لا بدّ من تعويض ساعات العمل بعد صلاة العشاء، وبعدها لم أجد موضوعًا للحديث عنه إلا أن أحكي لكم أحداث هذا اليوم بشيءٍ من التّفصيل غير المعتاد. أحداث اليوم معتادة، ولكنها لا تجتمع عادةً في يوم واحد. ورغم ما أحسّه في أعصابي من جهد، إلا أكاد أجزم أنّي لن أنام إلا مسّ الأرنب، ثم يغلبني الأرق.

فوسائدي ملآى بأفكار وأشباح!!

الأحد 13 ربيع الأوّل – 10 نوفمبر

الصّفّ الثّاني الابتدائي!!

البيئة الثّقافية في (دار العلوم) قريبة من البيئة الثّقافية للمجتمع الذي أسكن في محيطه، فكلّ جيراني من أصول جنوب شرق آسيا. وكلّ زملائي بالصّفّ الأول، كانوا فطانيين أو إندونيسيين، ولم يشذّ أحدٌ من أعضاء هيئة التّدريس عن هذه القاعدة.

أمّا في (الرّحمانية) فكانوا يشكّلون النّسيج المكي الذي تختلط فيه كلّ الأعراق المختلفة، فمكة مهوى أفئدة المسلمين، مثابةٌ للنّاس أجمعين. يُجبى إليها ثمرات الأرض وثمرات الفِكْر.

من حديث هذه المدرسة العريقة أنّها من أقدم مدارس تعليم مكة، أنشئت عام 1330هـ وكان مقرّها قريبًا من المسعى. ولمّا زارها المؤسس الملك عبد العزيز بن عبد الرّحمن، سمّاها باسم أبيه (عبد الرحمن)، ثم غلب عليها (الرّحمانية) نسبةً إليه.

وقد مرّ على إدارتها فضلاء رجالات مكّة، أدركتُ ثلاثةً منهم: الأوّل أحمد بن عبد الله مخلص في الصّفين الدّراسيين الثّاني والثّالث، ولما انتقلنا إلى الصّف الرّابع عام 1402 خلفه الأستاذ برهان ضياء الدّين خوجه، ثم خلفه في السّنة التي تليها 1403 الأستاذ محمد عمر سالم القينوي، وكان أحد المعلمين الذين انتدبوا في تعليم اليمن، ومعه الأستاذ فؤاد خياط، وكيل المدرسة.

ومرّ على هذه المدرسة فضلاء المعلمين، وقد قرأتُ في سيرة أحمد السّباعي أحد روّاد الصّحافة السّعودية أنّه تخرّج في هذه المدرسة، ثم انتظم في هيئة التّدريس بعد ذلك. وممّن ورد أسماؤهم من معلمي هذه المدرسة: الشّيخ سالم شفي، وكان أحد علماء المسجد الحرام، وهو جدّ صديقي المهندس عدنان شفي، أحد أعلام العمل التّطوعي في مكة. وأبو البراء عدنان شفي أحفظ له في ذاكرتي قصّةً جسّد فيها أصدق معاني الوفاء، ولا يعلمُ بقصّته هذه إلا قلّة من النّاس.

ولا زالت ذاكرتي حيّةً بأسماء المعلمين الذين أدركتهم في هذه المدرسة، وسوف أقتصر على ذكر المعلمين الذين اتّصلتُ بهم عبر الصّفوف الدّراسية، فمنهم: الأستاذ خالد باروم معلم الصّف الثاني. والأستاذ مهنا خزاعي معلم الصّفّ الثّالث. وفي الصّف الرّابع: الأستاذ محمد علي

صحّاف معلم مواد اللغة العربية، والأستاذ فيصل بن ظافر القحطاني معلم المواد الدّينية، والأستاذ أحمد الصّائغ معلم القرآن، والأستاذ جميل حمو معلم الرّياضيات، والأستاذ جميل مرشد معلم العلوم، والأستاذ فخري (الشّامي) معلم الخطّ العربي، والأستاذ يحيى باقاسي معلم الاجتماعيات (التاريخ والجغرافيا) مع أنّه في الأصل معلم تربية إسلامية.

وكان للمدرسة كلّها معلمٌ واحدٌ لمادة التربية البدنية وهو الأستاذ فاروق منديلي، ومعلمٌ واحدٌ كذلك لمادة التربية الفنيّة، ولا أذكر اسمه لأنّه لم يثبت لدينا معلمٌ أكثر من عام واحد.

حين كنتُ في الصّفّ الثّاني الابتدائي كان أخي عثمان في الخامس، وأخي محمّد في السّادس. فهذه المدرسة الوحيدة التي أدركتُ فيها أحدًا من إخوتي، وبعد ذلك كنتُ أنتقل إلى الصّف الأوّل المتوسط، فينتقل أخي عثمان إلى الأوّل الثّانوي، ولمّا انتقلتُ إلى الأوّل الثّانوي تخرّج أخي عثمان.

ولهذا الأمر أثرُه ولا شكّ، فقد كنتُ في الحياة المدرسية بلا عُزوةٍ من إخوتي الكبار، ودون رقابةٍ منهم. فلا أحد ينقلُ إلى البيت حديثَ المدرسة، من غياب أو مشاجرة أو تردي مستوى الدّراسة، أو صحبة رُفقةٍ سيئة.

أذكر في زملائي في هذا الصّفّ، والذّين كانوا نواةً لصداقاتٍ امتدت سنواتٍ طويلة، لا زال بعضُها قائمًا حبلُ الوُدّ بيني وبينهم إلى اليوم. وكثيرٌ منها انقطع، وتاه في زحمة الحياة= يحيى علي اليماني، وعلي الحجُوري، ومحمّد سالم بانخر، وصالح راوي، وإسماعيل عبد العزيز فطاني، وعبد الباسط عبد الرّحيم فطاني، وعبد الغني عبد الرّحمن فيرق، عصام عاشور، ومحمد قاروت، وعبد العزيز الخديدي، وعبد الرحمن المالكي، وعدنان المالكي، وعبد الله الزهراني، وخالد القرني، وعلي أحمد العماد، وياسر عارف، وياسر البغدادي، ومحمود ماجي فطاني وعبد المحسن فطاني (شوق).

يحيى اليماني وعلي الحجوري ومحمّد بانخر، وعصام عاشور ومحمّد قاروت وياسر عارف وياسر البغدادي، انقطعت أخبارهم بعد الابتدائية تمامًا، ولا أدري أين أرضهم، وما حالهم.

عبد العزيز الخديدي الآن يعمل موظفًا في أمانة العاصمة المقدسة، وقد شارك في بطولة الملتقى السّادسة مع فريق (النّسيم). لقيته فيها فذكّرتُه بزمالتنا القديمة، فحاول أن يكدّ ذهنه ليتذكرني فلم يستطع، مع أننا تزاملنا في ثلاثة صفوف دراسية (الثّاني والثّالث والرّابع)، وتخلّف عنّا في الصّف الرّابع، وكان صوته نديًّا حين ينشد النّشيد الوطني (بلادي بلادي

منار الهُدى)، والذي لحنّه وأدّاه الفنّان سراج عمر. فكان عبد العزيز يبُزّنا جميعًا بحفظ النّشيد عن ظهر قلب، وينشد لنا أبياتها كاملةً في الصّفّ، فلا يُسْقِط منها بيتًا. والحقّ أنّي لو لم أقف على اسمه لما تبيّنته من صورته؛ إذ غيرتُه السِّنون، فأحالته شكلا آخر.

عبد الرّحمن المالكي، فصل عقلُه وأصبح مجنونًا، يهيمُ في الشّوارع. كنتُ قد فقدتُ الصّلة به، ولم أعد أراه أو أسمع عنه شيئًا، حتّى اتّصلت أسبابنا قبل عدّة سنوات، وسكن قريبًا من مدخل حي وادي جليل، فصار يصلّي في مسجد الغزّاوي في مدخل حي الخنساء. فاعتدتُ أن أراه، صورته لم تتغير أبدًا على مدى هذه العقود الثّلاثة. ثم رأيتُه مرّة في المسجد يدور على نفسه ويهذي بكلامٍ لا رابط فيه، فأدركتُ أنّه جُنّ، فأراح واستراح، غفر الله لي وله.

عدنان المالكي، من خيرة الشّباب الذين تقاطعت دروبنا مرّة أخرى بعد سنوات طويلة من الانقطاع، فاتّصلتُ به أثناء غزو العراق للكويت في حلقات تحفيظ القرآن الكريم في المسجد الحرام، وكان من الذين عرّفوني على دروس الشّيخ محمّد خيرو حجازي في (صحن الحرم) بعد صلاة الفجر. وأذكر أنّي حضرتُ حفل زفافه الذي أقامه في قصر أفراح

الشّرائع التي عند أعلام حدود الحرم. ثم انقطعت أسبابنا، وأرجو أن يكون بخير.

عبد الله بن حنش الزّهراني كان طالبًا قليل الكلام جدًّا، ولعلّ ذلك بسبب التّأتأة التي في لسانه، وكان لطيف المعشر، سليم الطّوية، حسن الخُلُق. استمرّت زمالتنا حتّى تخرجنا في متوسطة الرّحمانية، ثم انقطعنا.

خالد القرني كان يسكن في أعلى جبل أبي قبيس، وكنتُ أسكن في سفحه. استمرّت زمالتنا كذلك حتّى تخرّجنا في متوسطة الرّحمانية، ثمّ انقطعنا، ولقيتُه بعدُ مرّة في (جمعية مراكز الأحياء)، وكان يومها مشرفًا تربويًّا في تعليم مكة، فعرّفته بنفسي، فلم يتذكّرني، فذكرتُ له اسمه واسم أبيه، وأسماء إخوته الكبار والصّغار، وحدّدتُ له موقع منزله في جبل أبي قُبيس، فدهُش واتّسعت عيناه، وفي النّهاية لم يستطع أن يتذكّرني.

ومن اللّطيف أنّ له أخًا أكبرَ، اسمه عائضٌ، اتّصلت أسبابنا في نادي الزّهور، وكنتُ وقتها طالبًا في ثانوية الملك عبد العزيز، اشتدت روابط الصّداقة بيني وبينه قرابة ثلاث سنوات، نلتقي يوميًا في (قهوة العياد)، وملعب نادي الزّهور بحي العوالي، وأتردد عليه حيثُ كان يعمل في مستشفى أجياد، وأزوره في منزله في حي ريع ذاخر. ثمّ لما تركتُ نادي الزّهور، وسلكت طريق الاستقامة؛ انقطعت أسبابنا، ومضت الأيّام،

ودارت دورة الحياة، فلقيتُه يومًا واقفًا عند باب منزله، كنتُ مارًّا بسيارتي، فتوقفتُ عنده، وسلّمتُ عليه، فهشّ وبشّ وما عرفني. مُسِحْتُ من ذاكرته تمامًا، مع أنّه حاول بكلّ أدب أن يظهر أنّه عرفني، وهو يداري خجله من شخص يعرف كلّ أفراد عائلته، ويذكر تفاصيل حياته في فترة زمنية معيّنة.

خالد القرني وعائض القرني شقيقان مُسحتُ من ذاكرتهما تمامًا، وإذا تأمّلتم ستجدون أني قد نسيتُ عددًا ليس بالقليل من زملاء الصّفّ الثاني، درسوا معي، وكانوا جزءًا من حياتي. هذه هي الطّبيعة البشرية، نتذكّر أناسًا، وننسى آخرين!!

وللحديث بقيّة،،

الإثنين 14 ربيع الأوّل – 11 نوفمبر

بقيّة الحديث!!

قهوتُكِ هذا الصّباح حُلوة بلا رائحة، فأين ذهبت مرارتُها؟ وأين هربت رائحتها؟ قهوتُكِ هذا الصّباح لا تحملُ عنوانًا، فأين أنتِ؟ وإلى أي جزيرةٍ ترحل النّوارسُ فتطعم فتاتَ الحُبّ من راحتيك؟ قهوتُكِ هذا الصّباح لم تترك مذاقكِ على شفتي، فلِمَ تضنّين بوَصْلك؟

يتذكّر المرء حديثًا جرى قبل ثلاثين سنة، وينسى حوارًا أنهاه قبل سويعات. والبارحة تذكّرتُ عامّة زملائي الذين كانوا معي بالصّفّ، ونسيتُ الطّالب الذي كان دائمًا يأتي أوّل الصّف في الدّرجات النّهائية: زكريا بخش، وكان نديّ الصّوتِ بالقرآن.

لا زِلتُ في حَيرةٍ من ترتيب الأسماء في فصولنا الدّراسية، وأكاد أجزم أنها لم تجرِ على الحروف الألفبائية. أو أنّها مزيجٌ من الحروف الألفبائية وشيءٍ آخر؛ دليلُ ذلك: أنّ زكريا بخش كان في فصل (3 ج)، وزكريا اليماني في فصل (3 ب). وأنا كنتُ في فصل (3 ج)، وعمر بايوسف في فصل

(3 ب)، الدّكتور برهان يالي كان معي في فصل (4 ب)، وفي الوقت نفسه كان عبد الله رمّاني في فصل (4 أ). وبينما كنت أنا وعدنان المالكي في فصل واحد، كان عدنان عبد اللطيف لابو مع عبد الله رمّاني كذلك في فصل واحد.

لم تفرق الفصول الدّراسية بيني وبين زكريا بخش، بينما لم أجتمع مع زكريا اليماني في فصل واحد طوال السّنوات التّسع التي درسناها معًا في الابتدائية والمتوسطة، ولكن لا زالت الرّوابط بيني وبينه قائمة، واللقاءات السّنوية للاعبي نادي الزّهور متّصلة. بينما زكريا بخش لا أقف له اليوم على خبر.

تفوّقت مرّة واحدة على زكريا بخش فكنتُ الأوّل في الصّف الثّالث وجاء خلفي مباشرة، وإلى هذا اليوم لا أدري كيف حصل هذا؟! أستاذ فصلنا هو الأستاذ مهنا الخُزاعي، وهو والد صديقي الدّكتور فازع الخُزاعي، والذي أوتي مزمارًا من مزامير آل داود. التقيتُ به في مخيم دعويّ، وفي إحدى الأمسيات قرأ علينا الآيات الأخيرة من (سورة البقرة)، فأسر قلوبنا، وملك أفئدتنا.

وقبل أن أغادر صفحة الأستاذ مهنا الخُزاعي أذكر حادثة طريفة: كان مقرر مادة التّعبير على أيّامنا مذكّرة مصوّرة نشتريها من مكتبة مرزا،

وفيها تدريبات على الإنشاء، بدءًا من التّعود على الإجابة عن عدّة أسئلة تتعلّق بحياتك الأسرية ومدرستك، وهكذا. فطلب منّا الأستاذ مهنا أن نقوم بالإجابة عن تلك الأسئلة، وكان ممّا يُغض الطّرف عنه أن يستعين الطّالب في تلك المرحلة الدّراسية بأحد والديه أو إخوته في حلّها، وكتابة بعضها.

لا أذكر الآن –وأنا أستدعي هذه القصة من الذّاكرة– هل تطوع أخي محمّد لمساعدتي في حلّ هذه الأسئلة، أم أنّه أُرغم من أبي على ذلك (شكّ إسحاق)، كان يومها في الصّفّ الأوّل المتوسط، وكان جميل الخطّ، يكتب بيده اليُسرى (أشطف)، زبدةُ القول حللنا الأسئلة معًا، يقرؤوها عليّ، ويشرح السّؤال ويحاورني في الإجابة، ثم يكتبها. ثم جاء اليوم الذي جمع فيه الأستاذ مهنا تلك المذكرات، وانتصب لتصحيحها في الفصل، ولما جاء عند مذكّرتي وبدأ في تصحيح أسئلتها انفجر ضاحكًا، ثم ناداني، وقال لي: اقرأ السّؤال (وأشار بأصبعه)، فقرأتُ بعد تهجٍ: لماذا تأخرتَ عن المدرسة؟ ثم أمرني بقراءة الإجابة، فتهجيتُها، ولم أستطع أن أقرأها؛ لأنّ أخي محمّدًا كتبها بخطّ الرّقعة، وكان خطّه دقيقًا برغم جماله، فنظر إليّ الأستاذ مهنا ورفع صوته: لأنّ سروالي ضاع!!

لا أدري متى كفّ زملائي عن حكاية القصّة، والتّندّر عليّ بهذه الإجابة، والقصّة تعدّ فصلا من فصول (مقالب أبي هيثم)!!

أعود إلى الصّف الثّاني والأستاذ خالد باروم أبي هاني، الذي كان يُدّرس جميع موادّ هذا الصّفّ الدّراسي، ما عدا القرآن فقد كان يدرّسها لنا الأستاذ أحمد صائغ، ومادّة العلوم يدرّسنا إيّاها الأستاذ حمزة بُوصي، أستاذ الفصل المجاور. أمّا مادة الحساب فيدرّسنا الأستاذ عبد الباسط فلمبان، وكان يذكر طلبته المتميزين، ومنهم شقيقَاي محمّد وعثمان، ويُذلّني بأنّي لستُ في ذكائهما!!

فكان ماذا؟!!، لقد برع الإمام جلال الدّين السّيوطي في علوم كثيرة، وغدا بمؤلفاته المتنوّعة التي أوصلها تلميذه عبد القادر الشّاذلي في (بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدّين) إلى **1075** كتاب ورسالة= مدرسةً قائمةً بذاتها، ومع ذلك استغلق عليه علمُ الحساب، وقال: لم يُفتح عليّ فيه.

ولي في السُّيوطيّ أسوةٌ حسنةٌ، وقد كان شيخي في (الماجستير)، وبفضل علمه -بعد فضل الله تعالى- نلتُ شهادتها؛ إذ كانت أطروحتي جزءًا من كتاب (الكوكب المنير بشرح الجامع الصّغير-دراسة وتحقيق)، وكتاب

(الجامع الصّغير لأحاديث البشير النّذير) لجلال الدّين السّيوطيّ، وشرحه (الكوكب المنير) لتلميذه شمس الدّين العلقميّ.

عرفتُ في هذا الصّفّ قصة سندريلا، كنتُ أجلس في الفرصة المدرسية (الفسحة) إلى زميلي محمّد بانَخَر، فيقصّ عليّ قصّتها، وكيف أنّها فقدت حذاءها في الحفل الرّاقص، ويصف العربة التي تحوّلت عن اليقطين، وعن دقات عقارب منتصف اللّيل. ثمّ قرأتُها بعد ذلك في مكتبة المدرسة طبعة (المكتبة الخضراء اللّبنانية).

بعد العودة من إجازة منتصف العام؛ سألنا الأستاذ خالد باروم عن حالنا في الإجازة، وأين ذهبنا؟ وأخذ يسألنا فردًا فردًا، وكنتُ في شوقٍ أن يصلني الدّور لأحدثه عن رحلتي الأوّلى إلى المدينة المنوّرة، وقد قضيتُ فيها أربع ليالٍ في بيت (أبو الجود)، وكان يعرض في بهو البيت داخل خزانة زجاجية قوسًا، يزعمُ أنّه قوس سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، وزوّار المسجد النّبويّ يقصدون هذا البيت لمشاهدته، فكنتُ أراهم، وأراهم يتركون أوراقًا نقدية على واجهته الزّجاجية.

انتهى الأستاذ خالد عند زميلنا محمّد قاروت وكان من البيوتات المكيّة، فسأله فأجاب ذلك الطّفل الذي لم يجاوز التّاسعة من عُمُره: رُحنا أمريكا.

– فين في أمريكا.

– أمريكا.

– إيوة، فين في أمريكا.

– والله رحنا أمريكا.

– أمريكا كبيرة يا ولدي، فين رحتُوا فيها؟

– أستاذ، والله رحنا أمريكا.

وهكذا انفعل الأستاذ خالد وتكدّر مزاجه، وصار زميلنا يبكي ظانًّا أن الأستاذ يكذّبه، وانفرط الأمر، ولم يصلني الدّور، ولم أحكِ حكاية (قوس أبي الجود).

وفي هذا الصّفّ حدثت قصتي التي حكيتُها من قبل في (ورقة صفراء) عن حقيقة الهوية الفطانية، وأهمية الانتماء إلى لقب العائلة الرّسميّ (السّيامي).

ومن زملاء هذه المرحلة ممّن نسيتهم البارحة: سليمان توكّل، ولا يغيبُ عنّي هذا الاسم؛ لأنّه أوّل مَن قال لي: ألقاكْ في الصّرفة. وأخذني في الصّرفة على حين غِرّة، وجلستُ أبكي بكاءً حارًّا، فوقف عليّ خالد

العماد، وهو شقيق زميلي في الصّفّ علي العماد، وقال لي: مين ضربك؟ فقلتُ له: واحد من فصلي. فسألني: فينه؟ فقلتُ له: شرد. فقال: بكرة، وريني هُوَهْ!!.

ولا أزالُ أذكر هذا الموقف لأبي سميّة خالد العماد، مع أنّي لم أذكر هذه القصّة قبل هذا اليوم لأحد، وصار أبو سميّة فيما بعد أحد الأصدقاء الخُلّص، وامتدّت بنا صلة الصّداقة والأخوّة إلى يوم النّاس هذا. وتجمعنا لقاءات نصف سنوية، ومجموعة (واتس آب) نتواصل فيها برسائل يومية مع بقية لاعبي (نادي الزّهور). أمّا سليمان توكّل فكان من خيرة الزّملاء فيما بعد، ومن بيت أدب وفضل، عرفتُه وعرفتُ إخوته سميرًا وفؤادًا فكانوا بابةً واحدةً في الفضل والأدب. ولا أذكر ما كان سبب هذه الجملة (ألقاك في الصّرفة)، غير أنّها بلا شكّ من سخافاتنا.

وفي ذاكرة هذه السّنة الدّراسية **1400** غرة شهر الله المحرّم؛ وقعت حادثةُ اقتحام الحرم الشّريف، واحتجاز المصلّين فيه، وتعليق الدّراسة طيلة أسبوعين كاملين. ولا أذكر من أحداث ذلك اليوم إلا أنّ المدرسة كانت خاليةً من أكثر الطّلاب والمعلمين، وبقينا عالقين في المدرسة؛ حتّى مرّ علينا جارنا الشّيخ محمّد بن عبد القادر المنديلي، واصطحب

ابنيه حمدي وحلمي، واصطحبنا معهما (أنا ومحمّد وعثمان)، وأعادنا إلى المنزل.

أحببتُ الأستاذ خالدَ باروم، وتعلّقتُ به، وأذكر أنّي كنتُ صحبة والدي في حافلة من حافلات النّقل الجماعي، فصعد إليها في أثناء الطّريق الأستاذ خالد، فأشرتُ إليه، وقلتُ لوالدي :هذا أستاذي. فلمّا مرّ المحصِّل لأجرة الحافلة دفع والدي أجرته وأجرة أستاذي، وحيّا الأستاذ خالدًا، فأومأ إليه من بين الزّحام الأستاذ خالد، وشكر والدي على لطفه وكرمه. وكان هذا التّصرف من والدي تقديرًا لأستاذي، وإكرامًا لابنه (أنا).

سقى الله تلك الأيّام، ورحم الله كلّ من مات فيها، ممّن ذكرتُ أسماءهم، وغفر لهم، ومدّ في أعمار مَن بقي في عافيةٍ وحسن عمل، إلى خاتمة حسنة.

الثّلاثاء 15 ربيع الأوّل – 12 نوفمبر

امرأة من الزّمن الجميل!!

صوتُكِ البارحةَ ذكّرني، كم كنتُ محظوظًا بكِ، باحتوائكِ بين أضلُعي، بتوسدي ذراعكِ، برؤية إشراقتكِ المسائية، بتبادل الأمنياتِ بليلة استثائية، باحتساء قهوتكِ الصباحيةِ، بسماعِ كلمة: أحبّكِ!!

قبل أكثر من مئة عامٍ كانت بيوتات مكة تعتمد اعتمادًا كبيرًا –بعد الله عزّ وجلّ– على تأجير منازلها للحُجّاج في مواسم الحجّ والعُمرة، فتنتقل إلى الأدوار العلوية من منازلها، وتترك الأدوار السّفلية للحُجّاج، ليسهل عليهم الخروج والدّخول دون أن يزعجوا أهل الدّار.

في تلك الأيام عاشت بمكة إحدى فضليات نساء مكة، قدّمت خدمات جليلة للمجتمع المكيّ، وغادرت الدُّنيا وهي أنموذجٌ يُقتدى بها. ولقد كان من الممكن أن يطوي التاريخ بموتها صفحته دون أن يعلم بها أحد، ولكن الله تبارك وتعالى أراد لعَرف طيبها أن يضوع من بين صفحات التأريخ المكيّ، ليبقى ذكرها شاهدًا على زمن جميل انقضى بموت أهله=

فساق لهذه المرأة طفلا يتيمًا من عائلة علمٍ وأدبٍ وفضل، كان يومها في السّابعة من عُمُره، فأحسنت إليه، وضمّته إلى صدرها، فتعلّق بها، وبكاها يوم ماتت، وقد بدأت القصة في منتصف نهار قائظ، يقولُ ذلك الطّفل:

في منتصف النهار طَرَّق دارُنا فجأة، وكان الصّوتُ قويًّا ومُنذرًا بحيث سمعه كلّ المارّة وأصحابِ الحوانيت، وأهل مكة يُدركون أنّ هذا الصّوت معناه: أنّ انهيار المبنى بات وشيكًا.

كان عمّي (الشيخ جمال مرداد، أحد أئمة الشّافعية بالمسجد الحرام) وقتها في المجلس رُفقة عدد من زائريه، فقام فزِعًا ونادى على شَرْشَيرة أحد الجيران وهو من كبار معلمي البناء، رجلٌ هَرِمٌ قد تجاوز التّسعين من عمره، فجاء يتوكأ عصاه، وطلب مصباحًا، وصار يتفقد الدّار بأدواره وحُجراته ومجالسه ودهاليزه؛ حتى اهتدى إلى الشُّروخ التي كانت مصدر الصّوت، وكانت في المؤخَّر الذي يطلّ على باب الدّريبة من جهة المسجد الحرام مباشرة، فأمر بتفريغ الدّار فورًا (أي: أعلن المنع من سُكنى الدّار، وضرورة هدمها وإعادة بنائها)، ووقف بنفسه بالخارج يمنع الناس من دخول المسجد الحرام من تلك الجهة، ويأمرهم بالتّحول إلى باب السّليمانية من جهة (كتب خانة)، حتى جاءوا بالحبال الشّامية الغليظة فشدّها على الدّار حيث ضربُ عودًا من القندل الفاخر في جدار مدرسة

خوقير، وعودًا آخر في بيت المغربي المجاور لبيت العمدة، ثم ربط الحبال وشبّكها في بعضها، وجاء بعامل يمنع الناس من المرور.

وحين هدأت الأمور أدركنا أننا صرنا بأمتعتنا خارج الدّار، كان القلق باديًا على وجه عمّي وعمّاتي، كانت الأسئلة المُلحّة تطوف بعقولهم: أين نذهب بجموعنا وأمتعتنا؟ ومن أين نأتي بالمال لمواجهة هذه الحادثة الأليمة التي دهمتهم دون إنذار؟

ذهب عمّي رُفقة بعض أصدقائه إلى بيوت كثيرة من بيوت الأقارب والأباعد بحثًا عن مكان يضمّنا فلم يجد لديهم موضعًا يأوينا جميعًا، فعاد بخُفي حُنين، وقال للعمّات: ماذا أصنع؟ ضاقت الدّنيا في وجهي.

وفي لحظة سكون رأيت عمّاتي يبكين بصمت رهيب، فعزّ عليّ ذلك الموقف، وتأثرتُ تأثّرًا بالغًا. في هذه اللّحظة قالت إحدى عمّاتي: لماذا لا نخبر جارتنا سِتّنا خديجة شَربة، فلربما تدلّنا على حلّ؟ وفي غمرة يأسه أجابها عمّي: جَرِّبي.

وقفت عمّتي تحت نافذتها، وصفّقت لها، فأطلّت سِتّنا خديجة في الحال، وقالت: خيرًا إن شاء الله!!

فشرحت لها عمّتي ما حدث من الطّرق والتّقريع الذي حصل لدارنا، فأجابت قائلة: ارجعوا إلى داركم، وائتوني بأمتعتكم وجميع ما تحتاجونه من أثاث وفرش، وتفضّلوا في الحال. أنتم ضيوفي منذ هذه اللحظة، وإلى أن تنتهي عمارتكم، وغداؤكم الآن على النّار. سأبعث إليكم الآن سالم شَربة (أحد مواليها، وكان يؤذّن في المسجد الحرام) ليهتمّ بأمتعتكم وأثاثكم، ويتولّى كلّ شيء.

وكان عمّي يستمعُ إلى هذا الحوار، فسُرّ، واستنار وجهه. وأسرع إلى عمّتي فرِحًا، ولكنه تفاجأ بسالم شَربة وبرُفقته بعض الخدم، يقول له: اذهب مع النّسوة إلى سِتّي، وأعطني مفاتيح الدّار، وسوف آتي بأمتعكم.

فلمّا دخلنا الدّار وجدنا هذه السيدة الفاضلة في استقبالنا، فرّحبت واستقبلت، وأقسمت أننا ضيوفها إلى أن تنتهي عمارتنا.

وكانت هذه السيدة الفاضلة تسكن في هذه الدّار العامرة المكوّن من أربعة أدوار رُفقة مواليها من الإماء اللائي أنعمت عليهن بالعتق، وبقين في صُحبتها، وكنّ أربعًا، منهن: والدة مولاها سالم شربة مؤذِّن المسجد الحرام. فقامت بجمع ثلاث منهنّ في مجلس واحد، وبقي سالم شربة رُفقة والدته في مجلس. وأفردت لعمّي مجلسًا كبيرًا في الدّور الأول له ولضيوفه من طلبة العلم، وجعلت لعمّاتي مجلسًا كبيرًا، ثم التفتت إلى عمّي قائلة: لا تفكّر في

نفقات عمارتكم، خذ ما بدا لك من الجنيه إلى المئة، إذا أجرّتم في الموسم، رُدّوا عليّ ما أخذتم، وإذا لم تؤجِّروا فنظرة إلى ميسرة.

لقد كان من لطيف صنع الله بنا أنّ هذا الطرق لم يحصل لنا وقت الموسم؛ لأنّ معظم الناس في مكة يسترزقون ويتعايشون ويدّخرون من إيجار الموسم على حجاج بيت الله الحرام، فما كنّا سنجد مكانًا عند هذه الوجيهة الكريمة، ولم أكن لأتعرّف عليها، وأقف على ما تقوم به من إحسان إلى المنقطعات من النساء في مكة.

لقد كانت هذه السيدة الفاضلة تؤوي النساء المنقطعات اللاتي انقطعن لسببٍ أو لآخر بمكة، وليس لهنّ بها زوج أو قريب، لقد ظلّ بيتُها طوال حياتها مفتوحًا ليلا ونهارًا في وجوه المطلقات والأرامل والمنقطعات، فتُكرمُهنّ، وتؤويهنّ، وتُحسنُ إليهنّ، حتى يجعلَ الله لهنّ فرجًا أو مخرجًا.

وكانت هذه السيدة الفاضلة تسعى إلى تزويج هؤلاء المطلقات والأرامل، وتُعين على تجهيزهنّ من مالها الخاصّ، بل وتطلب من القاضي أن يجعل مولاها سالم شَربة وكيلا عن هؤلاء اللائي لا وليّ لهنّ، كي تحفظ حقوقهنّ من ظلم الأزواج الذين قد لا يرقبون في هؤلاء النسوة المنقطعات إلا ولا ذِمّة.

لقد عرفتُ هذه السيدة الفاضلة وأنا يومها ما بين السّابعة والعاشرة من عمري، وقد ناهزت هي من العمر السّبعين عامًا، ومع أنّها لم تتزوج في حياتها قطّ إلا أنّها نذرت حياتها لهذه الوظيفة الاجتماعية في مكة، حتى غدت مِثالا يُحتذى، فاقتدت بها نساءٌ فضلياتٌ مكيّاتٌ.

لقد بقينا في ضيافة هذه السّيدة الفاضلة التي طوى ذكرها صفحات التّأريخ قرابة مئة يوم، لم يُنفق عمّي أثناءها قرشًا واحدًا على معيشتنا، وبعد أن عُدنا إلى دارنا بشهرين جاءني خبرُ موتها فبكيتُها، وبقيتُ ليالي عديدة يُخيّل إليّ أني أسمع بكاءَ مَن في تلك الدّار من الإماء والخدم.

هذا الطفل هو الشيخ محمد عبد الحميد مرداد، وقد ذكر هذه القصة في كتابه (من باب الدّريبة بالمسجد الحرام: رحلة عُمُر–صور للحياة الاجتماعية بمكة المكرمة في القرن الرّابع عشر الهجري)، وقد نقلتها مع تصرّف وحذف واختصار وإعادة صياغة في بعضها.

وقد أدركتُ بعضًا من صور هذا التّلاحم في مجتمعنا المكيّ بجبل أبي قُبيس، فكانت الزّبديات تدور بين البيوت. وكنّا نقرع بيوت الجيران، ويقرعون بابنا، نستعير منهم الشيء، ويستعيرون منّا، ولا يذهب الماعون إلى الجار فارغًا، ولا يعود منه فارغًا.

كانت المحبة والمودّة والرّحمة والألفة تشيعُ بين هذه البيوت المتلاصقة، والخيرُ يضوعُ منها. كان الجارّ يعرف جاره، ويعرف أحواله، ويشعر بخَلّته وبحاجته، فيسرع إلى نجدته قبل أن يطلبها، ويطرق عليه بابه، ويحتالُ عليه ليسدّ فاقته ويحفظ في الوقت نفسه كرامته وماء وجهه.

واليوم، لا نزالُ بخير، ولكن على قِلّة واستحياء.

الأربعاء 16 ربيع الأوّل – 13 نوفمبر

الأستاذ فخري علي رضا!!

عادة حين يتغيّب معلمُ الحصة الأخيرة، فإنّ إدارة المدرسة تصرف طلاب الفصل، فصُرِفنا إلى منازلنا. ولكن بقيتُ أنا ونفرٌ من زملائي في طرف السّاحة التي أمام المدرسة ننتظر إخوتنا الكبار حتى نعود إلى منازلنا رُفقتهم. فانتهزنا الفرصة وشرعنا نلعب بالبِلي (البرجون)، كنّا ثلاثةً، أنا وعبد الغني فيرق وثالثٌ نسيتُ اسمه؛ علي الحجوري أو علي العماد أو محمود ماجي (نسي إسحاق). واستغرقنا في اللّعب، فإذا بمدير المدرسة الأستاذ أحمد مخلص ينادينا، فذهبنا إليه، وكان غاضبًا لماذا لم نذهب إلى بيوتنا؟ فصرنا نرتجف من الخوف ولم نستطع أن نشرح له وجودنا في السّاحة بثيابنا التي علق بها التُّراب المبلل. فضربنا أربعة أسواط، وبينما هو يضربنا حضر الأستاذ فخري، وأراد أن يدفعه عنّا، ويشفع لنا، فما أفلح. وكنتُ آخر زملائي، فقال له: اسمح في هذا الصّغير، شكله شاطر. فاستطاع أن يستنقذني من سوطين.

خرجنا نبكي ونتلوّى من الألم، وحملنا كتبنا، وتفرّقنا أوزاعًا. أمّا أنا فحملتُ حقيبتي، وانزويتُ في الطّريق المفضي إلى منزلنا، أنتظر أخي عثمان أو أحد الجيران فأعود معه إلى البيت، فقد كنتُ أخشى الكلاب التي في طريق العودة، فقد عضنّي كلبٌ وأنا صغيرٌ قبل أن أدخل المدرسة في تجربة مريرةٍ، لا زِلتُ على إثرها أعاني من (فوبيا الكلاب).

لم أكن أعرف اسم الأستاذ فخري، ولكني أحببتُه مذ تلك اللحظة، أدركتُ شفقته ورحمته بالطّلاب، فسألتُ زملائي عنه، فقالوا: إنّه الأستاذ فخري، معلم مادة الخطّ العربي.

طوال مسيرتي العلمية؛ لم ألتقِ بمعلم للخط العربي خطّه جميلٌ، إلا اثنين؛ الأستاذ فخري علي رضا، والدّكتور عبد العزيز بن علي الحربي. والأوّل كان أستاذًا بحقّ، كان فنّانًا، كان الخطّ فنّه وعشقه. ويُقال: إنّ من أساتذته في هذه المادة: الأستاذ داود رُماني (رحمه الله). وعرفتُ من أحفاده الذين ورثوا عنه خطًّا جميلًا؛ عبد الله سليمان داود رماني، وحلمي منصور داود رماني.

كنّا ندرس مادة الخطّ العربي ابتداءً من الصّفّ الرّابع الابتدائي وحتّى الصّف السّادس، نتعلّم قواعد الكتابة بخطّي النّسخ والرّقعة. واستفدتُ فائدة كبيرةً جدًّا من الأستاذ فخري، الذي كان يصوّب ما نكتبه، وكان

يثني على أصحاب الخطوط الجميلة، ويتفرّس المواهب من أشكال الحروف، فكان دائم الثّناء على زميلنا (أزهري)، ولم نكن نفهم سرّ ذلك الثّناء، ولكن الخطّاط يعرف الخطّاطين من حروفهم. وبالفعل تطوّر أزهري في الخط العربي، وفي كلّ ما له صلّة بهذا الفنّ الجميل، والآن يلقي دورات تدريبية في تصميم الشّعارات التّجارية وأشياء أخرى دقيقة لا أدركها.

كانت كلمات الأستاذ فخري التّشجيعية تعمل عمل السّحر في نفوسنا، وكان يحب (الجاوات) بصفة خاصّة لموهبتهم الفطرية في الخطّ والرّسم. وقد تقاعد لمّا بلغنا الصّف السّادس في منتصف العام الدّراسي، هو والأستاذ عبد الله الخليفي معلم المواد الدّينية، فخلفهما في الفصل الدّراسي الثّاني وكيل المدرسة الأستاذ فؤاد خياط. وقد استطاع أن يعوّض غياب الأستاذ عبد الله الخليفي، ولكن لا أحد يستطيع أن يحلّ محل الأستاذ فخري.

لم يتفوق عليّ أحدٌ من زملائي في الخطّ العربي أو الرّسم، ما عدا طالبًا واحدًا؛ عبد الله رمّاني، ولا زِلتُ أعتقد أنّه هو الذي خطّ أسماءنا على شهادات التّخرج. ومع ذلك حين ألتقي به لا أتذكّر أن أوجّه له هذا السّؤال.

لم يقتصر الأستاذ فخري على تعليمنا الخطّ العربي، واكتشاف أسرار جماله فحسب، بل اعتنى بتوجيه أخلاقنا لمعالي الأمور، وكان يضرب لنا صورًا من ماضي الحياة المجتمعية التي عاشها، فيكثر على لسانه جملة (كان عنّا بالشّام). وهو من أوائل مَن سمعته يذمّ المشروبات الغازية، ويوجّه إلى شرب العصير الطّازج الغني بالألياف.

أمّا الدّكتور عبد العزيز الحربي؛ فقد كان معلم مادة الخط العربي في الصّفّ الأوّل الإعدادي بمعهد الحرم المكي الشّريف عام 1412، وكانت حصّته روضة من رياض الأدب؛ إذ كان يخطّ لنا كلّ أسبوعٍ بيتًا أو حديثًا على اللوحة، ويطلب منّا كتابتها، ومحاكاته، ثم يصحح أوراقنا، ويوجّه الضّعف في حرفنا.

ثم إذا فرغ من كلّ ذلك؛ يطلب من الطّلاب أن يتصدّر أحدهم لإعراب البيت أو الحديث، ثم يدير النّقاش بين الطالب وزملائه، ينصر هذا على هذا، ويُبيّن صواب هذا من فساد ذاك. فكان مجلسًا من أمتع مجالس الأدب، ولا أزال أذكر أنّي تصدّيتُ في سنتي الأولى إلى إعراب بيت أبي العلاء المعرّي:

النّاسُ للنّاسِ من بدوٍ وحاضرة   بعضٌ لبعضٍ –وإن لم يشعروا– خدم

ومكة (حرسها الله) تزدان بخطاطين على مستوًى عالٍ جدًّا، وذلك؛ لأنّ مصنع كسوة الكعبة الشّريفة استقطب إليها أفضل خطاطي العالم الإسلاميّ.

ولكني ذكرتُ اثنين تلقيتُ عنهما أصول هذا العلم الشّريف، أحدهما كان هذا الفنّ عشقه، والآخر (عبد العزيز الحربي) كان هذا الفنّ هوايته، والعربية بعلومها هي شغفه، فغدا أحد أعلام العربية في هذا العصر، ورئيسًا لمجمع اللغة العربية على الشّبكة العالمية بمكة المكرمة.

قرأتُ مقالا على (موقع تعليم مكة) نُشر في 6 محرّم 1438هـ، بعنوان (الرّحمانية، أقدم مدرسة حكومية بتعليم مكّة، سيرة وتاريخ)، ذُكِر في هذا المقال أنّ الأستاذ فخري علي رضا توفي قبل نشر هذا المقال بثلاث سنوات، أي: عام 1435هـ.

رحمه الله تعالى، وأرجو أن أكون بهذا المقال، قد أدّيتُ بعضَ حقّه عليّ، فقد كان رُغم شدّته رحيمًا شفيقًا عطوفًا حنونًا.

الخميس 17 ربيع الأوّل – 14 نوفمبر

الحبّ رغم الجلد!!

هذا أنا، أجمع كفّيك إلى شفتي، يمتلئ صدري بعبق راحتيك، أردّد نغمًا قديمًا التقطته أذني من فم عجوز مرّت ذات ليلة في زقاق حيّنا. أتجاوب مع تراتيلك قبل التّباشير، قصائدك التي تغنيها الحقول. قطرات النّدى تختلط بحبّات العرق، وبلَلُها يختلط بقُبلاتك. كلّ شيء اختلط بحبّات العرق!!

لا حديث لتوفيق غير أصدقائه الجدد، يصف أماكنهم منه، ويُعدّد أسماءهم، نسيتهم جميعًا عدا رسلان وأفنان، قلتُ له: أفنان اسم فتاة؟ قال: نعم، ولكن التّايلانديين لا يعلمون هذا، وأرجو ألا يعلم أفنان بهذا.

أمّا حمودي؛ فقد خفّ حماسه تُجاه بعض أصدقائه، وانصرف عن بعضهم، فقلتُ له: هذه أمورٌ تحصل يا ولدي، ولكن يجب أن تنعم النّظر في صداقاتك قبل أن تقرر ألا تأسف على بعضها. لا بدّ من

النّظر إلى الأسباب، هل تستحق أن نمضي في صداقاتنا، وتعزيز حبالها. أم لا؟

في (الرّحمانية) عقدتُ صداقاتٍ عدّة، بعضُها امتدّ زمنًا طويلًا، ثم انفصلت عُراها، وتخلل بعضها (رِدّة)، وبقي حبل الودّ متّصلا بعامّة أولئك الأصفياء في تلك الأيّام حين ألتقي بهم، رؤيتهم تذكّر بأصدقائي الذين اختفوا في زحمة الحياة، وضلوا في سراديب الوقائع ومتاهات حوادث الأيّام والسّنين.

كان الضّرب وسيلةً من وسائل التّربية في أيّامنا، ولا تكاد تجد معلمًا لا يضرب. كان الأستاذ أحمد صائغ معلم القرآن لا يضرب، وكذلك: الأساتذة يحيى باقاسي، وحامد العمودي، وعبد الله الخليفي، وفخري علي رضا، وغازي خياط، وفيصل بن ظافر، وحسن دوبي، وهو عددٌ ليس بالقليل.

كان لدينا معلمٌ يعطيك الواجب المدرسي، ويضربك سوطين حتّى يُذكّرك ألمُه بحلّه. أتذكّر هذا الأمر فينقدح سؤالٌ: هل كان يستمتع بالضرب؟

لقد كان يحتجّ لسلوكه هذا بقصّة الجارية التي كان يرسلها سيدها بإناء إلى السّوق لتشتري كامخًا أو خَلًّا، فكان قبل أن يرسلها يجلدها سوطين،

فتحتجّ عليه، فيقول لها: جلدُك الآن له فائدة، يُذكّرك ألمُه فتحرصين على الإناء، أمّا جلدك بعد كسره فلا نفع فيه؛ إذ لا يجبرُ كسر الإناء.

ليتني مكان الجارية؛ فأكسره عند أول زقاق.

وحدّثني زميلي كمال مأمون أو ياسر بغدادي (شكّ إسحاق): أنّه كان يجلدهم في دروس التّقوية المسائية التي يدفعون أجرتها من جيوبهم. كان لديه إيمانٌ راسخٌ بأهمية الضّرب.

وكان لدينا معلمٌ آخرُ يجلدنا جلدًا مُنكرًا جدًّا يُسمّى (المطُّ) يجلد بسوط دقيق على مؤخّرة الطّالب جلدًا سريعًا متتابعًا لا يقلّ عن عشرة أسواط، يتوعدنا به توعدًا، ولا أذكر طالبًا سلم من (المطّ) طوال السّنوات الثّلاث (الصّفوف العليا) التي درسناها. قد ننجو مرّة، ونقع تحت سوطه مرّات وكأنّه كان حريصًا على مبدأ المساواة فينا، وكان يفعل ذلك على مرأى ومسمع الجميع، بل تحت أنف المدير.

أذكر في الصّفّ الرّابع الابتدائي أوّل جهاز تكييف وُضع في فصولنا، وكان هذا المعلمُ –الذي يمطّنا– إذا دخل الفصل ووجد كتابات على (السّبورة)، أطفأ جهاز التّكييف والمروحة، وجعلنا نرفع بأيدينا حقائبنا الممتلئة بكتبنا عاليةً فوق رؤوسنا، ونبقى على تلك الحال حتّى تطيب

نفسُـه= عقوبـةً علـى تقصـيرنا وإهمالنـا في مسـح (السّـبورة) اسـتعدادًا لحصته، فلا أذكر أنّ طالبًا واحدًا لم يكن يبكي من الألم الذي يسري إلى ساعده وهو يرفع حقيبته. كانت هذه العقوبة تكسر أشدّ الطلبة فتوةً.

ومعلمٌ آخر لم يستخدم العصا أبدًا في الفصل، ولكنه كان يصفع صفعًا شديدًا، حين تخطئ في إجابة أو تقصّر في واجب مدرسي. كان الصّفير يدوّي في أذنك طيلة اليوم.

أذكر هذه الصّور السّلبية لاستخدام الضّرب كوسيلة تربوية نافعة، أساء استخدامها كثيرٌ من المعلمين؛ لأقول عن نفسي: أنّي ما كرهتُ أحدًا من هؤلاء المعلمين الذين ذكرتُ أساليبهم في الضّرب، بل كنتُ أحبّهم، وأحترمهم، وأذكرهم بالذّكر الجميل، وأترحم عليهم، وأسأل الله أن يكتب لهم أجرهم، ويتجاوز عن زّلاتهم، فكلنا ذوو زلل.

الشّخص الذي كرهتُه فقط، وتمّنيتُ أن ألتقي به يومًا لأقول له ذلك= لم يكن معلمًا، كان إداريًّا. كان رجلا ثرثارًا؛ إذا تكلّم ليعظنا استرسل استرسالا مملًا، وكان لا يفتأ الإشارة إلى نفسه في أي سلوك يريدنا أن نسلكه، لنجعله هو المثال ومحل الاقتداء. وكنتُ أدرك رغم صغر سنّي أنّه سلوكٌ بغيضٌ. كانت لديه موهبة عجيبة في الثّرثرة، لا تملك في كلّ مرّة تستمع إليه إلا أن تبغضه، فاجأني مرّة في الفصل وأنا أقلِّب مجلة (ماجد).

وكانت تصدرُ يوم الأربعاء، فكنتُ أخرج في الصّباح الباكر قبل بداية اليوم الدّراسي إلى مكتبة الثّقافة في (الشّامية)، أملا أن أصادف الموزّع عند المكتبة، فأظفر بالمجلة. ونادرًا ما أفلح وأفوز بالمجلّة، وأذهب بها إلى المدرسة، أتيه بها بين زملائي.

أعود إلى القصة، فأقول: فاجأني هذا الإداري وأنا أتصفح (العدد الجديد)، فأمسك به، وأخذ يقلّبُه مستنكرًا ما فيه من رسومات القصص المصوّرة، فأشرتُ إلى باب (أحباب الله) وهو ورقتان كاملتان تعزّزان القيم الإسلامية من تفسير آية أو شرح حديث أو قصة في السّيرة، وهكذا.

فأمسك بالورقتين يقللهما في يده، وقال: بكم المجلّة؟ فأجبته: ريالان. فقال مستنكرًا: هاتان الورقتان ريالان؟!!

قمّة الاستخفاف بعقول النّاشئة، وتصنّع الغيرة الدّينية، والمزايدة على جهود المربّين، فعلامَ ندرس الرياضيات والعلوم والجغرافيا والأدب من قصص وشعر؟!!

هذا الإداري ضربني يومًا فكان ذلك الضّرب القشة التي قصمت ظهر البعير، أخذني بالظِّنّة وأنا في الطابور الصّباحي، فأخرجني في السّاحة، وجلدني أمام هذا الجمع الحاشد أنا وزميلي الذي كان يقف أمامي (ولو

شِئتُ لسمّيتُ هذا الزّميل)، يزعمُ أنّنا أخللنا بأداء التّمارين الصّباحية، وكان محض افتراء، خانته عيناه، وخانته ثقته بنفسه، فجلدنا بكلّ إخلاص.

وقد قُدِّر أن ألتقِي به يومًا، ولكن اللهَ قد أذهب كلّ ما كان في صدري، ورغبتُ أن أحادثه، وأذكرُ له أنّي أحد خريجي مدرسة (الرّحمانية)، وأشكرُ له فضلَه، ولكنّا كنّا نقفُ على شفير قبر مفتوح، وقد نزل فيه أحدُ المعلمين الفضلاء ليُوسِّد ابنته، فكان الموتُ أعظم واعظ.

إنّ الحياة لا تحلو ولا تصفو إلا بالحبّ، وإنّ السّعادة لا تسكن قلبًا تُزاحمُ فيه بالحقد والكُره والبُغض. السّعادة لا تسكن إلا قلوب الشّاكرين، الذين ينظرون دومًا إلى الجانب الممتلئ من الكأس، فيشكرون الله عليه، فيزيدهم من فضله، والله واسع العطاء، يحبّ الشّاكرين.

اللهم اغفر لهم، وتقبّل منهم..

الجمعة 18 ربيع الأوّل – 15 نوفمبر

التّجربة اليتيمة!!

يتردّد في السّكون المظلم صوتان، أحدهما يرسل الحديث إرسالًا، والآخر قد فرط زمام الحديث منه، فلم يُمسك ولم يدع. يطوف بهما الحديث في مسارح الفكر، ويهبط بهما في أودية الحبّ. فإذا ذهب اللّيل بجرس الصّوت، مال الحديث، وانطوى السّكون في سكون، وتراقصت الظّلال. وسكتت شهرزاد!!

حكاياتها مبعثرةٌ غير مكتملة، وأسمارها مِزَقٌ بلا وَعْدٍ، والسّارد يلتقط أجزاء نايه المكسور، ويرتق أشلاء حُلُم تمزّق ذات ليلةٍ شاتيّة، نوافذها مفَتّحةٌ وأجسادها عارية!!

إذا وضعت شيئًا أجوفَ في الماء، فإنّه يطفو على سطحه، ولا يغوص أو يرسبُ في قاعه مهما كان حجم كثافته. أمّا إن كان دون جوفٍ، وكان أكثر كثافةً من الماء؛ فإنّه يهبط إلى القاع، ويرسبُ فيه.

كان مصطلح الرّسوب -على أيّامنا- شائعًا في المدرسة الابتدائية، فكنتَ تجدُ في الصّفّ الأوّل طالبًا أو أكثر قد تجاوزه زملاؤه إلى الصّفّ الثاني، وخلّفوه وراءهم. أدركتُ طالبًا فلسطينيًا رسب في الصّفّ الثّالث مرّتين، ثمّ خلّفته ورائي، وتجاوزتُه إلى الصّفّ الرّابع، ولا أدري ما صنع الله به. لم يكن غبيًّا، ولكن أفسده التّدليل، وكان جميل الصّورة، فزاده جمالُه فسادًا. وهذا النّظام ساعدني على اكتساب صداقات عدّة زملاء فضلاء تخلّفوا عن زملائهم، فأدركتهم، وكانوا من خيرة أصدقاء تلك المرحلة الدّراسية.

لم أكن طالبًا متميّزًا إلا في الرّسم والخطّ، وسوى ذلك فأنا رقمٌ من الأرقام، لستُ في أوّل الصّفّ، ولا في آخره، وحتّى الرّسم لم أكن أنال فيه درجاتٍ عالية.

أذكر في الصّف الخامس الابتدائي رسمتُ لزميلٍ في كرّاسته (مشروع الدّرجة النّهائية)، فأعطاه المعلم الدّرجة الكاملة (100)، وأعطاني على مشروعي (88). فكنّا حديثَ الفصل!!

شاركت في الصّفّ الرّابع في (جمعية الأناشيد)؛ طبعًا الأمرُ لا علاقة له بجمال الصّوت، بل لقلّة الخيارات أمامي، فقد كانت الجمعيات الطّلابية من الأنشطة اللّاصفية المفروضة علينا فرضًا في تلك السّنة الدّراسية،

ولم أُقْبَل في (جمعية الإذاعة المدرسية، ولا في: جمعية الفنون التشكيلية، ولا في: جمعية المكتبة، ولا في: جمعية الصّحافة، ولا في: جمعية الكشافة) لاكتمال العدد؛ إذ بدأ تسجيل الطّلاب في هذه الجمعيات من الصّفّ السّادس.

في اللقاء الأوّل كنّا عشرة أعضاء أو أقل من طلاب الصّفوف العليا. وكان مقرّ الجمعية في فصل (4 ب)، أي: الفصل نفسه الذي أدرسُ فيه. وكان أستاذها هو: الأستاذ محمّد علي صحّاف، سجل أسماءنا، وذكر أنّ اللقاء سيكون أسبوعيًّا. ولا أذكر عدد اللّقاءات التي انتظمتْ فيها الجمعية. ولكن أذكر في اللّقاء الثّاني (أو الثّالث) أنّ الأستاذ سألنا من يحفظ نشيدًا؟ فلم يجبه أحدٌ، فرفعتُ يدي، وقلت: أنا أحفظ نشيدًا.

ثم وقفتُ وأنشدتهم قصيدة (الشّهيد) للشّاعر الفلسطيني عبد الرّحيم محمود:

سأحملُ رُوحي على راحتي

وأُلقي بها في مهاوي الرّدَى

فإمّا حياةٌ تسرُّ الصّديقَ

وإمّا ممات يغيظُ العِدى

ونفسُ الشّريفِ لها غايتان

ورودُ المنايا ونيلُ المُنى

لعمْرُكَ إنيّ أرى مَصْرعي

ولكن أغُذُّ إليه الخطى

ألقيتُها كاملةً ملحّنةً كما حفظتها عن أخي عثمان؛ إذ كانت القصيدةُ مقررةً على طلّاب الصّفّ الأوّل المتوسط؛ فشاركتُه حفظها لقوّة جرس كلماتها في نفسي، فالقضية الفلسطينية كانت حاضرةً في ذاكرتنا الأدبية، وفي حياتنا الثقافية، بل كانت حاضرةً في ثقافتنا الشّعبية، وأكثر ما أعمى الذين غرّر بهم جهيمان عن رؤية تهافت حجّته في المهدي القحطاني= هو إعلانُه أنّهم سيخرجون من الحرم إلى تحرير الأقصى. فانساقوا لوعده، فألحدوا في المسجد الحرام.

وكانت قصيدةً متوسطة الطّول، تبلغ تسعة عشر بيتًا، وقد خلّدها الشّاعر الفلسطيني في ذاكرة القضية الفلسطينية حين استشهد عام

1948 في معركة الشّجرة. فحقّها أن تصنّف في القصائد التي قتلت أصحابها، أعني: أنّ معانيها دفعته إلى أن يموت في سبيلها.

فكأنّ صوتي في تلك المرحلة العُمُرية كان مقبولًا، وراق له لحنُ القصيدة، فقرر أنّ تكون القصيدة هي نشاطنا، فأمليتُها عليه، وكتبها على (السّبورة)، وشرع يشرح لنا أبياتها. ونردّدها داخل الجمعية باللحن نفسه أداءً جماعيًا. فكان صوتنا يصل الجمعيات الأخرى، فأعلنّا عن أنفسنا.

كانت هذه التّجربة اليتيمة بالنّسبة للإنشاد، وكان الأستاذ محمّد علي صحاف كريمًا مع أعضاء جمعيته، فاشترى لنا هدايا مكتبية فاخرة (طقم أقلام، وأبواك مجلّدة). وكانت الهدية الوحيدة في تلك المرحلة الدّراسية (الابتدائية).

رحم الله الأستاذ محمّد علي صحّاف، ومدّ في عُمُره إن كان لا يزال حيًّا، فقد كان معلم اللغة العربية في الصّفّ الرّابع، وترك أثرًا طيّبا في نفسي في حبّ اللغة العربية نثرها وشعرها، ولم يبقَ في مدرستنا أكثر من سنة واحدة، وانتقل عنها (أو لعله لم ينتقل، لكن أسبابنا لم تتقاطع بعد هذه السّنة الدّراسية). أمّا الصّفّ الخامس فأخذنا العربية عن الأستاذ غازي خياط، وفي الصّفّ السّادس الأستاذ عيّاش عايش خياط. وقد ساهموا جميعًا في تقريب هذه اللّغة الخالدة إلى نفوسنا.

وقد كنتُ أفضّل في تلك الأيّام الأستاذ غازي على غيره؛ لأنّه كان أكثرهم لطفًا. أمّا اليوم وأنا أستدعيهم من ذاكرتي؛ فأرى الفضل لهم جميعًا، دون أن أميل إلى أحدهم دون أخيه، فكما شجّعنا اللّطف، كذلك قوّمتنا الشّدّة والحزم.

ولا يعرف الفضلَ لأهل الفضلِ إلا أولو الفضل، وأرجو أن أكون منهم، غفر الله لي ولهم.

السّبت 19 ربيع الأوّل – 16 نوفمبر

سارعي للمجد والعلياء!!

يذكرني سوادُ اللّيل حين يغيب القمرُ لونَ شعرك حين نتحسس الظّلمة، ونسائمُه رائحةَ خَصَلاته حين ينسدل على وجهي، فلا تغيبي!!

فليالي الشّتاء موحشة، وبردُه يسري إلى العظام، فيدقّها، ويعتصر مُخّها. فأرتجف وحدي في قاع البرج المظلم حيث الأرض المقرورة الباردة.

في تلك الظّلمة لا شيء يجعلني أتعلق بأسباب الحياة إلا طيفُكِ، فأنتِ حروفي فيها، وأنتِ نبضها، وأنتِ مدادُها، وأنتِ عرائس معانيها، ودُماها التي تتراقص في ضوء القمر. فلا تغيبي، فإنّي أريدكِ اشتعالًا، جسدًا وفكرًا، غِوايةً وجنونًا. أن نشعل حريقًا في غابات قهرنا المكبوت، ونُخْرِج من شعلة أجسادنا أغنياتٍ مجنونة!! فتحرق كلّ تلك الأوراق، فلا يقرأنا أحد.

عام 1403 تولّى إدارة (الرّحمانية والمعتصم بالله) إدارة جديدة تمثّلت في الأستاذ محمد عمر القنيوي مديرًا، والأستاذ فؤاد خيّاط وكيلًا. وقد كان من أثر هذه الإدارة الجديدة أن علّقت ترجمة واسعة لإنجازات الخليفة

الثّامن من خلفاء بني العبّاس (المعتصم بالله)، فتعلّقنا بهذا الخليفة الذي لُقّب بـ (المثمن)، وقرأنا قصة عمّورية قصة الصّرخة الشّهيرة: (وامعتصماه)، وحفظنا فيما بعد البيتين اللّذين يبكي فيهما عمر أبو ريشة هذه المأثرة العظيمة للمعتصم بالله:

رُبّ وامعتصماه انطلقتْ

ملء أفواه الصّبايا اليُتَّم

لامست أسماعهم لكنها

لم تلامس نخوةَ المعتصمِ

وقد أحدثت هذه الإدارة الجديدة في المدرسة وأنظمتها عدّة تغييرات، فمن ذلك أنّها فرضت على الطّلاب لبس (الكوندرة)، ومنعت ارتداء الصّنادل. وفرضت عقوبات بدنية على المخالف، ويُجرى أثناء الطّابور الصّباحي ملاحظة الطّلاب المخالفين، ومن ثمّ إخراجهم من الصّف، ومعاقبتهم.

ومن أثر هذا القرار الجديد أنّ الطّلاب بدؤوا يقيسون المستوى الاجتماعي للطالب من نوعية (كوندرته)؛ فإن كانت من التي توزّعها

(وزارة المعارف) ضمن الطّقم الرّياضي= عدّوه من الطبقة الفقيرة. وإن كانت من الجلد أو من الماركات الرّياضية العالمية (أديداس، بوما، باتريك)= احتفلوا به، وقدّروه. أداة جديدة أضيفت إلى الأدوات الأخرى التي يقيس بها الطّلاب طبقاتهم الاجتماعية (الحقيبة المدرسية، الأقلام، الثّوب، السّجادة، وأخيرًا: الحذاء).

ومن الطّريف: أننا كنّا نظنّ أنّ الحذاء المجاني الذي يوزّع علينا ضمن الطقم الرّياضي= من النّوعية السّيئة، نظرًا لأنّها مجانية، والنّاس تزهد دومًا في (أبو بلاش)، ولم يكن في حقيقته كذلك، بل كان من النّوعيات الجيّدة. وقد تأكدنا من صدق ذلك لاحقًا، حين تحولّت هذه النّوعية إلى موضة، وصارت تباع بأسعار غالية، يصل بعضها إلى (400 ريال).

وأحدثت: قطعةً معدنيةً نحاسيةً تأخذ شكل حدود المملكة العربية السعودية، يُلْصق عليها اسم الطّالب وفصله الدّراسي، وتثبتُ بدبّوس على صدر الطّالب. وكانت قيمتها (خمس ريالات)، فرضت علينا إدارة المدرسة شراءها، وتعليقها على صدورنا، وكنّا نعاقب على إهمالها، أو نسيانها. وكانت مع غلائها بالنّسبة لنا، سيئة الصّنع، يعتورها الفساد من كلّ جهة، وأذكر أن دبُوسها انكسر قبل أن أعلقها على صدري. فكرهتُها من تلك اللحظة التي انكسر فيها الدّبّوس. وقد تفتق ذهن بعض العائلات تغليفها

مثل البطاقات، ثم تعليقها على الجيب بـ (مشبك)، فكانت فكرة مبتكرة، ومع ذلك لم يتمّ استبدال هذه القطع المعدنية –التي أرهقت جيوبنا– بالبطاقات، إلا في سنواتٍ تلت.

وأحدثت: المقصف المدرسي، وكنّا في السّنوات السّابقة نتغذى على الوجبات المدرسية التي توزّعها (وزارة المعارف) على جميع مدارسها. وقد استمرّت تلك الوجبات حتى عام **1402**. وانقطعت عام **1403** ونحن في الصّف الخامس، فكنّا نشتري في (الفرصة المدرسية) من الباعة المتجولين الذين يقفون عند بوابة المدرسة فنشتري منهم، والذين كانوا يبيعون عادة (سندويتشات بيض مسلوق، أو: فرموزا، أو: منتو). أُسندت إدارةُ المقصف المدرسي إلى الأستاذ خالد باروم، وكان المتعهد الذي تولّى أعمال المقصف أخٌ إندونيسيٌّ، اسمه: سِرواني، وكان الطّلاب يحرِّفون اسمه إلى (سُروالي).

أعدّ مقر (المقصف المدرسي) في طرف (دهليز) المدرسة بالدّور الأرضي جهة الشّام، وكان (سرواني) يُعد أنواع السندويتشات المعتادة في المقاصف: بيض مسلوق، وبيض مطجن، وتونة، وجبنة. وكان يستعين ببعض طلاب الصّفوف العليا في عملية البيع؛ لأنّهم يهجمون عليه في (الفرصة) هجمة رجل واحد، فيعجز بمفرده أن يستجيب لهم في وقت واحد. فيستعين

بطالبين أو ثلاثة، مقابل إعطائهم وجبة مجانية، وأذكر أنّه استعان بي مرّة أو مرّتين وأنا في الصّف الخامس.

وأحدثت الإدارة الطّابور الصّباحي، ولم نكن قبلها نقف في الطّابور، ولا ندري ما الطّابور؟! فصرنا نقف صفوفًا تمثل صفوفنا الدّراسية قبل موعد بداية الحصة الأولى بـ 15 دقيقة على ما أذكر، ثمّ نؤدّي التّمارين الصّباحية، وهي عبارة عن تمارين إحماء خفيفة وبعضها طريفٌ أظنّه كان يهدف إلى الإحماء الذّهني وتحسين المزاج اليومي، وهو أنّنا كنّا نضرب بأصبع واحدة على بطن الكفّ الأيسر، ثم نرفع معدل سرعة الضّرب مع زيادة أصبع ثانٍ، ثم ثالث، ثم رابع، ثم نعود القهقرى في العدّ، حتى نرجع إلى الحالة الأولى، ثمّ نكرر هذا التّمرين مرّة أخرى، وهكذا. فكان الصّوت الذي يصدر عن أكفّ الطّلاب في الطّابور الصّباحي أشبه بصوت المطر ينهمر على أسطح المنازل، يبدأ قطرة قطرة ثم تشتد قطراتُه شيئًا فشيئًا يشبه صوت المطر الكثيف في ليلة شاتية.

ثم أحدّثت في الطّابور الصّباحي: نشيدًا لا أذكر كلماته، ولا معانيه، ولكن أذكر أنّ الأستاذ أحمد الصّائغ هو الذي كان يردّده ونردّده من خلفه. كان هذا عام 1403، ولم يكن النّشيد الوطني الذي كتبه الشّاعر السّعودي إبراهيم خفاجي قد اعتمد بعدُ، وإنّما أعلن عن ميلاده في يوم الجمعة أول

أيّام عيد الفطر المبارك عام 1404، فعُزف السّلام الملكي الذي شارك في تلحينه الموسيقار طارق عبد الحكيم عام 1947؛ أوّلَ مرّة مصحوبًا بكلمات إبراهيم خفاجي، والذي أعاد توزيع كلمات النّشيد على لحن السّلام الوطني هو الفنان سراج عمر. ومنذ ذلك اليوم صار النّشيد الوطني يُعزف في بداية البثّ التلفزيوني، ويُختتم به:

سارعي للمجد والعلياء

مجدي لخالق السماء

وارفع الخفاق أخضر

يحملُ النّور المُسطر

ردّدي (اللهُ أكبر) يا موطني

موطني، عشت فخر المسلمين

عاش المليك للعلم والوطن

أدركتُ النّشيد الوطني يُعزف في الطّابور الصّباحي في المرحلة المتوسطة، أمّا في ثانوية الملك عبد العزيز فلم يكن هناك طابورٌ في الصّباح، بل كان الطّلاب يتوزّعون ضمن مجموعات صغيرة داخل المدرسة في ساحاتها المتعددة، أو حول سورها الخارجي، ولا يصعدون إلى الفصول إلا عند سماع جرس بداية اليوم الدّراسي، وفي هذه المجموعات الصّغيرة التقطت كثيرًا من العادات السّيئة التي لازمتني طوال السّنوات الأربعة التي قضيتها في هذه الثّانوية.

هذه أبرز التّحديثات التي قامت بها إدارة الأستاذ محمّد سالم القنيوي، خلال السّنتين اللّتين أدركتُ فيهما إدارته.

في الأعوام العشرين الأخيرة نشأ في تايلاند فئةٌ مجتمعيةٌ تُعرف بالمولدين (أي: الذين وُلِدوا في مكّة)، هذه الفئة تحمل الجنسية التّايلاندية، ولكنها لا تحفظ نشيدها الوطني، ولا تتكلم بلسان أهلها أو تدين بثقافتها. وقد يحدث أن يُمتَحن بعضُ هؤلاء للتّأكد من هويته الوطنية بالنّشيد الوطني التّايلاندي، فيقع في مأزق خطير، ولا يكاد ينفذ بجلده إلا بعد لأيٍّ. ومن المفارقات أنّ هذه الفئة تستظهر عن ظهر قلب (النشيد الوطني السّعودي)، وتدين بثقافته وقيمه التي يُنادي بها. فئة مجتمعية تحمل هويةً دون ثقافة، وثقافةً دون هوية.

السّلام الملكي التّايلاندي يُعزف في الميادين العامّة مرّتين كلّ يوم، صباحًا ومساءً، يُذكّرونك بوطنيتك وأنتَ غادٍ أوّل يومك، ويُذكّرونك به وأنتَ رائحٌ آخرَ يومك. ابني أحمد يحفظ بعض كلمات النّشيد الوطني التّايلاندي ويُحرك فمه في بقيّتها، أمّا توفيق؛ فيحرك فمَه طوال النّشيد، ويردّد في قلبه (سارعي للمجد والعلياء).

اللهم احفظ بلاد الحرمين، واحفظ أهلها،،

الأحد 20 ربيع الأوّل – 17 نوفمبر

خارج المكان!!

بعد صلاة العشاء كنتُ في لقاء مفتوحِ لفريق (دراج الملتقى)، اجتمعوا بعد تمرينهم الأسبوعي على وجبة دسمة (ساتي). التقيتُ في ذلك الجمع الطّيب بعددٍ من أبناء شعب علي وشعب عامر، منهم: خالد كيري وحمودة بُشناق وأفرادٌ أعرفهم بملامحهم التي تحمل هوية (الرّحمانية الابتدائية). وجرى في الحوارات الجانبية ذِكر عدد كبير من رفاق تلك المرحلة العُمُرية.

أقرأ في هذه الأيّام (خارجِ المكان) مذكّرات المفكر الفلسطيني الأمريكي إدوارد سعيد. فصّل في الفصول الأولى علاقته بأسرته أبيه وأمّه وأخواته الأربعة، فكانت علاقة مضطربة، الحبّ فيها مستتر غير ظاهر. ويجهد إدوارد فيها أن يفهم أسباب تلك العلاقة المضطربة المتطلبة من قبل والديه على أن يتّبع خطوات خطة مرسومة بدقّة. تحدّث عن والديه بطريقة يريد أن يوصل إليك فيها: أنّه أحبّهم بطريقته هو، وأحبّوه بطريقتهم هم. ولم تكن طريقته تروق لهم، ولا طريقتهم تروق له.

وقبل أن أقدّم لكم (خارج المكان)؛ أوجز لكم مَن هو إدوارد سعيد؟

يعدّ إدوارد وديع سعيد أحد أهم المدافعين عن القضية الفلسطينية في القرن العشرين، وهو أستاذ جامعي للأدب الإنجليزي في جامعة كولومبيا بنيويورك. ولد بالقدس بجواز أمريكي لعائلة فلسطينية مسيحية، توفي بسرطان الدّم عام 2003م. وقد قدّمه كتابه (الاستشراق) للعالم، فظهر بعدها في السّاحة الأدبية والسّياسية؛ حيث قامت أفكاره فيه: على توضيح وتأكيد ارتباط الدّراسات الاستشراقية بالمجتمعات الإمبريالية وأنّ للاستشراق أبعادًا وأهدافًا سياسيةً في صميمه، وأنّه خاضع للسلطة، ولذلك شكّك بأدبياته ونتائجه. وكان لمعرفته القوية والعميقة بالأدب الاستعماري أثرٌ في قوّة أفكاره.

ونشأ إدوارد سعيد، وهو يعاني هذه الازدواجية في اسمه، وفي لغته، فقد وُلد يتكلّم باللغتين العربية والإنجليزية، ولا يدري أيهما لغته الأمّ؟ وكيف يكون إدوارد، واسم عائلته سعيد؟ وطوال مرحلته الدّراسية في المدارس الإنجليزية والأمريكية بالقاهرة لم يتقبّله المجتمع الإنجليزي ولا الأمريكي؛ لأنّه عربي. وبعد خمسين عامًا قرر إدوارد سعيد أن يكون عربيًّا، وأن يعيد اتّصاله بقضية العرب الأولى (فلسطين).

وهذا أوّل درس تتعلّمه يا توفيق من (خارج المكان): لا تتنكر لأصلك، فهذا أمرٌ لا خيار لك فيه، ولكن تصالح معه.

كان (جون سنو) يُعيّر بأنّه ابن خطيئة، وهذا أمرٌ لا ذنبَ له فيه، جريمة هو ضحيتها، فكيف يُعاقب المجتمع الضّحية؟

وكان تيريون لانستر ينصح جون سنو ألا ينزعج من لقب (سنو) الذي يشير إلى أصله، ويشير عليه أن يجعله مصدر قوّته. وكان تيريون نفسه يعاني من كونه منبوذًا في عائلته؛ لأنّه قزمٌ، ومن ذلك جملته الشهيرة في محاكمته بقتل الملك جوفري: أنا مذنبٌ ومتّهم بجريمة بشعة، وهي أنّي قزمٌ. أي: أنّ جريمته الوحيدة ليست من صنع يده، بل هي قدره.

سوف ينظر المجتمع العنصري في بانكوك إليك وإلى أمثالك من الفطانيين بنظرة فوقية، فإيّاك أن تحاول استرضاءهم، بل عليك أن تتصالح مع نفسك، وأن تجهد لتكون إنسانًا نافعًا للإنسانية، خير ممثل لدينك وأمّتك. وأن تجتهد لتتفوق على التّايلانديين أنفسهم في لغتهم. فإنّ هذا يكسر شوكتهم تجاهك.

في الأوساط العلمية تكون العنصريةُ –عادةً– ساكنة مثل المياه الرّاكدة، لكن ما إن يُلقى فيها حجرٌ إلا وتتحرك دوائرُها على السّطح، وتصّاعد منها روائحُ نتنة؛ كان هناك أحدُ الأساتذة في السّنة المنهجية (الماستر)

لا يرتاحُ إلا لقراءتي، حيثُ إنيّ لا أكاد ألحنُ في القراءة، وقد أسند إليّ القراءة بعد أن سأل زملائي عن أنحى طالبٍ فيهم، فأجمعوا بالإشارة إليَّ. وكان مشتغلا بالحديث له عناية بالعربية.

هذا الأستاذ الجامعي من فضلاء أهل العلم الذين عرفتهم في (الجامعة الإسلامية)، وكان من أمره أنّه أسرّ مرّة إلى الطّلبة في غيابي: كيف ترضون أن يتفوّق عليكم هذا التّايلاندي في لغتكم العربية، ويبزُّكم فيها؟!

والطّريف أنّ الذي كتب قرآن العربية (الكتاب) رجلٌ من أهل فارس، وليس شيخًا من عُنيزة!!

أقترحُ عليك يا سفيان أن تقرأ هذه المذكرات (خارجِ المكان)؛ لأنّها مذكّرات أديب اشتغل بالسّياسة وبقضايا أمّته العربية. وإدوارد اختار هذا العنوان (خارجِ المكان)؛ لأنّه حين كتبه كان في أمريكا، وكان يكتب عن طفولته العربية بلغة إنجليزية، فهو يكتب خارجِ المكان والزّمان والثقافة، فكان العنوان الذي يرمز إلى هذه الأبعاد الثّلاثة.

قراءة مثل هذه الكتب الأدبية النّاقدة للحياة، تعيد لنا قراءة بعض (الرّموز الفكرية) بطريقة ناقدة، من ذلك أنّ إدوارد ذكر عددًا من النّاشطين لحقوق الإنسان والسّياسيين والمفكرين، وأظهر نفاقهم فيما يخصّ القضية

الفلسطينية، مثل مارتن لوثر كينج، الذي كان يدعو لحقوق السّود، ويؤيّد في الوقت نفسه الممارسات الصّهيونية تجاه الفلسطينين. قال إدوارد: لم أستطع أن أغفر له.

تربينا في بيئتا الحجازية بخاصّة وفي السّعودية بلاد الحرمين بعامّة أنّ القضية الفلسطينية هي قضية الأقصى، قضية دينية، تتعلّق بقبلة المسلمين الأولى، وأحد المساجد الثّلاثة التي تُشدّ إليها الرّحال لذاتها. بينما الفلسطينيون بخاصّة والعرب بعامّة لم ينظروا قطّ إلى قضية فلسطين من هذه الزّاوية، بل كانت قضية فلسطين مذ كانت= قضية أرض مغتصبة، ولذلك اجتمع عليها الفلسطيني المسلم والفلسطيني المسيحي والفلسطيني اليهودي، كلّهم يُعادي الحركة الصّهيونية كحركة سياسية استعمارية.

مذكرات إدوارد سعيد (خارج المكان) تقرّب إليك هذه الفكرة بشكل كبير جدًّا، فتفهم من خلالها كيف استطاع هذا المسيحي الفلسطيني أن يكون رقمًا صعبًا في الدّفاع عن حقّ الفلسطينيين في العودة إلى أرضهم، وكيف كان دائم الانتقاد لياسر عرفات والسّلطة الفلسطينية. فكانت كتبه في فلسطين ممنوعة من الصّهاينة ومن المتصهينة.

ولكن عليك أن تتوقف عند حديثه عن أسرته، وتحمد الله على ما أنعم به عليك من حياة أسرية مستقرّة. لا يجب أن يتحدّث أحدٌ عن عائلته بسوء، وبخاصّة والديه.

لم أتحدّث في هذه الجداريات عن أمّكم، ولا عن أمّي. أمّا أمّكم؛ فلأنّ الحديث لم يتشعب إليها، والحديث يأخذ أسبابه بأسباب بعض. أمّا أمّي؛ فلأني ورثتُ عنها دمعتها ورقّتها، فلا أذكرها إلا وتفرّ الدّمعة من عيني، ولا أذكر ساعاتها الأخيرة إلا وتنقبض روحي، وقد ظللت فترات طويلة بعد رحيلها يتملّكني شعورٌ قويٌّ: أنّ الألوان استحالت لونًا واحدًا، وأنّ الحياة لا مذاق لها.

أحببتُ والدتي بطريقتي، وأوصلتُ إليها حبّي. وأحبّتني بطريقتها، وأوصلت إليّ حبّها، لم ندّخر مشاعرنا، ولم نكتمها، ولم نسرف في إعلانها.

اللهم اغفر لها، وارحمها!!

الإثنين 21 ربيع الأوّل – 18 نوفمبر

آخر السّطر، نقطة!!

من المواد الجديدة التي طرأت علينا في الصّفّ الرّابع: مادة الجغرافيا. وقد درسناها على الأستاذ يحيى باقاسي، وهو في الأصل معلم المواد الدّينية، ولذلك لم يصدق أخي محمّد أنّه معلم مادة الجغرافيا، وأخذ يسخر منّي، واتّهمني بالجهل باسم أستاذ المادة، وأنه يستحيل أن يكون يحيى باقاسي. فأطلّ علينا مرّة صباح يوم الخميس على شاشة التّلفاز فضيلة الشيخ الدّكتور عبد الله المصلح، فقلتُ له: هذا الشّيخ يشبه الأستاذ يحيى باقاسي. وقد كان الشّبه بينهما واضحًا، فرضي وسلّم.

من الأحداث التي أتذكرها بوضوح في حصص مادة الجغرافيا: أننّا كنّا مرّة ندرس حدود المملكة العربية السّعودية، فأشار على خريطة شبه الجزيرة العربية إلى دولة الإمارات العربية المتّحدة، وكانت الإمارات دولة عزيزةً على قلبي، فمنها تصدر مجلّة كل الأولاد وكلّ البنات (مجلة ماجد)، وفي تلك الأيّام كانت الإمارات تضيف الدّورة السّادسة لكأس الخليج العربي، والتي فاز بها المنتخب الكويتي، وكانت المشاركة الثانية

لماجد عبد الله مع المنتخب السّعودي، وحصل فيها على لقب هداف البطولة بالمشاركة مع ثلاثة آخرين لكلّ منهم ثلاثة أهداف. الشّاهد أنّ الأستاذ يحيى باقاسي، لما أشار إلى الإمارات= سأل: مَن يعرف ماذا يحدث فيها الآن؟

وقد كنتُ أعلم ما يجري فيها، ولكني حَزَرْتُ أنّه يعني شيئًا آخر؛ لأنّي لم أتصوّر أنّ شخصًا بلحية الأستاذ يحيى باقاسي الكثّة، لديه اهتمامات رياضية. فوجمتُ متردّدًا، ولم يجب أحدٌ من زملائي، فقال: دورة الخليج العربي السّادسة.

ولم ينقضِ عجبي من إجابته!!

أذكر في (الرّحمانية) عددًا من معلمي المواد الدّينية في (الصّفوف العليا)، ولكن لم أشعر بهيبة أحدٍ من هؤلاء مثل ما شعرتُ به عند الأستاذ يحيى علمًا وأدبًا وحرصًا على الإفادة والتّوجيه. ولا تزال نصيحةٌ من نصائحه عالقةً بذهني إلى اليوم، وألجأ إليها في أحيانٍ كثيرة، ذلك أنّه وجّهنا يومًا بسبب كثرة أخطائنا أثناء قراءة القرآن من المصحف أن نقرأ بأعيننا لا بعقولنا: أن نربط ألسنتا بأعيننا، فنقرأ ما نراه. فجهدنا على تدريب أنفسنا على ذلك، فاستقامت ألسنتا.

وهذه الطّريقة في القراءة ألجأ إليها كثيرًا حين يشرد ذهني أثناء القراءة، فأجد نفسي قرأت عدّة صفحات دون أن يعلق في ذهني شيءٌ منها، فأعود إلى تطبيق نصيحة الأستاذ يحيى، فأقرأ الكلمة بعيني كلمة كلمة، فإذا بالذّهن الشّارد يحضر ويصفو.

ومن معلمي الدّين: الأستاذ أحمد الصّائغ، وأحسبه من أصدق معلمي القرآن الذين عرفتهم (والله حسيبه)، فقد كان يكافئ الطّلبة المجتهدين من جيبه الخاصّ، ويدنيهم منه، ويقرّبهم إليه. وكان قصير النّظر يلبس نظّارة ثقيلة العدسة، كأنها عدستان في عدسة.

ومنهم: الأستاذ حامد العمودي، وكان معلمًا لطيفًا طيّبًا، يشرح لنا مادّة الفقه، وأذكر أنّه حاول أن يرسم لنا الخفّ على (السّبورة) ونحن بالصّفّ الخامس، ليُقرِّب لنا معنى (المسح على الخُفّين)، فاستطعنا أن نفهم الدّرس فهمًا جيّدًا. وكان أستاذًا محبوبًا من المعلمين، كان يقتحم علينا الفصل أثناء حصّته أكثر من أستاذ، ليتحدّثوا إليه، ويشاكسونه، وكان يتضايق منهم، لحرصه على وقت الحصّة الذي هو حقٌّ لنا، وليس لسواليف المعلمين الفارغة، فيتركونه ويعاودون الكرّة عليه. فهمنا هذه المشاكسات في تلك الأيّام على أنّه أستاذٌ محبوبٌ، وكل المدرسين يستظرفونه، ويوَدّونه.

وأذكر ونحن في الصّفّ الخامس جاءنا معلمٌ يُقرئنا القرآن الكريم، فأقرأنا (سورة يوسف)، وكان طيّبًا جدّا، يستظرف الطّلاب بعامّة، ويصطفي منهم عددًا يخصّهم بمزيد لطفه إمّا لذكاء الطّالب أو لظرافته أو لمسكنةٍ فيه. كانت لديه أسبابه لتقريب بعض الطلاب إليه. وقد أخذ به الحماسُ يومًا فقرر أن يفسّر لنا تفسير (سورة يوسف)، أو يقصّ لنا حكايته من خلال الآيات. علق بذهني –وأنا في ذلك السّنّ الذي يلتقط كلّ شيء– بعض المعاني التي فسّر بها بعض الآيات المشكلة في (سورة يوسف)= فاعتقدتُ خطأها، وأذكرها اليوم فأعدّها منكرةً، بل غايةً في النّكارة. غفر الله لي وله.

وأذكر من معلمي الدّين: الأستاذ عبد الله الخليفي، وأنّه كان يدرّسنا مادة التّوحيد والفقه في الصّف السّادس، ولكني لا أذكر شيئًا من دروسه، وهل طالت صحبته لنا في الفصل، أم لا؟؛ لأنّه تقاعد ونحن في الصّفّ السّادس. فتطوّع وكيل المدرسة الأستاذ فؤاد خيّاط، وحلّ مكانه، وقد استطاع أن يحفر في ذاكراتي ضبطَ تعريف الصّوم، وشَرَحَه لنا بدقّة بالغة، كان له أثرُه في ضبطي لصوم رمضان، ولا زلتُ أشعر بأثره إلى اليوم.

ومن الأساتذة الذين أحببتهم: الأستاذ فيصل عطّاس، مدرس مادة التّاريخ، وكان خطّه دقيقًا جميلًا، يستخدم يده اليُسرى. وكان يحضر وطبشورته الطّبية معه، ولا يكتب إلا بها. ولا أدري، هل كانت تلك عادته، أم تهيأت له أثناء تدريسنا؟

كان الأستاذ فيصل يثير حماستنا في حصّته، يحكي الواقعة التّاريخية بكل حماسة، وكأنّه ممثلٌ على خشبة المسرح، يعلو صوته وينخفض، ويحرّك يديه كأنّه يخطبُ في محفل. التّاريخ سجلٌ حافل لقصص الماضين من أنبياء وملوك وأمراء وعلماء وأولياء وقادة وفرسان. وقائع تُستلهم منها الدّروس والعبر، حواضر مجتمعية وحضارات إنسانية قامت هنا وهناك، ثم زالت وُمحيت عن الأرض، لكنّها خُلّدت على صفحات التّأريخ الإنساني، كُتبت بأقلام مختلفة، بعضها أمينٌ مصلح، وبعضها مغرضٌ مفسد.

مثّل لنا الأستاذ فيصل عطّاس في تلك المرحلة العمرية= كلّ ذلك بطريقته السّاحرة في تدريس التّاريخ، فأحببتُه وأحببتُ مادّته. ولا أزال أذكر أنّي قرأتُ كلّ كتب التّاريخ في جميع المراحل الدّراسية في الأسبوع الأوّل من استلام الكتب. وختمتُ تلك القراءة بكتاب (تاريخ الخلفاء) لجلال الدين السّيوطي الذي درسناه في معهد الحرم من الغلاف إلى الغلاف. فكان من أجلّها.

ومن أمتع كتب التّاريخ المدرسية التي استمتعت بقراءتها (تاريخ 4) في النظّام الثّانوي المطوّر الذي يتحدّث عن تاريخ الحضارة الأوروبية، حيث قرأنا عن عصر الانحطاط الأوروبي في العصور الإقطاعية، وتسلط رجال الدّين في الكنيسة الكاثوليكية، وإصدارهم لصكوك الغفران، والثّورة التي قادها الألماني مارتن لوثر ضد الكنيسة حيث أحرق خمسين صكًّا للغفران في ساحة عامّة، والثورة الفرنسية التي بذرت بذور العلمانية في العالم ضدّ الدّين (نقطة، ومن أول السّطر):

إنّ فساد رجال الدّين أو علماء الدّين قديمًا وحديثًا، يؤدّي إلى ظهور الإلحاد، وانتشاره. تضعف ثقة النّاس في العلماء الذين يمثّلون الدّين، ثمّ في الدّين نفسه.

وأختمّ بهذه الجدارية الحديثَ عن الفترة التي قضيتُها في (الرّحمانية والمعتصم بالله)، وقد تخرّجتُ فيها بتقدير (جيّد جدًّا)، وهذا التّقدير لازمني فيما أذكر في كلّ مراحلي الدّراسية في (وزارة المعارف)، لم تكن روحي تنافسية أبدًا، ولم أرغب يومًا في التّفوق على زميلٍ من الزّملاء في الدّرجات. قد أرغب في التّفوق ونيل درجة جيّدة، ولكني لم أكن أهتمّ أن أكون (الأوّل)، ولم أسعَ إليه يومًا.

وكنتُ أشفق على أصدقائي الذين يحمّلهم آباؤهم عبءَ الحصول على المركـز الأول، ويتعرّضـون لسـخطهم إذا أخفقـوا. وأحمـدُ الله أنّ أبي لم يحمِّلني هذا العبء يومًا، ولا حمّلته أنا على أبنائي، ولا زيّنتُه لهم. جُلّ ما كنتُ أهتمّ به، وأرجوه منه: أن يفهم ما يدرسه، لا أن يكون ببغاءً أو جهاز تسـجيل أو نسـخةً من كتاب تـزدحم أرفـف المكتبـات بنسـخه الكثيرة، وطبعاته المختلفة. إنّ الفهم عندي هو مفتاح النّجاح في الحياة الأولى والأُخْرى.

اللهـم اجـزِ معلمـي (الرّحمانيـة والمعتصـم بالله) خـير الجـزاء، تقبـل مـن المحسنين إحسانهم، وتجاوز عن المسيئين إساءتهم. اللهم واغفر للأموات منهم، ومدّ في أعمار مَن بقي، في عافية بدنٍ وحسن عملٍ، اللهم آمين.

الثّلاثاء 22 ربيع الأوّل – 19 نوفمبر

سُقيا الرّوح!!

دخلت المدرسةَ وأنا في السّابعة من عُمُري، ومكثت فيها ستّ سنوات، وطوال هذه السّنوات الاثني عشر، لم أخرج من هذا العالم الصّغير (شعب علي). والذي كان النّسيج الاجتماعي فيه نسيج مكّي حضري قَبَلي. والجاليات التي تسكنه غالبيتها من جنوب شرق آسيا (إندونيسيا، تايلاند، ماليزيا)، وعامّتهم من (فطاني)، بينما تكثر الجالية الإندونيسية في الشّامية والفلق. وتوجد قبائل اختلطت بحاضرة مكّة تسكن الجهة المطلّة على شعب عليّ من جبل خندمة من بني مالك وزهران وحُرّث ميسان. وتكثر الجالية اليمنية في الجهة المقابلة من جبل أبي قُبيس. هذا هو النّسيج المجتمعي المكّي لشعب بني هاشم (شعب علي).

وهو في الذّاكرة التّاريخية الشّعب الذي حُوصر فيه بنو هاشم وبنو المطلب من قبل قريش ثلاث سنوات، حتى سُمِع أصواتُ بكاء أطفالهم من الجوع.

ممّا أدركتُه من معالم شعب عليّ ممّا لم يجر الحديثُ عنه: مدرسة النّجاح اللّيلية. وتزعم الذّاكرة المكيّة أنّ موقع هذه المدرسة هو بيتُ أبي طالب عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، بينما تزعمُ أنّ موقع (مكتبة مكة المكرمة) الحالي هو مكان مولد النّبيّ صلى الله عليه وسلم. وهذه الذّاكرة المكية أثبتها الأزرقيّ (توفي سنة 250هـ) في كتابه (أخبارُ مكّة وما جاء فيها من الآثار) نقلا عن أهلها في ذلك الزّمن من القرون الثّلاثة الفاضلة.

ولا زال هذا المعلم (مكتبة مكة المكرمة) بارزًا إلى اليوم تفضي إليها من السّاحة الشّرقية للمسجد الحرام من جهة المسعى. أمّا مدرسة النجاح الليلية فكانت تواجه الذي يدخل الحي ثم أخذ جهة اليمين. وبجانب هذه المدرسة كان بيت عائلة الرّمبو من (شيوخ حُجّاج الجاوة)، أعني: مطوّفي حجّاج دول جنوب شرقي آسيا، وتأتي أهمية هذا البيت أنّ العم عبد الله اليماني (راعي المقلية) كان يبسط طاولة المقلية عند بابه، وأحيانًا في دهليزه. فكنّا نشتري إذا انصرفنا من المدرسة خمس حبّات عجينة مقلية إمّا بكراث أو بدون كرّاث بريال واحد، ويعطيك معها طاسة صغيرة بها سلطة حُمُر، تغمس فيها المقلية، ثمّ تعيد الطّاسة إليه، فيمسحها بخرقة نظيفة، ثم يعيد ملأها لغيرك.

وكانت هذه الدّقائق التي نجلس فيها إلى العم عبد الله= من متع تلك الحياة التي عاشها الأجيال المتلاحقة التي أدركت مقلية العم عبد الله (رحمه الله).

كان معلمًا من معالم شعب علي، يُقصد من الأحياء المجاورة. وكان الطّلاب الذين تخرّجوا في الرّحمانية الابتدائية أو دار العلوم من غير أهل (الشّعب)، يثوبون إلى مقلية العم عبد الله بين وقتٍ وآخر. ولا يزالُ يُذكر العم عبد الله وتذكر مقليته، ذكرى خالدة فيمن أدركوه من أبناء شعب علي.

أزيل هذا الحيّ واختفت معالمه من خارطة البلد الحرام، ولكنها بقيت بكل دفئها في ذاكرة أهلها الذين عاشوا فيها. شكّلت ذكرياتهم عنها جزءًا عميقًا من ملامحهم المكيّة الخالصة.

ولا أذكر عدد المرّات التي خرجتُ فيها من المسجد الحرام، ووقفتُ عند (المولد النبوي)، وأخذتُ أرسم طريقًا في ذاكرتي أسلكُ فيه الزّقاق الضيق الذين يفصل عمارة البنك الأهلي التجاري عن المولد النبوي، حيث أنفذ منه إلى برحة عم بكر كُوزُمبي (هكذا كان يُعرف)، وهي برحةٌ قذرة نتنةٌ، وكأنّ المارّة اتّخذوها مبولةً حيثُ دورة مياه المسجد الصغير مقفلة دومًا. أمرّ من هذه البرحة ركضًا وأنا واضع يدي على أنفي أو كاتمٌ أنفاسي، يمينًا من زقاق المسجد الضّيق= إلى ساحة شعب علي الكبيرة، حيث تصطف فيها سيارات أهالي الحيّ على طريقة (مَن سبق لبق).

من هذه النقطة حيث أقف بعد أن خرجتُ من برحة بكر كوزومبي أكون واقفًا عند الدّرج الذي يصعد بك إلى المسجد الصغير الوحيد في شعب

علـي، وعـن يميـني مركـز عـم حسـن خشّـاب (الـدّيب)، فـإذا تقـدّمت قليلا والتفتّ إلى اليمين فإني أرى محل الفوّال اليماني في ركنٍ مجمع تجاري، ثم يمينه جهة المشرق مكتبة الرّماني (مصطفى ومنصور رمّاني)، وبعد ذلك تحوّلت إلى (مكتبة الفيرق)، ويقابل المكتبة= محل أحمد العمودي للأبازير والعسل والسمن البلدي، أشياء من هذا القبيل. أذكر أنّه كان يبيع موادًا غذائية، ولكنه لم يكن بقّالًا، وإلا فأنا واهمٌ تمامًا، ونسيتُ نشاطه التّجاري. الطّريق الذين بين مكتبة الفيرق ومحل العمودي= يؤدّي إلى جبل خندمة حيث منزل الأصدقاء: حلمي وأحمد رمّاني وعبد الغني فيرق وزكي نواوي وحسين سمّان وعبد الناصر السيامي وأسامة وصلاح كابو ومحمّد صالح (أخي سومطرة)، وملعب نادي الجزيرة، وقد كانت لي في هذه الأنحاء قصّة حبّ هادئة مرّت من حياتي كسحابة صيف، أذكر هذه الإشارة، فلربّما قرأتْها يومًا (فاتنة)، وتساءلت: أأنا التي كان يهوى؟

أعود إلى حيث أقف، فأبصر أمامي مباشرةً مدرسة النّجاح اللّيلية، فأسير إليها في استقامةٍ، فإذا بمركاز عمدّة الحي محمّد علي عيّاد عن يميني، ثم فاكهاني العم ناصر اليماني، ثم الحلّاق عبد الرّحمن فطاني، ثم خياط ثياب (فطانيٌ كذلك)، ثم مطعم مأكولات جاوية للفطانيين. ثم برحة مقلية العم عبد الله. فإذا عرّجتُ جهة اليسار فإني أتجّه إلى المدرسة الرّحمانية، وفي هذه

الجهة منازل الأصدقاء: السّمي الصّفي عدنان عبد اللطيف جامو، وعبد الله كيري وصالح وإدريس راوي وأيمن إسماعيل فطاني.

أمّا إذا سلكتَ جهةَ اليمين فإنّك تتجّه صعودًا في استقامةٍ حتى يتفرّع الطّريق فرعين؛ فرعِ جهة اليسار يأخذك إلى مدرسة دار العلوم الدينية، وفي تلك الأنحاء منازل الأصدقاء: يوسف وأحمد مغربي، وأحمد يوسف (طنطا)، وصبري يعقوب، وعزمي عبد الله فطاني، وعبد الملك سخاخني، والدكتور بكر سراج عياد وشقيقه الدّكتور عمر، وابن عمهما عبد الرّحمن العمدة، وأبناء حميد: عبد الله وحسن وأحمد، وهناك صديقٌ باكستانيٌ مجاورٌ لهما اسمه: حسن. وقد كان لي في هذه الأنحاء شجوٌ، لازمني طويلًا، ومن أثره عرفتُ عبادي الجوهر.

أمّا إذا سلكتَ جهةَ اليمين فستجد طريقًا صاعدًا يتفرّع عنه طريقٌ جهة اليمين، كلاهما يصعدان بك إلى قمّة جبل أبي قبيس، يؤدّي الذي عن اليمين إلى المكان الذي عضنّي فيه كلبٌ في ظهيرة يوم بئيس، عند بيت رضوان وحسب الله ونعمان الصّيني. أمّا إذا سرتَ في استقامةٍ فستجد بيت الصّديق زهير ملاكا عن يسارك، ثم يتفرّع أمّامك زقاقان، إذا اتّجهتَ جهة اليمين ستواجه بيتًا قديمًا برواشينه الخشبية، هذا البيت كان يسكن فيه أبو يزن محسن فطاني (عضو فريق درّاج الملتقى).

اتّجه يمينًا وسرّ حيث يسير بك الطّريق جهة اليسار، حتى تقف أمام درج يصعد بك في زاوية حادّة إلى الأعلى، فإذا بدأت بالصّعود فعن يمينك منزل شيخنا الوالد محمد بن عبد القادر منديلي، فإذا تجاوزتَه فقفْ عند باب المنزل الذي يليه، اطرق البابَ، وسل عنّي، فقد وصلتَ منزلي.

هذا هو العالم الذي عشتُ فيه ثمانية عشر عامًا قبل أن نُرغم عن الرّحيل عنه لصالح مشروعات توسعة ساحات المسجد الحرام. كان فيه مرابعُ الطّفولة، ومغاني الشّباب، ومسرح الحياة لهوها وجدّها. تجسّد في هذا العالم كلّ خصائص الحياة الحجازية بأصالتها وعراقتها وعبقها ونقائها. وفي هذه الأزّقة تُروى حكاياتها وأساطيرها، عشتُ فيها صورًا حيّة للتكافل والتّعاون والتآزر بين الجيران والإخوان والأصدقاء.

كان حيّ شعب علي بأهله صورّة مصغّرة للحياة المكية، جيران زمزم والحرم!!

صبّحتُها

والخيرُ في أسمائها

مسَّيتُها

والنُّور ملءُ سمائها

حيَّيتُها

بجلالها

وكمالها

وبميمها وبكافها وبهائها

وغمرتُ نفسي

في أقاصي ليلها

فخرجتُ مبتلا بفيض بهائها

وطرقتُ ساحاتِ النّوى

حتّى ظمئتُ إلى ثُمالاتِ الهوى

فسقيتُ سلسبيلا من منابع مائها

(محمّد الثّبيتي)

الأربعاء 23 ربيع الأوّل – 20 نوفمبر

يومُ أبي طه!!

لا عليكِ، كلّ الأمور مقاليدُها بيديه. هو اللّطيف سبحانه، وسوف يأخذ بيديه. نبضُهُ يقلقكِ، ويقلق راحتيه. هو عليك حانٍ وأنتِ تجزعين عليه. ودّ لو سقاكِ كأس السّكينة، وأمسك الدّمع عن مقلتيه. حتى لا تبكينه، وذاك ما لا طاقة له عليه. صبرًا جميلًا، فالآجال مقدّرةٌ لديه. ويُبتلى المرء كي يقدُمَ على ربٍّ غفور، ولا ذنبَ عليه.

كلّما أردتُ أن أخرج من شعب عليّ حيث المرحلة الابتدائية؛ لأحكي لكم عن المرحلة المتوسطة في المدرسة (الرّحمانية) التي كانت تقع في شعب عامر عند سفح جبل خندمة= أجد الذّاكرة تشدّني للبقاء في أروقة (الرّحمانية الابتدائية).

هذه الذّكريات التي أحكيها لكم (ولأبنائي بصفة خاصّة) لا ألبس فيها عباءة المؤرِّخ، ولا أعتمر عمامته. وإنّما أكتبُها عفوَ الخاطر، وتترابط أحداثها في سياقات مختلفة، لا تحكمها روابط منطقية، وإنّما تجرّها المناسبة اليومية. فأشكر كلّ الإخوة الذين يفيضون عليها من ذاكرتهم، فيمدّونها بأسباب

الحياة، أذكرهم بالذّكر الجميل، وأذكر أنّ الأيّام قد قرّبت بيننا في وقتٍ كنّا فيه أحوجَ ما نكون معًا افتقارًا، وباعدت بيننا في وقتٍ نحن أحوجَ ما نكون فيه غِيَرًا. وحبلُ الودّ بيني وبينهم عامرٌ، وعلائق الصّداقة والأخوّة فينا ممتدّة.

علمتُ في الصّباح الباكر أنّ ولدي توفيقًا، خرج في رحلة سفاري نظّمتها مدرسته. وأظنّها رحلته المدرسية الأولى، فطلبتُ من والدته أن تذكر له رغبتي في محادثته إذا عاد من (رحلته). وقد كان، فأخبرني بسعادته الغامرة، وهذه ليست المرّة التي يزورها فيها حديقة الحيوان (سفاري) التي في بانكوك، ولكن لعلّها الأكثر إثارة صحبة أصدقائه الجُدد من زملاء المدرسة. كان شحيحًا في ذكر التّفاصيل، ولكنه كان سعيدًا.

رحلتي المدرسية الأولى كانت في عام **1403**، أذكره الآن فأتصوّر أنّه كان تجمعًا سنويًّا لطلاب المدارس الابتدائية التّابعة لدائرة ما، وليس على مستوى تعليم مكة؛ لأنّ عدد المدارس المشاركة لم يكن كبيرًا. ولا أذكر أين يحصل هذا التّجمع، غير أنّهم يجمعوننا في فناء مدرسة نموذجية.

كنّا في الصّفّ الخامس، اختار الأستاذ فيصل عطّاس المسؤول عن الرّحلة أنجب طالبين من كلّ فصل من فصول الصّفّ الخامس والسّادس، فكنّا عشرة طلّاب؛ أنا وعبد الله رمّاني من فصلي، وأذكر من بقيّة العشرة: عبد العزيز الآنسي الذي كان من فصل آخر، وعبد الله باشهاب وشكيل أحمد

وأحمد بلغيث من الصّفّ السّادس، وكان الأخيران دائمي المشاحنة، وكانا من أذكياء الطّلبة، ونسيتُ أسماء البقيّة. أمّا شكيل فكان قائدًا بالفطرة، تولّى زمامنا، وأخذ على عاتقه قيادتنا. فأحرزنا الفوز في كلّ مباريات كرة القدم، كنتُ في مقاعد البُدلاء أشاهد بدهشة التّناغم المدهش الذي كان بين عبد الله رمّاني وعبد العزيز الآنسي وهما يلعبان معًا لأوّل مرّة، وشكّلا قوّة ضاربةً دُكّت بها شباك الفرق الأخرى. أمّا مرمانا فكان في عهدة أخطبوط بستّة أذرعٍ (عبد الله باشهاب).

واستطاع شكيلٌ كذلك: أن يوحّد جهودنا لنخرج مجلة حائطية، وذلك في زمن قياسي، خرج بنا من الفوضى، وجمع مادتها من ذاكرتنا، وكتبها بخطّه، وكان يملك خطًّا بديعًا جدًّا. ولم أقف له على ذِكْر بعد تخرّجه.

كنّا المدرسة الوحيدة التي تشارك دون وجود معلم، ومع ذلك استطعنا أن نترك بصمتنا، ونحفر اسم مدرستنا في ذاكرتهم.

حضرتُ اليوم مناقشة رسالة علمية مقدّمة لنيل درجة الماجستير في الإحياء، وهذه أوّل مرّة أحضر مناقشةً في العلوم المادية. ابتدأت المناقشة في السّاعة الواحدة والنّصف ظهرًا، وانتهت قبل الثّالثة ظهرًا. قدّم خلالها الطّالب عرضًا موجزًا لموضوع بحثه (عزل وتوصيف لسلالات محلّية من بكتريا باسيلاس للمكافحة الحيوية للبعوض المصري). ثم ناقشه مناقشان، تخللتها مداخلات

المشرف على البحث، وعقّب عليهما رئيس القسم. ثم تداولت اللجنة قرارها بعد المناقشة في القاعة نفسها، وأوصت بمنح الطالب درجة الماجسيتر= كل ذلك تمّ في أقل من ساعة ونصف دون أدنى مبالغة.

مناقشة هادئة جدًا، الأستاذ يُلاحظ بأدب، والطالب يردّ بأدب، والمشرف يداخل بأدب، والابتسامة من الجميع حاضرة، والطُّرفة حيث تصلح حاضرة. ومواطن القوّة في البحث تذكر وتشكر، ومواطن الضعف فيها يُعتذر لها من المناقش نفسه أنّ الباحث في طور استكمال أدواته البحثية، وأنّه يُتسامح معه في هذه المرحلة ما لا يُتسامح معه بعدها.

أين هذه المناقشة من المعارك التي تُدار في القاعات الشّرعية من (تكسير المجاديف)، وتوزيع التّهم بين الطالب والمشرف، وتصفية الحسابات بين المناقشين والمشرفين، والضّحية في كلّ ذلك الطالب؟ ولا تسل عن تنصّل المشرف من أخطاء الطّالب، وأنّه تجاهل توصياته، والحقيقة الغائبة أنّه الذي أجبره عليها. ويُتّهم الطّالب بسوء الأدب والمكابرة إذا أراد بيان وجهة نظره، والواقع أنّ المناقش بذل غاية وسعه في استفزاز الطّالب، وإظهاره أمام الحضور أنّه (لا يفهم). وقد يكون في الحضور والده وأعمامه وأشقاؤه وأبناؤه وأعيان أسرته، فيزداد المناقش حماسًا في إذلال الطّالب.

أذكر أنّ أحد الأساتذة المناقشين تحمّس أثناء المناقشة، فجاد على الطّالب بعبارة: أنتَ لا تفهم. فلم يتمالك شيخٌ مُسِنٌّ وقورٌ في الصّفّ الأوّل نفسه، فوقف ووجّه كلامه للمناقش: عيبْ عيبْ. إذا كان ولدنا هذا ما يفهم، فنحن كلّنا ما نفهم (وأشار إلى الحضور الذين كان عامّتهم من قبيلة الطّالب، وكان الشّيخ المُسنّ شيخَ القبيلة، والطّالبُ حفيدَه).

وقد كنتُ أتصوّر وأنا عاقدٌ العزمَ على حضور مناقشة أخي الطّموحِ الخلوق جهاد دين= أن تكون مناقشةً طويلة مملّة لا أفقه شيئًا من مصطلحات القوم، فحملتُ معي روايةً للأستاذ محمود تراوري (جيران الحرم).

لطالما أردتُ التّعرف على أدب الأستاذ محمود تراوري، فلم يتهيّأ لي ذلك، أو بالأصح لم أنشط لذلك. وكان هذا الفضول الذي كان يتملّكني تجاه أدب (تراوري)؛ لأنّي عرفتُ محمودًا يوم أن كان طالبًا في ثانوية الملك عبد العزيز (نظام التّعليم المطوّر)، اجتمعتُ معه في مادة أو مادتين، وأظنّ أنّه جاء الملك عبد العزيز ليستكمل بعض ساعات التّخرج، فلم يكن معروفًا في المدرسة.

وعرفتُه مهاجمًا (رأس حربة) يلعبُ في أندية حواري مكّة، وقد التقيتُ به في بطولة أو بطولتين، تمّكن في إحداها من خطف البطولة بهدفٍ أحرزه في المباراة النّهائية. فأردتُ أن أتعرّف عليه كاتبًا روائيًا. حملتُ روايته إلى المناقشة

وقرأتُ فيها ثلاثة فصول، فوجدتُه بحقّ كاتبًا يملك أدوات الكتابة (وهذه شهادة لا تضيف له شيئًا)، ولكن الرّواية برغم جمال مفرداتها، وبراعتها في إيراد الاستعارات والتشبيهات، غير أنّ سرد الرّواية لم يشدني، وعُقدة الرّواية غير جذابة، وحضور المفردات الحجازية طاغٍ بشكل ملحوظ وملفت. فاكتفيتُ من الرّواية بهذه الفصول الثلاثة، وندمتُ أنّي بدأتُ بأعمال محمود تراوري بهذه الرّواية، ولم أبدأ بـ (ميمونة)، وهو أمرٌ يمكن تداركه، والنّية عاقدةٌ على معاودة الكرّة من خلال (ميمونة).

في نهاية هذا اليوم، أتمنى لك يا جهاد، حياةً مليئةً بالإنجازات العلمية. وقد سرّني ثناء أساتذتك عليك، وإشادتهم بك، خُلُقًا وعلمًا وجِدًّا واجتهادًا ومبادرةً. فزادك الله من فضله يا أبا طه، ونفع بك، وبارك فيك وفي ذرّيتك.

الخميس 24 ربيع الأوّل – 21 نوفمبر

مطِرنا بفضل اللّه!!

أنحدر كالسّيل مع الزّمان، تجري بي السّنون، أركض وتركض من خلفي الأيّام، أطاردُ أحلامي في المنام، وتطاردني كوابيسي في اليقظة (لا تتزوّج يا ولدي، لا تتزوج يا ولدي، لا تتزوج يا ولدي، إذا ذهبتِ السّكرة ستعلمُ أيّ حماقةٍ ارتكبتها) ترسبُ هذه الجملُ في القاع، ثمّ تطفو فجأةً، فأبصر أبي يردّدها ويعيد صياغتها مازحًا مرّة وجادًّا مرّات (الزّواج: فرح شهرٍ، وكسرُ ظهرٍ، وغمٌّ دهرٍ)، أي: العُمُر كلّه.

يحدّثني صديقي الجزائري عن ابنته ذات الأربعة عشر ربيعًا، التي صدمَتْه مرّةً بقولها: أنا لا أرغبُ في الزّواج المبكّر الذي لا معنى له، إلا الالتزام المبكّر بعقد شراكةٍ بين اثنين كلٌ منهما يعرف فيها ما له وما عليه من واجباتٍ محدَّدة، حياة مدى الحياة، لا دفءَ فيها، ولا حياة.

كان حائرًا، هل أخطأ حين مكّنها من أسباب المعرفة وهي طفلة؟!

حضرتُ الليلة حفلَيْ زواج، الأول في جدّة، والثّاني في مكّة، وفي كلا الحفلين كنتُ مدعُوًّا من قبل والد الفتاة العروس. فتذكرتُ أحاديثَ أبي، وذكرى تودّدي إليه ليوافق على تزويجي، أُلحّ عليه وشقيقاي محمد وعثمان اللذان يكبرانني لم يتزوجا بعدُ. وكان من أثر هذا الزواج المبكّر= ابنٌ في فصله الدّراسيّ الأخير بالجامعة. وقد كنتُ في مثل عُمُره والدًا لسفيان ومالك.

سحرني منظر الجبال وهي تغتسل بمياه الأمطار، وبمرأى السّيل يجري في تعاريجها. غرقتُ في هذا الموقف الخاشع والمنظر السّاحر، وانشغلتُ بأحاديث الأصدقاء، ولم أرفع يديّ لألهج لكِ بالدّعاء يا أمّاه. أتساءل لو كانت الأدوار متعاكسة، فكنتِ أنتِ تحت المطر، وأنا تحت التُّراب، أكانت أكفّك سوف ترتفع إلى السّماء، وتلهجين لي بالدّعاء، أم تنصرفين عنّي لأدنى صارف؟!

جاز شيخٌ مسافرٌ بموضع قاحلٍ مُصْحِرٍ، فرأى صبيةً سوداء على ماءٍ وبيدها تمرات، فاستسقاها، فسقته، فقال لها: أيّ ماءٍ هذا؟ فقالت: هذا مَلَل. فقال: قاتل الشّاعر الذي يقول:

مَرَرْنَ على ماءِ العشيرةِ والهوى على مَلَلٍ يا لهفَ قلبي على مَلَلْ

على أيّ شيء يبكي في ملل؟!

فقالت الصّبية: يا هذا، لقد كان له بها شجنٌ، لم يكن لك.

وذلك أنّ الشّاعر قائل البيت دَفَن في ملل ابنةً له، فهو يحنّ إلى تربتها.

الواجبُ أقوى من الحبّ، ولكن الحبّ أكثر توغّلا في القلب. هل فهمتمُ ما أهذرُ به، وما أصدّع به رؤوسكم الغضّة؟

الواجب قد يجعلك تضحّي بأبنائك من أجل أن تنقذ والديك، بل وأشقائك. ولكن مهما بلغ برُّ الرّجل بوالديه، وحبُّه لإخوته؛ فإنّه يحبّ أبناءه أكثر.

ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرًا.

الجمعة 25 ربيع الأوّل – 22 نوفمبر

منعطفٌ خطيرٌ!!

يروي بعضُ الأصدقاء قصصًا من الماضي كنتُ شاهدًا أو طرفًا فيها، لا أذكرها، ولكن أطمئن إلى صدقها وأنّها وقعت بالفعل بالتّفاصيل التي تُروى على مسامعي ثقةً بالرّاوي. وقائعُ تدلّ على مواقفَ أحمدُها في نفسي، وأذمّها في الوقت نفسه.

وهذا أمرٌ قد خبرتُه حين بدأتُ أكتب هذه الجداريات، فأثناء حديثي عن المرحلة الدّراسية الأولى الابتدائية، برزت في الذّاكرة أحداثٌ طويتُها، ولم أرْوِها. فهي ليست ممّا يُفْرِحُ المرءَ أن يعلم بها أبناؤه. يكفيهم أن يدركوا أنّ أباهم كان يرتكبُ الحماقات دون أن يقفوا على تفاصيل تلك الحماقات.

أحداثٌ حين أستعيدها أنقدُها، وأحكم على خطأ سلوكي فيها، وأبررها بأشياء من قبيل أنّي كنتُ وحيدًا في حياتي المدرسية، ولم يكن لدي شقيقٌ أكبر يحميني من نفسي، ولا قبيلة أحتمي في ظلّها. ولم يكن من أحدٍ

يتعاهدني بالنّصح والإرشاد من زملائي الأكبر سنًّا. ولم يكن أشقائي يبادلوني تجاربهم فأستفيدَ منها. ولا كان لدينا مجلسٌ نفضي فيه بهمومنا دون أن يحكموا علينا بمقارعِ اللّوم والتّقريع. فتندمُ على ما أبَنْتَ من سريرتك. باختصار: لم يكن لديّ شقيقٌ في المدرسة، ولا صديقُ سرٍّ في المنزل. وقد أثّرت هذه الأحداث دون شكّ في شخصيتي، وتركت ندوبَها على ملامحي، فأنا أراها في المرآةِ كلّ صباح.

لقد تجاوزتُ كلّ الصّعوبات التي صادفتُها في طريقي بفضل الله وحده، وتوفيقه وإعانته، ثمّ بدعوات خفيّة من والدَيّ. وبتوفيق الله وحده نجحتُ في تربيتي لأبنائي أن أكون صديقهم. وإن كنتُ مدركًا أنّه مهما قويت علاقتي بأبنائي، فإنّه لا بدّ أن تكون لديهم مساحةٌ من الخصوصية لا أكون فيها حاضرًا. فأنا في النّهاية أبٌ، وهذا الجزء لا يمكن إلغاؤه في علاقتي بهم.

مذ يولد الإنسان، ويخرج إلى هذا العالم، فإنّه يبدأ رحلته الخالدة إلى وطنه الأوّل (الجنّة)، وقد يصل إليها، وقد يضلّ عنها، فلا يصل (عياذًا بالله). وفي طريقه سيواجه منعطفات خطيرة شديدة الانحناء، فإذا تنبّه لهذه المنعطفات؛ استطاع أن يتجاوزها بسلام، وإلّا فإنه مهددٌ بخطر

الانحراف الذي قد يتسبب في هلاكه، أو إصابات يتعافى منها، أو تلزمه كعاهةٍ مدى الحياة.

أول منعطف واجهته في حياتي هو (الرّحمانية المتوسطة)؛ في حيّ ذي تركيبة سُكّانية مُعقّدة، موروث ثقافي شعبي مختلف، معلمون جُدُد، أصدقاء جُدُد.

كانت المدرسة تقع في عمق شعب عامر، عند سفح جبل خندمة، أحتارُ في وصف مبناها؛ إذ هو مبنًى يقع خلف مبنيين تستزانه تمامًا، وهذه المباني الثّلاثة تملكها عائلة السِّندي من أعيان هذا الحيّ. ندخلُ من بين المبنيين عبر بوابة حديدية؛ فنمشي في ممرّ تُرابيٍّ أشبه بالسِّرداب غير أنّه مُتّسع وسقفه عالٍ، فنفضي إلى بوابة المدرسة التي تتشكل من أعمدة رفيعة متشابكة في زخرفة هندسية لا معنى لها إلا تقوية البوابة، فيظهر أمامك مبنى المدرسة. فناءُ المدرسة ذو أرضيةٍ إسمنتية. وأنا أفترضُ – الآن– أنّ المدرسة تقع في جهة اليمن، وأنّ واجهتها تُجاه الشّام، حتى أستطيع تحديد المقصف المدرسي الذي يقع في الفناء جهة الشّام، بمحاذاة البوابة جهة الشّرق. وفي الجهة الشّرقية دورة مياه نظيفة دومًا وصالحةٌ للاستخدام تتألف من ثلاثة حمامات، وهذا خلافًا لدورات المياه في (الرّحمانية الابتدائية) التي لا يمكن أن تستخدمها بحال من الأحوال لقذارتها.

ويوجد في الفناء صالتان، الصّالة الأولى معملٌ للرّياضيات، والثّانية مخصصة للأدوات الرّياضية، وفيها طاولة تنس. يواجه بوابة المدرسة درجٌ فسيحٌ يفضي إلى ساحة فسيحة (سطح الصالات الأرضية)، وقد سُقِّفت وأحيطت بسياجٍ حديدي حتى لا يتدافع أحدٌ من فوقها. وينقسم الطّلاب في هذه السّاحة والفناء ليستمعوا إلى النّشيد الوطني في طابور الصّباح.

مبنى المدرسة يتألّف من أربعة أدوار، الدّور الأرضي فيه مكتبة المدرسة، ولم أدخلها إلا مرّة واحدة، وكان المشرف عليها الأستاذ حامد سبحي، كان معلم مادة التّاريخ، ولا أذكر أنّه درّسني قط.

الدّور الأوّل فيه فصول الصّف الثّالث، ومكتب مدير المدرسة الذي يواجهك مباشرةً. وفي الدّور الثّاني فصول الصّف الثاني ومكتب وكيل المدرسة، ومعمل التّربية الفنية، وفي الدّور الثّالث فصول الصّف الأوّل، وكان هناك مكتبٌ لمراقب الفصول العم علي، ومكتبٌ للمرشد الطّلابي الأستاذ عليّ عبد السّتار، مصري الجنسية.

مدير المدرسة كان الأستاذ محمّد علي منشي، ووكيلها الأستاذ زكي مندورة (وقد توفي رحمه الله عام **1406**)، فخلفه الأستاذ عبد القادر الشُّمراني، كان من فضلاء الرّجال. وفي عام **1407** تغيّرت إدارة المدرسة

بإدارة جديدة، تمثّلت في الأستاذ محمد سالم باقازي مديرًا، والأستاذ هشام الهبّاش وكيلًا.

اتّصلتُ في هذه المدرسة بعدد كبير من المعلمين والزّملاء، درجتُ إليها طالبًا غِرًّا مجتهدًا عام 1405 وكان ترتيبي في الصّف الأوّل: الثّالث مكرر، وتخرّجتُ فيها عام 1407 في الدّور الثاني (مكملًا) في مادة الرّياضيات، بتقدير (جيّد)، ولم أُقْبَل في ثانوية الملك عبد العزيز، إلا بشفاعة صديقي أزهر عند والده الأستاذ عبد الرّحيم حلواني أحد وكلاء ثانوية الملك عبد العزيز (رحمه الله).

ما الذي حصل خلال هذه السّنوات الثّلاث؟ وكيف تبدلّت من طالب متفوق، إلى طالب يجتاز اختبارات الفصل الثاني في (مادة الرّياضيات)، ويتخرّج بشقّ الأنفس؟!!

كانت (متوسطة الرّحمانية) منعطفًا خطيرًا شديد الانحناء، وقد كدتُ ألا أخرج منه سالمًا، ولكن التّهور في السّير بعده لازمني في المنعطف التّالي الأشدّ منه خطورة (ثانوية الملك عبد العزيز). أحداثٌ كثيرةٌ، منها ما يمكن روايته لأنّه محلّ الذّكرى والعظة والعبرة، ومنها ما يُطوى، ولا يُروى.

أبنائي، احذروا المنعطفات، ولا تسيروا في الحياة فُرادى، وافسحوا في قلوبكم أمكنة لبعضكم، واملؤها بالحبّ!!

السّبت 26 ربيع الأوّل – 23 نوفمبر

تفاصيل المنعطف

يغلبُ على حي (شعب عامر) طابع العنترية، فطلّاب المدرسة يلبسون الأشمغة على طريقة يسمّونها (بنت البكّار)، وأظنّ أنّ سبب هذه التسمية أنّ الفلّاحات في الشّام أو منطقة أخرى كُنّ يضعن المناديل على رؤوسهن بهذه الطّريقة. وهناك رواية أخرى، وهي: أنّها محاكاة لشعار سيارات البكارد الأمريكية، وأنّها في الأصل (بنت البكارد)، ثم تحرّفت إلى (البكّار)، وكأنّ طرفي الشّماغ جناحا بنت البكارد، وهذه الرّواية أقرب.

وطريقتها كالتّالي، يفردون الغترة/الشّماغ على رأس حاسرة دون طاقية، بحيث تكون حافتها على مقدمة الجبهة تمامًا، ثم يمسكون بطرفي الغترة ويجمعون إليها طرفها الخلفي من الجهتين، بحيث يتكور طرفها الخلفي عند أصل الرّأس (المخيخ)، ثم يجمع طرفيها الأماميين من فوق رأسه بردّ أحدهما على الآخر إلى الخلف، فيتشكل فوق جبهته مثل الطّاق، بينما يتدلّى الطرفان خلف ظهره أو على كتفيه وكأنهما ضفيرتان. بينما الطّلاب الهادئون (الشّطار) يفردون الشّماغ أو الغترة على رؤوسهم، ويسدلون طرفيها سدلًا، أو يردّونها خلف أكتافهم، دون أن يُمرّوها من فوق رؤوسهم.

إنّ لباسَك يدلّ على شخصيتك في العادة، ويحدّد الرّسالة التي يقرؤها النّاسُ من خلال ما تلبسه، فيحكمون عليك من خلالها.

يتّسع الصّفّ الأوّل لما يقارب أربعة وعشرين طالبًا، جُلّهم من (المدرسة الرّحمانية الابتدائية)، أو (مدرسة الشّعب الابتدائية) المجاورة لمدرستنا، وعددٌ كبيرٌ من أبناء أجياد السُّدّ؛ أذكر منهم صديقًا عزيزًا اسمه: عبد الرّحمن فردوس، كان في فريق ناشئي الوحدة للتّنس. تزاملنا طيلة السّنوات الثّلاث، ثم لم أقف له بعد التّخرج على خبر.

وعرفتُ في السّنة الأولى صديقًا من محبس الجنّ، اسمه: عبده الرّفاعي، يأتي إلى المدرسة سيرًا على قدميه، عبر أنفاق المشاة محبس الجنّ العزيزية/أجياد السّد، ثم يواصل سيره عبر أنفاق أجياد السّد/شعب علي، ثم يمشي من شعب علي إلى آخر شعب عامر حيث يقف في أوائل طابور الصّباح. أقدّر أنّ المسافة اليومية التي يقطعها ذهابًا وإيّابًا ما بين المدرسة ومنزله لا تقل عن عشرة كيلومترات. من أكرم الطّلاب الذين عرفتهم خُلُقًا ودماثةً، قصير القامة، وفي ساقيه تقوّسٌ مثل تقوّس ساقي ماجد عبد الله، غير أنّه لم يكن له الأثرُ نفسه لتقوّس ماجد. وكنتُ أرافقه يوميًا في طريق العودة من المدرسة حتّى نصل إلى عمارة البنك الأهلي بمدخل شعب علي، فيواصل المسير عبر الأنفاق، ولكنني لم أستطع الحفاظ على صداقته، فقد أنكر تحولاتي من الاجتهاد إلى التمرّد، فاعتزلني في هدوء على الرّغم أنّنا بقينا زملاء حتى المرحلة الثّانوية، ولكننا لم نعد أصدقاء، وهذا ممّا أذكره وآسف عليه.

وأذكر طالبًا إندونيسيًا اسمه: عملية، من طلّاب مدرستي الأولى دار العلوم الدّينية. كان موهبةً لا تصدّق في الرّسم، يرسم بكل الأدوات الفنية قلم الرّصاص، والألوان الشّمعية، والمائية، والزّيتية، ويمزج بين الألوان. يجيد الاعتناء بالتّفاصيل، واستخدام الظّلال، امتلأت المدرسة بلوحاته الفنية في موضوعات مختلفة؛ استغلّ كل المعلمين موهبته الفنية، وشارك باسم المدرسة

في كل الأنشطة التّعليمية على مستوى المنطقة. وكان مهووسًا في الوقت نفسه بمايكل جاكسون، لا تكاد تخلو كرّاساته من لوحة أو اثنتين يتموضع فيها مايكل جاكسون في وضعية ما. وكشأن كلّ الإندونيسيين كان عملية دمث الأخلاق، نقيًّا، سليم الطّوية، لا يضمر سوءًا لأحد. أذكر أنّني كنتُ أساعده في رسم لوحة فنية لمنظر طبيعي في ساعة الغروب، فكنتُ ألوّن السّماء باللّون الأزرق، فأمرني أن أستخدم اللون الأصفر في نهايات اللّوحة، ففعلتُ ذلك، فكانت النتيجة مذهلة للون الغروب، فُتِنْتُ بالمنظر، وسُحرتُ به، ولا أزال أذكر دهشتي من ذلك اللّون السّاحر الذي نتج عن امتزاج الأزرق بالأصفر.

كان معلم اللغة الإنجليزية الأستاذ عبد الله الصّقعة، ومعلم الرّياضيات بكر يوسف فلاته، ومعلم قواعد اللغة العربية الأستاذ محمد العلوي، ومعلم النّصوص الأدبية والإنشاء الأستاذ طارق دمنهوري، ومعلم القرآن والتّجويد عبد الغفور بنجابي، ومعلم الفقه الأستاذ أحمد عامر سعد، ومعلم التّفسير والحديث الأستاذ حسين عطية، ومعلم مادة التّوحيد كان شيخًا نجديًّا كفيفًا، أظن أنّ اسمه: عبد الله الزّغيبي، وكان يدخل الفصل بعصًا طويلة يطال بها من يحدث صوتًا أو تشويشًا من الطّلاب، ولا يخطئه أبدًا من بين الطّلبة. ومعلم التربية البدنية الأستاذ نايل أبو عليّ، ومعلم

التربية الفنيّة الأستاذ حسن زيّاني، ومعلم التّاريخ الأستاذ محمّد جبريل، ومعلم الجغرافيا الأستاذ محمّد عفيفي.

كان الأستاذ حسن زيّاني معلمًا متعاقدًا من مصر، أمّا الأستاذ أحمد سعد والأستاذ محمّد جبريل، فكانا من أبناء اليمن؛ إذ كانت (وزارة المعارف) تتعاقد مع خريجي الجامعات السّعودية من الجنسيات المختلفة، ثمّ ألغيتُ تلك العقود في وقتٍ لاحق عام **1413/1412**.

ومن بعد هؤلاء في السّنوات التي تلت: في اللغة العربية الأستاذ خضران الزّهراني والأستاذ خضر الزهراني، وفي اللغة الإنجليزية الأستاذ عبد المنان زمزمي والأستاذ أحمد زكي فلمبان، وفي الرّياضيات الأستاذ خالد الفضلي والأستاذ عادل روّاس، وفي التربية الفنية الأستاذ فريد الصّوفي، وفي المواد الدّينية الأستاذ عبد الكريم خراشي، والأستاذ خالد النّفيعي. والعجيب أنّي لا أذكر أحدًا من معلمي مادة العلوم، فهل كانت هذه المادة عصيّة؟! (ثم رجعتُ بعدُ إلى زميلي في تلك المرحلة الدّكتور بكر عيّاد، فذكر لي اسم الأستاذ فواز صيرفي. ثم أشار إلى معلم آخر اسمه موجود على شهادتي بالأسفل، وهو: الأستاذ كمال طالب فلفلان. فكانت نباهةً منه، وغفلةً منّي).

وهناك عددٌ من المعلمين الفضلاء نسيتُ أسماءهم، وبخاصّة الأستاذ الذي أيقظني في اختبار مادة الرياضيات في الصّف الثّاني عام 1406، ونصحني بعدم السّهر ليالي الاختبار، فهي تأتي بنتيجة عكسية (وهو الذي حصل)، حيث نمتُ في القاعة طوال فترة الاختبار، ولم أكتب حرفًا واحدًا، وسلّمت الورقة بيضاء بعد نهاية الفترة. ولكني نجحتُ رغم ذلك، فقد أعطاني أستاذ المادة درجة النّجاح، وانتقلتُ إلى الصّفّ الثالث.

أظنّ أنّه إمّا الأستاذ حسين عطية أو الأستاذ عبد الغفور بنجابي؛ كنتُ في الصّفّ الثّاني المتوسط أعاني من فهم المعادلات الرّياضية، فذهبتُ إلى منزل شقيقتي أم فيصل (أستاذة الرّياضيات) وكان بيتُها في ريع الحدّادة، فراجعتُ معها أبواب المعادلات، حتى أذان العشاء، ثم انصرفتُ إلى المسجد الحرام؛ لأراجع المسائل التي راجعتُها مع أم فيصل. فلمّا بلغت السّاعة العاشرة أو الحادية عشرة، قررتُ أن أرجع إلى البيت، فصدف أن دخل المسجد الحرام صديقان من الخاصّة، وهما: محمد طارق (أبو جن)، ونجم الدين محمود (دنجو)، فجلستُ إليهما، فإذا بهما يحدثاني أنّهما لا ينصرفان من المسجد الحرام إلا عقب صلاة الفجر إلى المدرسة مباشرة، فراقت لي الفكرة، فكان أن سهرتُ إلى صلاة الفجر، ثم نمت بعد ذلك في القاعة.

زملائي الذين اتّصلتُ بهم منذ المرحلة الابتدائية ومَنِ انضاف إليهم في المتوسطة وأنا دخلنا مرحلة جديدة، مرحلة البلوغ، كنّا في السّنتين السّابقتين نراهق الاحتلام، ثم صار لكلّ واحدٍ منّا عقدته الخاصّة به (عُقدة أوديب)؛ تعلّمتُ في سنتي الأخيرة منهم ومن غيرهم عاداتٍ سيئة، وتفلّت مني الوقتُ في شيئين اثنين لا أجد وقتًا لغيرهما: البلوت، وكرة القدم. في هذه السّنة عرفتُ (بِشَك) البلوت، والسّهر في قهوة الطّلاقي حتى الفجر، وكذلك كرة القدم التي تصرفك عن كلّ واجباتك الأخرى.

وكان من نتائج هذا الأمر كثرةُ الغياب عن المدرسة، وكثرة الإنذارات والتّوقيفات، وكثرة الشفاعات من المدرسين حتى غُسِلت وجوههم، وفي إحدى المرّات قال لي الأستاذ محمد سالم باقازي: هل تعرف أنّ درجات المواظبة الـ (15) لو نقصت درجاتك عنها نصف درجة؛ وُضِعت عليك علامة استفهام في أي جهةٍ تتّجه إليها؟

وكان هذا منه أشبه بالتّهديد، ولكني لم أنزجر، وظللتُ على غيي، وقد صدق في تهديده، وخصم من المواظبة درجتين، وليس نصف درجة، ممّا يدلّ على شدّة ما عانى في سبيل تقويم سلوكي، ولم يفلح (غفر الله لي وله).

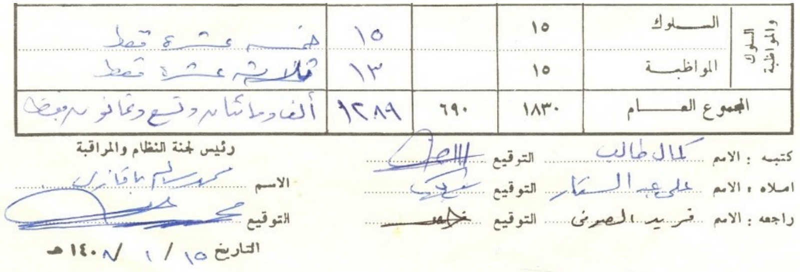

السلوك والمواظبة	السلوك	١٥		١٥	خمس عشرة فقط
	المواظبة	١٥		١٣	ثلاث عشرة فقط
المجموع العام		١٨٣٠	٦٩٠	١٢٨٩	ألف ومائتان وتسع وثمانون درجة فقط

كتبه : الاسم كمال طالب التوقيع

املاه : الاسم علي عبد الستار التوقيع

راجعه : الاسم فريد المصري التوقيع

رئيس لجنة النظام والمراقبة

الاسم محمد سالم باقازي

التوقيع

التاريخ ١٥ / ١ / ١٤٠٧ هـ

الأحد 27 ربيع الأوّل – 24 نوفمبر

الـرّشفة الأولى!!

إنّه لقاؤنا الأوّل، لقاءٌ خاطف مختصرٌ، سيكون لدينا ساعة كاملة قبل أن نسمع نداء رحلتها التّالية. سنخلع فيها الأقنعة التي توارينا خلفها طيلة أربعة أشهر، سأمسك بيدها، وأقرأ لها كفّها. وسنرى معًا أين يمتدّ بنا السّبيل؟

من مكاني حيثُ أقف أمام بوابة الوصول، أستطيع أن أبصر كلّ الدّاخلين، لن يكون برُفقتها أحدٌ، ولن تصحب معها أمتعةً سوى حقيبة يدها. هذه قصيرة، هذه بدينة، هذه ليست بدينة ولكنها ممتلئة، هذه نحيلة جدّا، قد تكون هذه لولا الرّجل الذي تخاصره. فجأةً رأيتُها، لا يمكن ألا تكون هي، قوام ممشوق، وجبهةٌ عريضة، ولكنها تجاوزتني، ولم تقف عندي، ثمّ غابت بين الجموع.

تعلّق بصري مجدّدًا أمام بوابة الوصول، أعدُّ القادمين فردًا فردًا، حتّى لم يعد ثمّة أحد. فجأةً رنّ هاتفي، رقم غريبٌ!!

- نعم.

- أين أنت؟

- أنتظرك أمام بوابة الوصول.

- أنا أقف أمام صالة الرّحلات الدّولية.

- حسنًا.

صعدتُ إلى الدّور الثّاني حيث صالات الرحلات المغادرة، رحتُ أفتش مقاعد الانتظار التي أمام صالة الرّحلات الدّولية، فلم أتعرّف عليها، حتى أتيتُ على جميع المقاعد، ثم التفتّ إلى الخلف؛ فرأيت تلك المرأة التي تجاوزتني على بُعد خطواتٍ منّي: لا تنظر إليّ هكذا، وكأنّك لا تعرفني، ابتسم، وامسح ملامح الغباء الذي على وجهك.

ضحكتُ بشدّة، ثم أمسكتُها من ذراعها، ومضيتُ بها إلى (كافتيريا المطار). اخترنا ركنًا قصيًّا يحجبنا شيئًا ما عن أعين الفضوليين، أخرجتُ مخطوطة ديوانها، والتي عملتُ على قصائدها طوال الأيّام العشرة الماضية، وبدأتُ أقرأ المقاطع التي يجب أن أتبيّن مرادها فيها؛ لأنّها مقلقة من حيث المعنى المراد إيصاله.

كانت المخطوطة ملاذي من الصّمت الذي قد يجتاحنا في مثل هذه اللقاءات الأولى، وهو ما يصيبني بالتّوتر ويفقدني ثقتي بنفسي، ولكني من خلال جعلها مادةً للحوار أستطيع أن أحكم زمام نفسي، وأرفع نبرة صوتي، وأنتقي كلماتي، وأضغط على مخارج حروفي .أنا رجلٌ لا يعتمد على صورته، وإنما على سحر كلمته. أمّا فهي فأنثى مكتملة.

رأيتُكِ، فالتهبتُ من الهوى   يا غادةً، فيكِ الأنوثةُ ثائرة

مضى بنا الوقتُ وأنا أستمهله، يسرِع في خُطاه وأنا أترجّاه، رفقًا أيتها الدّقائق!! كنتُ أتبيّنها، وأنظر إليها وإلى حركة شفتيها، فسحرتني كسرة في أطراف شفتيها حين تفترّ عن ابتسامتها، ما أرقّ هذا الكائن!!

حاولتُ وقد سرقني الوقتُ وارتفع نداء رحلتها، أن أميّز عطرها، وأختزنه في ذاكرتي، ولكن رائحة القهوة المُرّة كانت أكثر نفاذًا إلى أنفي من أن أتبيّن عطرها. ففطنت لما يدور في نفسي، وقالت: اختزن رائحة القهوة المُرّة، ففيها أتجسّد في خيالك.

ثم وضعت يدَها خلف رأسي، وجذبتني برفقٍ إلى شفتيها، فأغمضتُ عيني قبل أن أصل إليها، قبّلتني قبلة رقيقة، ثم أرخت يدها، ففتحتُ عيني لأرى عينيها العسليتين. مدّت طرف لسانها ترطب به شفتيها، ثم جذبتني برقّة

شديدة فأرخيتُ لها نفسي، فسقتني وأنا مغمض العينين ماءَ حبّ الرُّمان. وكأنّ سلطان الهوى رقّ لقلبي فأوقف عقارب السّاعة، فتركتُ نفسي، وأرسلتُها، وغبتُ فيها غيبةً أحسستُها أبدية. وحين فتحتُ عيني أخيرًا، كانت قد اختفت، واختفى ديوانها، غير أنّها تركت الغلاف على الطّاولة، ووقّعته بشفتيها أسفل عبارتها (شكرًا حبيبي).

هذه قصة الرّشفة الأولى من قهوتي الصّباحية، أرشفها وأنا مغمض العينين، سواء على مكتبي، أو في سيارتي المركونة على جانب الطّريق، أو في المقهى بين زمرةٍ من الأصدقاء، أو وحيدًا في قاع البرجِ العالي. هذه عادةٌ أدمنتُها منذ أكثر من ستة عشر عامًا.

أخيرًا..

هناك آلامٌ لا يمكنك تجاهلها حين تعاود قيادة الدّراجة الهوائية بعد انقطاع طويل، التحقْتُ مغربَ هذا اليوم بتمرين فريق (درّاج الملتقى)، وقطعنا مسافة 25 كيلا من نقطة الانطلاق وحتى العودة إلى النقطة ذاتها. وها أنا أعاني أثناء كتابة هذه الجدارية من آلام في (المقعدة) تحديدًا. ولكن أحمدُ الله أنّي تغلّبتُ على حُججي الواهية التي أعلل بها نفسي لأتخلّف عن التّمرين الأسبوعي، وأسوِّف في العودة إلى تمارين الفريق حتى تجاوزت فترة الانقطاع ثمانية أشهر كاملة.

تهنئة..

قرأتُ كلماتك الجميلة يا سفيان، وأنتَ تحتفل بتخرّج صديقك ورفيقك الأكاديمي عبد الرّحيم كاهونج. سعدتُ بروحك الطّيبة التي تتجلّى في كلماتك. فأحسّستُ بمشاعر من الفخر لا يسعني أن أكتُمها عنك. وأرجو أن تخبر عبد الرّحيم، أنّي سعدتُ بإنجازه، وأتمنى له حياةً حافلةً بالإنجازات في شتّى مجالات الحياة.

الإثنين 28 ربيع الأوّل – 25 نوفمبر

كن مستعداًّ!!

بقي أمرٌ أخيرٌ أودّ أن أشير إليه في المرحلة المتوسطة المضطربة، وهو الانتماء إلى الحركة الكشفية، حياة مليئة بالمغامرة والإثارة، أعني حياة المعسكرات الكشفية، التي تتعلّم فيها أشياء نافعة من كيفية إقامة الخيمة، وشدّ أوتادها، ثم نقضها، وإعادة حزمها. وتتعلّم الحياة البريّة في بيئتنا الصّحراوية. في إشعال النّار، وإعداد الطّعام بالموارد المتاحة، وتتعلم كيف تتعامل مع الحبال بعُقدها المختلفة.

المعسكرات الكشفية التي انتميتُ إليها أثناء دراستي في الرّحمانية المتوسطة كانت جميلة، شاركتُ في عدّة مخيمات داخل المعسكر الكشفي، وخارجه. تردّدت صيحاتنا فيها في الأودية، وجاوبتها الجبال. أشعلنا النيران في ليالي السّمر داخل الخنادق وبأشكال هرمية. وتحلقّنا حولها، واستمعنا إلى الأغاني الشّعبية، والأهازيج الكشفية، والفواصل الفكاهية.

كان رفيقي في هذه المعسكرات الكشفية، والذي لم ينفصل عني أبدًا هو أبو أحمد عبد النّاصر إبراهيم السّيامي، تزاملنا منذ السّنة الرّابعة الابتدائية، ولم نفترق حتى تخرّجتُ في الرّحمانية المتوسطة، وتأخّر أبو أحمد سنةً أخرى، ثمّ اتّجه بعدها للأعمال الحُرّة. وكان آخر عهدي به في حفل زفافي، ثم غاب عن حياتي إلا في لقاءات نادرة تجمعنا فيها المناسبات العامّة .

حين كنّا في الصّفّ الأول المتوسط كنّا نذهب إلى المعسكر الكشفي الكائن في حي العزيزية، ويقع مباشرة بعد إدارة التعليم، وذلك كل ثلاثاء من بعد صلاة العصر إلى قُبيل أذان المغرب، وهناك نتلقى تدريبات المهارات الكشفية على أيدي القادة الكشفيين والعُرفاء الذين يحملون شارات متقدّمة؛ أذكر من بينهم التوأمين حسن وحسين، ومحمد محراب، ثم بعد ذلك انضم إليهم: عبد الله السّروجي، وحبيب النّجار (كان اسمًا على مسمّى شابًا جميل الصورة جميل الخلق، بسَّامًا ضحوكًا). وأذكر من القادة: شاكر رادين، ومحيي الدّين قدح، ويوسف بكر فلاتة، وجميل طُلبة، وعبد الله طُلبة، وحامد سبحي، وآخرين نسيتهم. كانوا من خيرة من عرفناهم في المعسكرات الكشفية.

واقتصرت مشاركاتنا في السّنة الأولى على المواظبة على حضور اللقاءات الأسبوعية في المعسكر الكشفي، والمشاركة في فعاليات عامّة،

مثل: أسبوع المساجد وأسبوع المرور، وشاركنا في إعداد الحديقة الكشفية في أسبوع الشجرة عند مدرسة متوسطة عامر بن فهيرة بالمسفلة. وشاركنا في تنظيم حركة عربات المعتمرين في المسعى بالمسجد الحرام قبل صلاة الجمعة، على مدى ثمانية أسابيع. وانضممنا إلى فريق (كشافة نادي الوحدة)، وحضرنا المباريات التي أقيمت في ملعب نادي الوحدة بالتّنعيم، وهناك التقيتُ وجهًا لوجه بسمير عبد الشّكور وبندر جار الله بعد عودتهما من تحقيق كأس آسيا أول بطولة دولية مع المنتخب السّعودي، فكان الأمر بالنّسبة لنا في ذلك الوقت شيئًا ساحرًا، أذكر أنّ المباراة التي جرت بين الوحدة وأحد؛ انتهت بالتّعادل الإيجابي بهدفين لكلّ منهما. وبعد ذلك بزمن ليس بالقصير انتقل سمير عبد الشّكور إلى نادي الوحدة في صفقة بلغت مليونَ ريال. وكنتُ أفهم من حديث الوسط الرّياضي المكي: أنّ العقلية التي كانت تدير نادي الوحدة في ذلك الوقت= لم تكن تطمح من وراء التّعاقد مع مدافع (بحجم سمير عبد الشّكور) أن تحقق بطولة الدّوري، ولكن أن تأمن من خطر الهبوط إلى الدّرجة الأولى .عقلية انهزامية.

كان قائدنا الكشفي طارق سراج دمنهوري، هو الذي أقحمنا نحن كشافة (الرحمانية المتوسطة) في كلّ هذه المشاركات والأنشطة، والتي رفعت أسهمَه بين القادة الكشفيين عاليًا، كونه لا يحمل (الشّارة

الخشبية)؛ إذ كان النشاط الكشفي في مدرستنا وليدًا، وكان هو الأبّ الرّوحي له. التقيتُ به مرّة عام **1414**، أي: بعد ثماني سنوات من التّخرّج= في حفل مسرحي حضره أمين العاصمة المقدسة في ذلك الوقت المهندس عمر قاضي. وكان الأستاذ طارق دمنهوري ضمن الفريق الصّحفي لتغطية الحفل، أقيم الحفل على مسرح مركز الخدمة الاجتماعية بالعزيزية.

بعد أن أدّيتُ دورًا رئيسًا في العرض المسرحي الرئيس، وأسدل السِّتار على آخر جملةٍ نطقتُ بها، وبدأت مراسم التّكريم المتبادل بين الضّيوف= تسللتُ من كواليس المسرح، وألقيتُ عني الرّداء المسرحي، ودخلتُ بين الحضور، فإذا بالأستاذ طارق دمنهوري قريبًا مني، فسلّمتُ عليه، وقدّمتُ له نفسي، فرحّب بي (ولكنّه حقيقةً لم يتذكرني)، ثم ذكر لي أنّه تقاعد، واشتغل بالصّحافة، وأنّ الأستاذ أحمد عامر كذلك اشتغل بالصّحافة بعد أن ترك التّعليم. ولمّا لم يربط بين شخصي وبين الشّخصية التي تركت المسرح قبل قليل= سألتُه إن كان بحاجة إلى معلومات معيّنة ليتمم مادته الصّحفية، فسُرّ لذلك، فسألني أسئلةً كثيرة، وأعطيته إجابات تفصيلية. وفي اليوم التالي نُشر خبر صغيرٌ في أحد الأعمدة، بقلم أستاذ الأدب بالرّحمانية المتوسطة، ولكنها خالية من كل الأسماء التي طلبها منّي. خبر صحفي صغير عن رعاية معالي أمين العاصمة

المقدسة المهندس عمر قاضي، للحفل المسرحي المقام في مركز الرعاية الاجتماعية.

توفي أستاذنا طارق سراج دمنهوري، بعد حياة حافلة من العطاء في التّربية والتعليم والصحافة والأنشطة الاجتماعية المختلفة، فرحمه الله تعالى، وغفر له.

أمّا السّنة الثّانية؛ فشاركتُ في عددٍ من المعسكرات الكشفية داخل مكّة وخارجها، أذكر منها رحلة خلوية داخلية في مزدلفة عند أنفاق المعيصم؛ خرجنا من المعسكر الكشفي بعد صلاة العصر، فرقة (سَرِيَّة) مكوّنة من عشرة أفراد، نسير على أقدامنا، ونحمل أمتعتنا خلف ظهورنا، ومعنا خريطة تقودنا إلى حيث ينبغي أن يكون معسكرنا. كان رفيقي عبد الناصر السّيامي معي في هذه الرّحلة، ولكنه كان في فرقةٍ أخرى. وصلنا إلى المخيم قبل المغرب، ونصبنا خيمتنا، ثم شرعنا نرتب أكياس نومنا أخرجناها من أمتعتنا التي كانت على ظهورنا. حصلت أحداثٌ كثيرةٌ في هذا المخيم الجميل. وكنتُ أصغر من أن أكون في دائرة تلك الأحداث.

من ذلك: أنّنا قبل أن ننام قمنا بالبحث عن كنز دفنه القادة، قالوا لنا: إنّه عبارة عن مبلغ ماليّ، وحتى تحصل عليه، يجب أن تعثر على شفرته المدفونة في مكان ما من أنحاء المخيم. وكانت أدلة الكنز في كلّ مكان.

عثرت على الشّفرة إحدى الطلائع، ولكنهم كما عرفتُ فيما بعد لم يتمكنوا من فكّ شفرتها.

وأذكر أنّي نمتُ تلك الليلة نومًا عميقًا رُفقة أعضاء فرقتي خارج الخيمة، افترشنا الأرض والتحفنا السّماء، وغازلتنا النّجوم، وهي تنظر إلى صفحتنا المضيئة. وفي الصّباح حزمنا أمتعتنا، وأعددنا إفطارنا، ومشينا حتّى معسكرنا الكشفي، ثم صلينا الجمعة في (جامع فقيه)، وغادرنا عصرًا إلى بيوتنا.

وأذكر رحلة كشفية أخرى ما زالت عالقة في ذاكرتي، كنتُ في الصّفّ الثّالث المتوسط حين أقمنا معسكرًا في مدركة، قرية صغيرة من قرى محافظة الجموم؛ حيث أقمنا خيامنا في ساحة متوسطة مدركة النموذجية، ولكننا في اللّيل تركنا خيامنا، ونمنا في مسرح المدرسة، من شدّة البرد الذي لم تنفع معه البطانيات في تدفئتنا. وأذكر من الأنشطة التوعوية التي قمنا بها في تلك القرية= أننا علّقنا ملصقات تحذّر من خطر التّدخين في كلّ مكان، في المدارس والمساجد والمراكز الصحية والتجارية، ووزعنا عددًا كبيرًا جدًّا من أقراص النعناع. وقد كان التّدخين منتشرًا في هذه القرية بين فئاته العُمُرية. وأذكر حادثة طريفة، وهي أننا استلمنا رسالة مشفرة، بعد أدائنا لمهمتنا، فلمّا فككنا الشّفرة، كان

نصّها :أدّوا صلاة الجمعة في أعلى مكان في القرية. فتلفّت عريفُ فرقتنا (لا زِلتُ أذكره، ولو شئتُ لسمّيته)، ثم أشار إلى جبل قريب من معسكرنا، وقال لنا: ذاك الجبل أعلى الجبال، هيّا بنا.

كنّا أشبه بفرقة عسكرية مصغّرة، فأطعنا هذا العريف (القائد)، ومشينا نقصد الجبل، في مشيةٍ عسكرية، وبينما نحن نسير= أدركتنا صرخةٌ مدوّية لأحد مساعدي القادة. وكنّا بعدُ حديث المعسكر، غير أننا لم نكن الفرقة الوحيدة التي فهمت حَرْفية تلك الرّسالة. أذكر ممّن كانوا صحبتي في ذلك المعسكر الكشفي ممّن امتدّت صحبتي لهم بعد ذلك: عبد الحميد عبد الرحمن فطاني، وعبد النّاصر إبراهيم السيامي، وأخوه الأستاذ محمد السيامي (رحمه الله)، والمهندس طلعتُ عبد الرحيم ناقرو، وزهير فلمبان، وذو الكفلي فطاني (لي بيّيوه)، وفضيلة الشيخ موسى هوساوي.

وعلى الرّغم من ثراء هذه التجربة الكشفية على حياتي، غير أنّي انصرفتُ عنها تمامًا في المرحلة الثّانوية، والطّريف أنّي في بداية السنة الدّراسية الأولى قيّدت اسمي ضمن كشافة ثانوية الملك عبد العزيز، ولكن لم أحضر لهم لقاءً واحدًا، مع ذلك استُدعيتُ إلى مكتب القائد الكشفي محمّد سبحي ثلاث مرّات، لكي أعيد (العُهدة الكشفية)، كلّ عام يعثرون على اسمي

ضمن قائمتهم، فيستدعونني، ويسألونني عن (العُهدة الكشفية)، فأقول لهم: أين وقّعتُ باستلام العُهدة؟

لقد سيطرت الكرة وسهرات البلوت على حياتي في (الثّانوية)، وليتني استسلمت لإغراءات الأستاذ محمد سبحي، وبقيتُ في الحياة الكشفية، فلرّبما اجتاحتني موجة الصحوة فيها في وقتٍ مبكّر. وقد كان فيها صديقي الأستاذ عبد الله علي باشهاب، وكان في الوقت نفسه مثلي له اهتمامات واسعة بالكرة وبالبلوت، ولكنه استطاع أن ينظّم وقته، ويوّزع اهتماماته، وينجح في حياته العلمية والعملية، وكان سرّ ذلك –والله أعلم– برّه بوالدته (رحمها الله).

لقد تبيّن أنّ نمط حياتي في (الثّانوية) التي سوف أذكر شيئًا منها، لم يكن يتناسب مع شعار الكشافة العالمي (كن مستعدًا). فلم أكن أبدًا مستعدًّا في تلك المرحلة لأيّ شيءٍ جادّ، سوى الحبّ!!

الثلاثاء 29 ربيع الأوّل – 26 نوفمبر

ما بعد الرّحمانية!!

أذكر أنّي كنتُ في الثّالثة عشرة أو الرّابعة عشرة، يوم كنتُ أسيرُ حاملا كتبي تحت إبطي، وسجادتي على كتفي، حاسر الرّأس في الغالب، مارًّا من أمام البنك الأهلي التّجاري، فأجد على رصيف بوابة البنك عددًا من طلاب مدارس أبي زيد الأنصاري لتحفيظ القرآن الكريم عامّتهم من أبناء جاليات جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا في انتظار الحافلة الخاصّة بهم، وكانوا جميعًا من طلاب حلقات تحفيظ القرآن الكريم بالمسجد الحرام، وكنتُ أرى من بينهم الأستاذ راضي (حفظه الله)، أحد الإخوة الفطانيين الذين أعتزّ وأفخر بهم.

زاملتُه في حلقة الأستاذ حسنين بالمسجد الحرام وأنا صغيرٌ في الصّفّ الأوّل الابتدائي، وقد كان حينذاك يحفظ أربعة أجزاء، ويُتحدَّث عنه أنّه ظهر في التّلفاز، وقرأ فيه القرآن بصوته الجميل، وكان يكبرني بسنتين أو ثلاثة، قريبًا من أخي عثمان. وقد أتمّ الله عليه نعمته، فحفظ القرآن الكريم بالقراءات

العشرة، واختير حكمًا دوليًا في مسابقة دبي الدّولية للقرآن الكريم، وكان الشيخ إبراهيم الأخضر رئيس اللجنة.

في نهاية رصيف مبنى البنك الأهلي هاتف عموميّ، تجتمع عنده طالبات المدارس المتوسطة. وأمّام مبنى مكتبة مكة المكرمة تجتمع طالبات المدارس الثانوية، وقريبًا من طالبات المتوسطة تقف الطالبات الجامعيات، يتوسطن طالبات المتوسطة والثانوية. أمّا طالبات المدارس الابتدائية، فكُن يقفن قبل مدخل شعب عليّ.

ولم يكن لنا من بُدّ أن نمرّ من أمام هذه التّجمعات الفاحصة، والخجل يعتصرنا. وكم كنتُ حريصًا أن أسير مفرود الكتفين، مستقيم الظهر، مرفوع الرّأس، غاضّ الطّرف. وأعرف من رفاقي الذين يكبرونني سنًّا، مَن لا يستطيع أن يسير أمام هذا الحشد من الفتيات، فكان يتجلّله الخجل والحياء، فيأخذ طريقه في النّفق الذي يؤدّي إلى السّير أسفل مبنى مواقف السيارات، فينفذ من خلاله إلى شارع المنشية، حيث محلات سيف الدّين للألعاب ومكتبة الثقافة. فيأخذ جهة اليمين، ويمشي بمحاذاة مبنى المواقف، حتى إذا انتهى المبنى واجه عن يمينه تجمع الطّلاب الذين يقفون انتظارًا لحافلات النقل الجماعي أسفل حي ريع أطلع، وكُنّا نقول: ربع أطلع، بالباء.

فأتجاوز مكتبة (مكة المكرمة)، ومركاز درويش دوش، وماكينات عاشور للخياطة، وأواصل السّير –حين كنتُ في المرحلة المتوسطة– في استقامة صوب الغزّة، فأمشي في صف طويل من محالّ تجارية متنوّعة الأنشطة، من أدوات كهربائية، وتصوير فوتوغرافية وتصوير مستندات، وكان في أوّل تلك المباني التي تصطف تحتها تلكم المحلّات التجارية= أُستديو تصوير اسمه (مصوّر الشّرق) نصعدُ إليه في الدّور الأوّل، ولا أظنّ أنّ أحدًا من أبناء تلك المنطقة المركزية لم يتردّد على هذا المصور؛ كان مصريّ الجنسية، محمودَ السّيرة، عاطرَ الذّكر، أمينًا على محارم النّاس؛ إذ كان يلتقط الصّور الرّسمية للجنسين.

كان هذا الطّريق الذي أصفه يقودني إلى المدرسة الرّحمانية المتوسطة، ولكن لمّا تجاوزتُ تلك المرحلة، صار لزامًا عليّ أن أقف عند ساحة تصطف فيها سيارات أهالي حي ريع أطلع، منطقة متوسطة بين حي شعب علي ومنطقة الغزّة، ويُشاع بين عامّة النّاس أنّ الغزَّة سُمّيت كذلك؛ لأنّ راية النّبيِّ صلى الله عليه وسلم غُزَّت فيها يوم فتح مكة.

يتجمهر طلاب الثّانوية هناك؛ حيث ينتظرون الحافلات التي تقلّهم إلى مدارسهم. وجُلّهم ينتظرون الحافلة رقم (3) أو رقم (10) اللتان تذهبان إلى العزيزية، حيث ثانوية الملك عبد العزير.

لا أذكر تفاصيل يومي الأوّل في هذه المدرسة العتيقة التي كانت تسمّى يوم أنشئت عام 1355هـ: مدرسة تحضير البعثات. ولكني أذكر أنّ توزيع اليوم المدرسي فيها على النّحو التّالي، بعد الحصة الثّانية كنّا نستروح نصف ساعة، ثمّ بعد الحصة الخامسة نستروح عشرة دقائق، ثم نواصل الدّراسة حتى الحصّة السّابعة، وما بين حصة وأختها توجد خمس دقائق راحة. باستثناء يوم الأربعاء فندرس خمس حصص فقط. هذا نظام الدّراسة في الصّف الأوّل، ثم ينقسم طلاب الصف الثّاني والثّالث إلى قسمين؛ علمي وأدبي، فتزيد مواد القسم العلمي، وتقلّ مواد القسم الأدبي، وبالتّالي تقلّ حصصهم، فكانوا عادّة ينصرفون بعد الحصة الخامسة.

المدرسة بساحاتها وملاعبها كبيرة جدًّا، وأحسب أنّها أكبر ثانوية في مكة المكرمة في تلك الأيّام؛ إذ كانت مكوّنة من ثلاثة أدوار، كلّ دور يضمّ فصول صفٍّ من الصّفوف؛ وكان فصول الصّف الأوّل في الدّور الثّالث، ويضمّ عام 1408 سبعة عشر فصلا دراسيًّا، ومتوسط الطّلاب في الفصل الواحد أربعون طالبًا، أي: أن عدد الطّلاب في الصّف الأوّل فقط يزيد على: 680 طالبًا.

وتتكوّن إدارة المدرسة من مديرها الأستاذ محمّد سليمان الشّبل، وستة وكلاء؛ لكلّ صفّ وكيلان يتوزّعان إدارة الفصول الدّراسية بينهما. وتوجد

للمدرسة مبانٍ للمعامل في الجهة الخلفية للمدرسة، ومُدّرج مسرحي مُصغّر مكشوف؛ لم يُقم عليه أيّ نشاط ثقافي طيلة السّنوات الأربعة التي قضيتها في (المدرسة). ولكنّي فيما بعد شاركتُ في إقامة حفل سَمَر فيه (المركز الصّيفي عام 1417)، أي بعد أن غادرتُ المدرسة بستّ سنوات. وقد تقاعد الأستاذ محمّد الشّبل في السنة التّالية، وخلفه الأستاذ أمين فارسي قادمًا من متوسطة جعفر بن أبي طالب، ثم أحد وكلاء المدرسة الأستاذ أحمد قطب.

وُزّعت في الفصل الخامس (5/1)، ولا أذكر إلا عددًا قليلا من زملائي في تلك المرحلة؛ منهم: عبد الله الدّعجاني، زياد النّوري، هاني بن ظافر القحطاني، عبد العزيز النّفيعي، عدنان خالد النّفيعي (ابن أستاذنا في الرّحمانية المتوسطة)، عبد الهادي محفوظ باسنبل، عبد العزيز باخدلج، عبد الحليم تامبولي، صالح السّبيعي، وآخرون. وأعتقدُ أنّي كنتُ وحيدًا في هذا الفصل، فلم تكن معي صحبة قديمة من أيّام الابتدائية أو المتوسطة. وأذكر في فصل (3/1) الدكتور بكر سراج عيّاد وشكري البورش وحمد السّعيدي وتركي المطوّع وأحمد المصباحي، وفضيلة الشّيخ الدّكتور حسن بخاري، وتوأمه حسين.

وممّن أذكرهم من أستاذة فصلي : الأستاذ صابر دقنة معلم الأحياء، والأستاذ خالد النباتي معلم الكيمياء، والأستاذ يوسف فطاني معلم اللغة العربية (نحو، وبلاغة، وأدب)، والأستاذ محمد أبو شال معلم اللغة الإنجليزية، والأستاذ عبد الرّحيم حُولدار معلم الجغرافيا، والأستاذ فاروق ناجي أو: أبو ناجي (شكّ يحيى) معلم الفقه والحديث. ويغيبُ عنّي أسماء بقيتهم (جزاهم الله عنّا خيرًا، وغفر للأموات منهم، وتقبّلهم، ورفع درجاتهم). أمّا مقصف المدرسة فيقع في ساحة مفتوحة في الدّور الأرضي، وقد سُدَّت في النّظام الثّانوي المطوّر (نظام السّاعات)، وتحولّت إلى صالة طويلة مغلقة، ذات تكييف عالٍ، وهيئت فيها جلسات عربية فاخرة، وَوُضع في طرفها طاولة تنس وطاولة بلياردو، وذلك في الفصل الثاني من عام 1409.

نتائج الفصل الأوّل كانت فشلا مُريعًا، فقد استلمتُ شهادةً مُحلَّاةً بخمس كعكاتٍ حمراء، دُوائرَ عُلِّمت على جميع المواد العلمية: كيماء، إحياء، فيزياء، رياضيات، ومعها: اللغة الإنجليزية.

الأربعاء 30 ربيع الأوّل – 27 نوفمبر

التّعليم الثّانوي المطوّر!!

لم تسر نتائج الفصل الثاني على ما يُرام على الرّغم من بذلي جهدًا لتجاوز هذا الصّف، وكنتُ موعودًا بإعادة السّنة الدّراسية لأوّل مرة في حياتي. ولكن صادف أن قررت وزارة المعارف تعميم تجربة (التّعليم الثّانوي المطوّر)، فحملتُ المواد التي رسبتُ فيها، وحُسبت عدد ساعات المواد التي نجحتُ فيها، وطُلب منّي اختيار استكمال عدد ساعات التّخرج في أي قسم من الأقسام الأربعة (الرّياضيات والفيزياء، الأحياء والكيمياء، العلوم الدينية والأدبية، العلوم الإدارية والإنسانية).

أكتب –الآن بعد ثلاثين سنة– من الذّاكرة عن هذا النّظام الجديد الذي فوجئنا به، وهو: أنّ على الطّالب لكي يحصل على الشّهادة الثّانوية أن يستكمل دراسة (168 ساعة)، موزّعة على النّحو التّالي: 67 ساعة إجبارية في المواد العامّة + 78 ساعة في التّخصص + 23 ساعة اختيارية من مواد الأقسام الأخرى.

ويُحدّد للطّالب مرشدٌ من المعلمين يتابع مسيرته الدّراسية، ويُساعده في تسجيل المـوادّ الدّراسية لكلّ فصل دراسي، وتُسمّى الفصول الدّراسية بالمستويات، ومتوسط المستويات التي يحتاج إليها الطّالب ليستكمل ساعات التّخرج ستّة مستويات، بمعدل 28 ساعة في كل فصل، أي: خمس حصص في اليوم من الحصص السّبعة اليومية، وأذكر أنّه زيدَ في الجدول في بعض الأيّام حصة ثامنة. ولم يكن يُسمح للطّالب أن تنزل ساعاته في الفصل الدّراسي عن 20 ساعة، ولا تزيد عن 30 ساعة، حتى لا يتأخّر في تخرجه، ولا يُحمِّل نفسَه عبئًا أكبر من أن تحتمله.

واخترتُ خبطَ عشواءَ العلومَ الإدارية والإنسانية، وتمكنت بمساعدة مرشدي الأستاذ راضي العُرابي من تسجيل مواد الفصل الدّراسي الأوّل، وكان فيما أذكر 23 ساعة، أي: أربع أو خمس حصص في اليوم. فقد أحضر الحصة الثانية، ثم أستريح الثّالثة والرّابعة، ثم أحضر الخامسة والسّادسة، وهكذا. وكان النّظام يقتضي أنّ الطالب إذا تغيّب عددًا من الحصص في المادة الواحدة؛ فإنّه يُحرم من المادة، وتسقط من جدوله، وعليه أن يعيد دراستها مرّة أخرى.

لم يكن النّظام يناسبني أبدًا في تلك المرحلة العُمرية؛ إذ كنتُ في قمّة الاستهتار بكلّ شيء جادّ نحو المستقبل المجهول، فدعوني –يا أبنائي–

أرجع بكم سنةً واحدة إلى الوراء، حيث كنتُ في الصّفّ الأوّل؛ في ذلك الوقت كنتُ ألعبُ في نادي الزّهور (قدّس الله أرواحهم)، ألتقي بهم قبل أذان العصر في قهوة العيّاد الكائنة في سفح جبل أبي قُبيس، على الشّارع العام عند أنفاق شعب عليّ، فننطلق إلى ملعب النادي خلف معارض السّيارات (حراج السّيارات) التي في العابدية.

فإذا غربت شمسنا، رجعنا إلى القهوة نفسها قُبيل صلاة العشاء، فنجلس في دكّة فوق الأنفاق، على طريق الصّاعد إلى جبل أبي قبيس، حيث يقع منزلي في أعلى الجبل قبل قمّته بقليل، فكان الوالد (رحمه الله) يتجنّب المرور من ذلك المكان؛ حتى لا يؤلمه أن يراني ساهيًا غارقًا في لهوي بين رفاقي ألعب البلوت، منصرفًا عن واجباتي المدرسية.

فإذا هربَ أكثر اللّيل، ذهبتُ مع زمرة من الرّفاق إلى كازينو دقم الوبر في (مزدلفة)، وأخذنا نلعب البلوت إلى ساعات الفجر الأولى، ثم أعود إلى المنزل قبيل أذان الفجر أو بعد الصّلاة، فأنام حتى توقظني أمّي (رحمها الله)، فأرتدي ثوبي، وأحمل كتبي ودفاتري، وأستقلّ الحافلة إلى المدرسة، وقد أكون محظوظًا فأصادف أحد الرّفاق، فيُقلّني بسيارته إلى المدرسة، فإذا وصلتُها قبل جرس الحصة الأولى دخلتُ المدرسة، ونمتُ في الفصل أكثر تلك الحصص، متجاهلا تنبيهات المعلم تارّة، ومنصاعًا إليها أخرى.

أمّـا إذا وصـلتُ إلى المدرسـة متـأخِّرًا تأخّـرًا فاحشًـا، ووجـدتُ البوابـة موصـدة في وجهـي، وهـي عـادة توصـد بعـد جرس الحصـة الأولى؛ فـإنّي أبحـثُ عـن ظـلّ شـجرة قريبـة مـن المدرسـة، وفي العـادة أتّجه إلى مجسم الطّائرة الذي كان قريبًا من المدرسة، حيث تقف الحافلة عنده، فأتوسد ظلّه، وأنام الحصة الأولى، ثم أدخل المدرسة بعد أن تفتح البوابة، ولكن الذي يحصل -كثيرًا- أنيّ أستغرق في النّوم، ولا أبالي تقلّص الظّل عنّي، وأشعة الشمس التي تلسعني، ويسرقني الوقت وتعب السّهر، إلى وقت انصراف الطّلاب بعد صلاة الظهر، فأقطع الشّارع إلى الجهة المقابلة، وأستقل الحافلة عائدًا إلى المنزل.

ثمّ تبدأ دورة يوم جديد في قهوة العياد، ثم ملعب نادي الزّهور، ثم الدّكة (مقرّ النّادي)، ثم كازينو دقم الوبر، وهكذا طيلة أيّام الأسبوع. وقد تعرّفتُ تلك الأيّام بشابّ يصغرني سنًّا، حاول التّأثير عليّ إيجابًا. أراد أن يمنعني من السّهر أيّام المدرسة، ويسمح لي بالسّهر ليلتي الخميس والجمعة فقط، فارعويتُ شيئًا ما، ثم انفلتَ زمامي.

والآن، وقـد فوجئـتُ بنظـام التّعلـيم الثّـانوي المطـوّر؛ ازداد تحصـيلي الدّراسي سوءًا، ولا سيما في الفصل الدّراسي الأوّل والذي يليه، أي في السنة الأولى من هذ النّظام، بل إنّني استفتحتُ هذا النّظام بسحب

الفصل الدّراسي الأوّل، والتّوقف فيه عن الدّراسة، دون أيّ سبب سوى عدم رغبتي في الدّراسة.

ولأنّ نظام السّاعات يُتيح لك أن تبقى في كافتيريا المدرسة، متى شئتَ، وأنّى شئتَ، فقد قضيتُ فيه سحابة نهاري، بعيدًا عن الفصول الدّراسية، ولا أخشى رقيبًا أو حسيبًا إلا وكيلَ المدرسة حين يسألني عن جدولي المدرسي، حتى يتحقّق من مشروعية وجودي في الكافتيريا، وكنتُ وأمثالي –من البَطَلَة– نحمل عدّة جداول لحصص فراغ وهمية، تحسبًا لمثل هذه المواقف النّادرة.

ومع ذلك فقد تمكّن عددٌ من الأساتذة الفضلاء أن يثيروا انتباهي، ويجعلوني أحرص على الاستفادة منهم، ومدّ الجسور بيني وبينهم، منهم: مرشدي الأستاذ راضي العُرابي الذي كان أستاذًا بحقّ في علوم الإدارة، ثم الأستاذ إبراهيم فودا الذي درستُ عليه مبادئ علم النّفس، والأستاذ فواز مدني الذي شدّني إلى تاريخ الحضارة الأوروبية الحديثة، بدءًا من عصور الانحطاط إلى عصور التّنوير، وحديثه عن الثّورة الفرنسية، والأستاذ حِمَيّد المغامسي (رحمه الله) في محاضراته عن تاريخ الدويلات الإسلامية (وقد دارتِ السِّنون، ومَنّ الله عليّ بأداء بعض حقِّه، حين صار ابنه صفوان المغامسي أحد تلامذتي في التّفسير والحديث). وكذلك كانت

لي علاقة جيّدة بالأستاذ محمّد أبو شال والأستاذ عبد العزيز الكابلي، والأستاذ بكر يوسف فلاتة أستاذ الرّياضيات بالرّحمانية المتوسطة بعد أن انتقل إلى ثانوية الملك عبد العزيز، وأستاذٌ سوريٌ اسمه: سعدي، درستُ عليه مادة الإنشاء.

ومن أكثر هؤلاء المعلمين أثرًا في حياتي المضطربة –آنذاك– الأستاذ محمّد أبو شال معلم اللغة الإنجليزية، وتأثيرُه يتمثّل في أنّه (ولد حارة) من أبناء حارة بيشة، فكان يُدرك بوضوحِ الطّريق الذي أسير فيه؛ لأنّه يراني في المحافل الرّياضية الكبرى بمكة حاضرًا، وهو يشارك فيها ضمن طاقم تحكيم المباريات (رجل خط)، ويراني في بعض المناسبات الاحتفالية الرّياضية في (الكازينوهات) حاضرًا، ويعرف مستوى تحصيلي الدّراسي في المدرسة. فكان ينصحني ويوجّهني إلى ضرورة ترتيب أولوياتي، وأن أنتبه إلى نفسي، وأن أختار رفاقي، وكلّ ذلك بلغة الأخ الكبير المشفق الحاني، فكنتُ أحفظها له، وأشكره عليها، ولا أزال إذا ذكرتُه دعوتُ له بالخير.

لم أكن شابًّا فاسدًا وإن كنتُ قريبًا منه، فلم تمتد يدي إلى مسكر، ولا تقحّمتُ خدرَ فتاةٍ، وإن كنتُ في بعض المرّات منهما قاب قوسين أو أدنى، ولكن الله الحفيظ عصمني منهما، فقد كانت تحوطني –فيما أحسب– دعوات والدين كريمين في جوف الأسحار (رحمهما الله) .

ولم أزل منذ عام 1408 ذاهلا عمّا أريده لنفسي، وحيدًا على متن سفينةٍ قد عطبت بوصلتها، فلا تستبين وجهةً، ممزّقةٍ أشرعتها يُطوّح بها الموجُ في جهاتها الأربعة؛ حتى دخلت الجيوش العراقية الكويتَ في 10 محرّم 1411هـ، الموافق لـ 2 أغسطس 1990م، فكأنّ الرّياح من حولي سكنت، والأمواج من تحتي هدأت، فكان هذا التأريخ آخر عهدي بحياتي الماضية، بكلّ ما فيها حسناتٍ وسيئات، كنتُ ليلتها في سطح منزل أخي عبد الله قدح في حي الرّصيفة قرب المنتزه العامّ، مجتمعًا مع رُفقتي لاعبي نادي الزّهور في شأن من الشّؤون الكروية، وندير الإذاعة مرّة على إذاعة لندن ومرّة على إذاعة الكويت التي استولى عليها الجنود العراقيّون، نحاول أن نعي ونُدرك حجم الفاجعة التي ادلهمت، ونناقش في الوقت نفسه ترتيب أوارق الفريق، وإعادة هيكلة مجلس إدارته، أذكر في الحاضرين تلك اللّيلة: عبده القعود، يحيى الأحمدي، عبد الرّحيم السّلال، محمّد قاسم، أحمد قاسم، عادل عمر (رحمه الله)، ناصر زكريا، إسماعيل السّامبو، وآخرين سرق الزّمان أسماءهم من ذاكرتي، ولعلّ فيهم: إبراهيم عبيد (الدّلالي) وسمير عبد المجيد.

ولمّا عُدّتُ إلى المنزل؛ قررتُ ترك حياتي الماضية كلّها خلف ظهري، وفتح صفحة جديدة تمامًا، فكانت تلك الليلة آخر عهدي بنادي الزّهور كفريق كرة قدم، وإن كان علاقتي بهم كرفاق وأصدقاء امتدت

قليلًا، حتّى صرفتني اهتماماتي الجديدة عنهم وعن غيرهم، وصرّفتنا تصاريف الحياة.

الخميس 1 ربيع الآخر – 28 نوفمبر

ليلى والحبّ!!

يطولُ اللّيل في الشّتاء، فيقسو على أمثالي ممّن ينامون في غرفةٍ بأعلى الأبراج، دون نوافذ مشرعة، فتغدو غرفهم مثل قبو في قاع البرجِ، لا في أعلاه، غارقٍ في ظلمة باردة مقرورة. إن أشعل جهاز التّكييف تجمّد من البرد، وإن أطفأه تصبّب عرقًا. فليله بائسٌ كئيبٌ، لا يذكي فؤاده إلا جذوة حبٍّ مشتعلة، تمدّه بأسبابٍ من الحياة!!

كتب المنفلوطي (رحمه الله) قصّة حزينة يحكيها من واقع الحياة المصرية، وهي منشورة في كتابه (النّظرات)، علقت في ذاكرتي حتى رويتُها يومًا في جمع من الرّفاق، فأخذ ينصتُ بكل انتباه لتفاصيلها المأساوية، خلاصة تلك القصة التي عنوَن لها بـ (غرفة الأحزان) أنّ شابًا غرّته يومًا فتوةُ شبابه وزلاقةُ لسانه، وصباحةُ وجهه، فأغوى فتاةً من سراة العائلات، كانت متعفّفةً متمنّعة، ولكنه تجلّد لها، فأسلس بعد زمنٍ قيادها، وهذّب شُمُوسَها، وأسكن نِفارها، وأنزلها من عليائها، ثمّ هجرها، بعد أن أودعها

جنينًا يضطرب في أحشائها. وإنّ في مسوحِ البشر ذئابًا تمشي في النّاس وهم مطمئنون.

وبعيدًا عن الجوانب الفنيّة في القصّة، فإنَّ فيها ما يستدعي الدّمع من مآقي الرّجال، ويفلق الصّخور الصّلدة، وقد كنتُ صغيرًا ولا أزال (بحمد لله) أحتقر هذا الصّنف من الرّجال، الذي ليس فيه من صفات الرّجولة، إلا أنّه ذكر. فما غازلتُ فتاة تمشي بمريلة مدرسة، ولا وقفتُ في طريقها، ولا أرسلتُ طرفي خلفَها. وتلك شيمةٌ تحلّى بها رفاقي، وكنّا نعدّ مَن يتجاوزُها منّا خسيسًا وضيعًا.

إنّ الخطيئة التي يمارسُها هؤلاء الذّئاب، يمتدّ عارُها في أجيال وأجيال، ويجلب الخراب والدّمار لكلّ من يتصلّ بها. وإنّ خلف كلّ بغيّ مأساة فتاةٍ طاهرة، وفاجعة أمّ، وقهر أبٍ، وليس أقسى في الحياة من دمعةٍ أبٍ مقهور.

وقد عرفتُ فيما قرأتُ وسمعتُ وخالطتُ قصةً أرسلُها للعِظة؛ لعلّ ذئبًا يقرؤوها، فتغلبه جيناته البشرية، فيرفق بالحَمَل التي بين يديه. أو تقعُ في يد فتاةٍ تُرِكَتْ في طريق الِغواية والفُحش فأسلمت نفسها، فتدرك أنّ في النّاس مَن لا يزال قادرًا أن يغفر لها، ويردّها إلى رياض الطّهر والعِفّة.

عرفها صغيرًا في الزّيارات العائلية المتبادلة، كانت تتقدمّه بصفّ دراسي، وهو يتجاوزها ببضعة سنتمترات، فنشأت بينهما صداقةٌ بريئةٌ بين طفلين حُفرت في الذّاكرة، صداقة لا ينكر المجتمع أمثالها في مرحلتهما العُمُرية.

حُدِّثتُ أنّها كانت وحيدة والدين يملكان خيرًا كثيرًا، فدُلِّلت وتعودّت نمطًا من الحياة، لم تستطع بعدُ أن تنزل عنه، وكان ذلك سببًا في شقائها وشقاء مَن حولها، أو سببًا رئيسًا من أسباب كثيرة، وأنّها حُرمت أخًا يقف بجانبها، ويحدِبُ عليها. حائطًا تستنِد عليه إذا مالت بها دُروب الحياة، أو ضاقت بها مسالكها. فكانت حِمًى دون حام.

مضتِ السّنون سنةً بعد سنةٍ، فكان من النّادر بعدُ أن يراها في منزلها، أو تراه في منزله، ولم يخرجِ الأمرُ في تلك المصادفات عن تحيّة مصحوبة بابتسامة. ومن تلك المصادفات أنّه طرق بابَها مرّة لشأنٍ من شؤون أمّه، ففتحتْ له البابَ، فسُرّ لرؤيتها، يقول عن ذلك اللقاء الخاطف: وكنّا في وقتها نتشارك البراءة، ما زلِنا أنبياءَ للطّهارة والعِفّة. فتملّكنا السّرور دون أن نتفوّه بكلمة.

ثم تمضي أيامٌ تجرّها أيامٌ يختبر فيها الشّبابَ الحياةَ، ويتوزّع فيهما قلبُه وأحلامُه، ويدبُّ في مجالس الشّباب حديثٌ خافتٌ عن فتاته، أنّ ذئبًا اغتال براءتها، وجدَها في مرعًى دون راعٍ، وقد فتنها اتّساعُ الخُضرة

فابتعدت عن رِفاقها، فأغواها ولاعبها، ثمّ تركها ترفس في دمائها، وغاب في النّاس. فيحارُ بين تكذيب الحديث وتصديقه، ثم تتابعُ أخبارُها التي يتسمّعها دون أن يبدي اهتمامًا لها، أو يُدلّ على معرفةٍ سابقةٍ بها.

ولا أدري وأنا أقلّب في صفحات الذّاكرة، كيف اتّصلتْ أسبابُه بها؟ غير أنّه يُروى: أنّها مرّت في زقاقٍ كان ينتدي فيه رفاقُه، فأشاروا باللّمز إليها، وكانت غاديةً لشأنها رفقة صبيةٍ صغار من جيرانها، فترقّب رواحَها، ثم وقف في طريقها في مكانٍ ناءٍ عن عين الرّقيب، فلمّا مرتْ تصنّع الدّهشة برؤيتها، وأظهر سرورًا بمرآها، وغازل لون ردائها الذي يبدو من خلل عباءتها، وعطرها الذي دلّ على أنوثتها، فتجاوزتْهُ، ولم تبالِ به. فعاد إلى رفاقه يجرّ من خلفه خيبَته، ويحاذر أن يشعر بمعركته الخاسرة أحدٌ منهم؛ إذ أقبل أحد الصّبية، ودسّ في يده ورقةً صغيرة فيها رقم هاتفها!!

ليالٍ عدّة أعقبت تلك الحادثة، دارت بينهما فيها أحاديثُ هاتفية ساخنة، وكان لها صوتٌ ساحرٌ، تغني له في ساعات الفجر الأولى وهو متعلّق بسماعة الهاتف في الظّلام، يتحدث بصوتٍ كفحيح الأفاعي حذرًا من والده، الذي يصحو لقيام اللّيل. وأدركه يومًا وهو غافلٌ، فجزّ له شعر ناصيته.

وواعدتْهُ يومًا وقد كان يظهر لها من أحاديث الحبّ جُرأةً وجسارةً، فوافاها في موعدها وهو يرتجف خجلًا، ويتلفت حولَه فيكاد يَدلّ على نفسه، ويرفع رأسه فيبصر نوافذ البيوت المتلاصقة، ورواشينها، فيتوهم خلفها أعينًا شاهدةً على خبيئة نفسه الآثمة. فلما تمثّل بين يديها، وكان أثاث مجلسها يدلّ على رخاء عيشها، وخلوه من غيرهما يدلّ على غفلة والديها، أو عجزهما العجز التّامّ عن ردّ انحرافها عن الطّريق الذي رسماه لها، وأمّلاه فيها. وبان لها من حديثهما المتبادل أنّ الشّاب جريءٌ في الحبّ ولكنه خجول في الحياة، فأخذت تتلاعبُ به، وتغويه بمنطقها وحركات جسدها، وهو لا ينتظم مجلسُه، وتضطربُ نفسُه، فألقت برأسها في حجره، فاستسلم لها، ومال عليها، ودنا منها ليَطعمَ قبلتَه الأولى.

ما زلتُ أذكرُ وقد مرّت سنون طوالٌ وأنا أستمع لقصّته كيف تحدَّث عن أثر هذه القُبلة في نفسه، يقول: أحسستُ بنارٍ تحرقني، حارّة حارقةٍ مُمزّقة لذكرى صداقة الطّفولة البرئية، لم أستعذبُ تلك القبلة إلا اهتزاز ضوء مصباح قديم، ثم انتفضتُ فزعًا، وخرجتُ من مجلسها وأخذتني رجفة الحُمّى وأنا أسير تحت حرارة شمس الظّهيرة.

ويذكرُ أنّه بعد أيّامٍ هاتفها، وذكر أنّه اختار أن يبقى وفيّا لصديقته التي عرفها وهو طفل. فأغلقتِ السّماعة دون أن تجيبه بكلمة.

لطالما تفكّرتُ في أمر هذه الفتاة، وأنا أستمع إلى قصّتها، كيف فقدت براءتها؟ مَن مِن لصوص الأعراض قطف ثمرتها؟ وهل كان يعي في أيّ وادٍ من أودية الهلاك ألقاها؟ وهل تفكّر كيف تفطّر قلبُها مرّات ومرّات من جرّاء مَن غادروا جسدها ولم يلتفتوا إليها بعد أن ملّوا منها؟ وهل فكّر يومًا في والديها؟ وفي النّهاية؛ رأيتُ أنّها كانت كغيرها من بنات جنسها، إنسانةٌ تهفو للحبّ، وترقّ للكلمة الشّاعرية التي تغازل أنوثتها، وساهم غياب الرّقيب أن تنفذ إلى قلبها، وأن يغتال الذّئبُ براءتها!!

ولكن الحياةَ معقّدة؛ ولأنّها معقّدة فقد تزوّجت بشابٍ رأى في ثراء والديها طوق نجاته من البؤس والحرمان. ولأنّ صديقي أخبرها ذلك اليوم أنّه اختار أن يبقى وفيًّا لعهد الطفولة؛ فقد تقاطعت دروبُ الحياة بينهما من جديد؛ فدخل حياتها مجدّدًا، منافحًا عنها، واقفًا في صفّها، حاجزًا بما له من دالّةٍ على زوجها أن يكفّ يده عنها؛ إذ كان يضربُها فتهرب من بيتها، ثم تعود حنينًا إلى ولدها، فيطردها زوجها. فيشفع لها، ويسعى في ردّها شفقةً ورحمةً بمَن لا ذنب له إلا أنّ أمَّه ضحية من ضحايا الحبّ.

كنتُ أناقشُه في تعقيد الأمر الذي وضع نفسَه في تضاعيفها، فكان يصرّح أنّه -بلا شكّ- يلومُها على حياتها، ولكنه لا يغفر أبدًا لمَن وضعها في أوّل هذا الطّريق، ذلك الذّئب الذي اغتال براءتها، ولا يغفرُ لوالدين أسرفا في دلالها، وغفلا عنها.

وأنّه ينصرف عنها غاضبًا، ثم يعود فيتأمّل سيرتَها، فيراها أمًّا يتوزّعها حبّها لأبنائها الذين هم حياتها، ونزواتها العاطفية التي تعبّر به عن نفسها ضدّ قمع زوجها، وتسلطه. ولعلّ لهذا البائس نزواته وغدراته كذلك، فقد كان في شبابه من أولئك الرّجال، فلعلّ هذا الذي يصيبه من الدَّين الذي للنّاس عليه!!

هذا الدّين الذي لا يأمن إن استقرضه أحدٌ أن يُطالب بسداده يومًا من الدّهر، ولا يغترنَّ ذئبٌ ألا أخوات له، فإنّ الدَّين لا يبلى، ويدَ الدّائن أعمى!!

الجمعة 2 ربيع الآخر – 29 نوفمبر

نقطة تحوّل!!

كنتُ في اللّيلة التي عُدتُ فيها من لقاء (نادي الزّهور) الذي كان في سطح دار أبي مهند عبد الله قدح بحي الرّصيفة، أتبيّن أين أقف على خارطة الحياة، وإلى أين أمضي؟

دخلتُ البيتَ مارًّا بغرفة والدي، وصعدتُ إلى السّطح، وجلستُ أعيد التّفكير والتّأمل، كان ذلك عام 1990، وكنّا نسكن في تلك الأيّام بيت أبي فيصل إسحاق فلمبان بريع الحدّادة، بصفة مؤقتة؛ لقد أتممتُ 18 عامًا وما زلتُ بلا هدف، وأتعثّر في دراستي ولا أتبيّن فيها سبيلا أمضي فيه. وصدح أذان الفجر وأنا غارقٌ في التّفكير، فلملمتُ نفسي، وقررتُ أن أتغيّر، فقد مللتُ كلّ شيء، مللتُ السّهر مللتُ البلوت، ومللتُ الرّكض خلف الكرة، ولم يكن في قلبي شجوٌ يُعكّر صفاء ذهني. فقررتُ أن أقصد المسجدَ القريب وأصلي مع المسلمين، فلما مررتُ بغرفة والدي انتبَهتُ أنّه لا زال نائمًا، فطرقتُ عليه البابَ، وأصغيتُ بسمعي فلما سمعتُ صوتًا؛ قلتُ: لقد أُذِّن للفجر. ثم مضيت.

يُحدّثني أحد إخوتي بعد زمن، عن أثر طرقة الباب هذه، أنّه وجد والدتي ضحًى متأثّرةً، فسألها عن حالها، فقالت: لقد أيقظ عدنان أباك لصلاة الفجر!!

بدأتُ أقلّب مكتبة والدي، أحاول أن أقرأ شيئًا يُعزّز ما بدأ يدبّ إلى قلبي من خشوعٍ وسكينة، وإقبال على الصّلاة، وانصراف عن اللّهو. فوقعت يدي على كُتيّب صغير (عذاب النّار وأهوال يوم القيامة) للشيخ محمّد متولي الشّعراوي (رحمه الله)، قرأتُه في ليلةٍ، وكنتُ أراجع والدي في أحرفٍ فيها، فأجد عنده جوابًا لحيرتي.

لا أذكر ما قلتُ وما قال لي، ولكنّي أتذكّر أنّ الشّعراوي حافظ على جذوة اليقظة بقلبي مشتعلةً، ظللتُ طوال هذا الفصل الدّراسي الأول لعام **1411**، بين مدّ وجزر، أواظبُ على الصّلوات في المسجد زمنًا، ثم أحنّ فجأةً إلى لعب الكرة ويشتدّ الحنين، فأذهب إلى فتيةٍ من طلّاب ثانوية الملك عبد العزيز سمير غويدي وبدر بلغيث وعبد العزيز الزّهراني ومعهم أخٌ بلوشيٌ نسيتُ اسمه، كان من ألطف الزّملاء. وإذا اشتقتُ إلى لعب البلوت؛ مِلْت إلى بشكة صغيرة يجلسون في كازينو الدّيوانية الذي تحوّل موقعه اليوم إلى مطاعم البيك بالعزيزية عند مركز عطا الله التّجاري السّكني، فأجلس إلى الرّفاق حلمي دحلان وشكري البورش وأحمد

بنجر. أذكر ليلةً سهرتُ على سطح منزل صديقي شكري البورش أستمع معه إلى (موسيقى هادئة)، ألطّف حنيني إلى الأغاني، وغلبني النّوم ليلتها فنمتُ، حتى أشرقتِ الشّمس.

وفي كلّ ذلك الذي يصيبني من التّذبذب، لم أتّجه مرّةً إلى رفاقي في (نادي الزّهور)؛ لأنّي أعلمُ في قرارة نفسي أنّ تأثيرهم (قدّس الله أرواحهم) سيكون قويًّا، ولربما هجرتُ كلّ ما أنا فيه، وعدتُ إلى سيرتي الأولى معهم من لقاء واحد.

بدأتُ أواظبُ في المدرسة على صلاة الظّهر في المصلّى، وأذكر أنّ صديقي عبد العزيز العبّاد الذي كان يجاور مقعدي طوال المرحلة المتوسطة بدأ يلاحظ تردّدي على مصلّى المدرسة، وكان الله قد منّ عليه بالهداية، وعليه سيما (المطاوعة) من بوادر لحية، وجبهة مشرقة. فبدأ يقبل عليّ من جديد، وإذا صادفني في الممرات أطال الحديث معي، وأذكر أنّه في أحد تلك اللقاءات أملى عليّ حديث فرحة الله بتوبة عبده، وأدّاها بطريقة خطابية مؤثّرة، وخاصّة حين ختم الجملة الأخيرة (اللهم أنتَ عبدي، وأنا ربُّك)، وقال: أخطأ من شدّة الفرح.

وممّا أذكره ولا أنساه أنّ شابًّا اسمه: حسين باشنين، تقدّم إليّ مرّة وأنا في مصلّى المدرسة برفقة عبد العزيز العبّاد، وأهداني محاضرةً لعائض القرني،

لا أذكر عنوانها، ولكني أذكر أنّي استمعتُ إليها. وكانت لجماعة التوعية بعض الأنشطة، منها: أنّي استمعتُ مرّة إلى كلمةٍ مختصرةٍ موجزةٍ ألقاها شابٌ صغيرٌ الحجم، ذكي الفؤاد، فصيح اللّسان، كان يتحدّث عن أهميّة الوقت، وضرورة استغلاله فيما ينفع، وأنّ المرء إذا عجز عن استغلال وقته، فعلى الأقل عليه أن يحرص ألا يضيع وقت إخوانه. وقد غدا هذا الشّاب بعد سنواتٍ عدّة أحد أصدقائي المقرّبين، أعني: فضيلة الشّيخ عدنان بن صفاخان بخاري، أبا عاصم.

عُلّقتِ الدّراسة بعد نهاية الفصل الدّراسي الأوّل لأجل ظروف حرب الخليج، ولم تنتظم الدّراسة في الفصل الثّاني إلا بعد إجازة عيد الفطر المبارك. أثناء فترة التّوقف هذه صرتُ أرافق والدي في صلاة الفجر، وهذا التّرداد اليومي أعاد إليَّ ذكرى حلقات التّحفيظ بالمسجد الحرام، يوم كنتُ منتظمًا في حلقات الأستاذ حسنين فطاني وأنا بالصّف الأوّل الابتدائي عام 1399 رُفقة أشقائي عثمان ومحمّد، ثم قطعنا الحلقة، ثم أعادني إلى حلقته والدي عام 1405 وألحق معي شقيقي إبراهيم الذي يصغرني بخمس سنوات، لم يطل مكثي في حلقته أكثر من ستّة أشهر، ثم هجرتها من جديد= فقررتُ أن ألتحق بحلقة من حلقات تحفيظ القرآن الكريم للكبار بمعهد الأرقم بن أبي الأرقم، فألحقوني بحلقة أستاذٍ أزهريّ اسمه: محمّد ربيع، وكان شيخًا كبيرًا مغتربًا يعيش وحيدًا في (رباطٍ

خيري). كنتُ ألتقي به في بعض الأحيان غادِيًا على قدميه إلى المسجد الحرام، أو رائحًا بعد صلاة العشاء إلى منزله، فلا أقتربُ منه، ولا ألقي عليه التّحية؛ لأنّه كان يمشي ويُحرّك شفتيه بالقرآن، وكأنّه في محفلٍ، فأكره أن أقطع عليه (جوّه).

وفي هذه الفترة كذلك انتظمت في دروس الشيّخ محمّد خيرو حجازي (الشّيخ مكّي)، كما أسلفتُ حديثَه في مقال سابق (رائحة الحبّ)، فلمّا انتهت حربُ الخليج، واستقرّت الأمور، وعادت الدّراسة؛ بدأتُ ألحظ طلبة معهد الحرم في صحن المسجد الحرام بعد صلاة الفجر، تلامذة صغار في الصّفوف الإعدادية (المتوسطة)، وشباب وكهول وشيوخ في جميع الصّفوف الدّراسية، وشدّني أنّهم لا يحملون مقررات دراسية مثل التي تعودّت على دراستها، وإنّما يحملون مجلداتٍ ضخمة كالتي أحملها لحضور درس الشّيخ مكّي.

كنتُ أذهب إلى المسجد الحرام كلّ يوم، ولا أغادره إلا بعد صلاة العشاء، وأحيانًا كنتُ أخرجُ من المدرسة، وأذهب إلى الحرم مباشرة. يلذ لي أن أجلس في أروقتها، وأراجع وردي من القرآن. ومرّة مررتُ نهارًا بحلقات معهد الحرم، فرأيتُ الشيخ يحيى عثمان الهندي في حلقة، والشيخ محمّد عبد القادر منديلي جارنا في شعب علي في حلقة،

والشّيخ صادق الأنصاري جار أبي فيصل في حلقة، فصرتُ أتنقل في الحلقات، أستمع إلى هذا مرّة، وإلى هذا مرّة. فاستمعتُ إلى الشّيخ موسى بوقس السُّكري، وإلى الشّيخ فهد العريني وكان شابًّا لَسِنًا.

بعد عدّة زيارات لهذه الحلقات؛ حزمتُ أمري، وقررتُ أن أترك ثانوية الملك عبد العزيز، وألتحق بصفوف معهد الحرم المكّي الشّريف من الصّف الأوّل الإعدادي (المتوسط). ومع بداية الفصل الدّراسي الأوّل لعام 1412 تجاوزتُ كلّ العقبات التي وقفت أمامي، وصرتُ طالبًا في الصّف الأولّ الإعدادي (المتوسط)، بمعهد الحرم المكي الشّريف، واستلمتُ من مستودع (رئاسة شؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي) الذي كان في السّوق الصّغير المقررات الدّراسية، وكانت على النحّو التّالي: تفسير الجلالين، والبرهان في تجويد القرآن، وفتح المجيد شرح كتاب التّوحيد، والكواكب الدّرية شرح متممة الآجُرّومية، وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام، والعُدّة شرح العمدة (عمدة الفقه)، ومختصر سيرة ابن هشام، والمفرد العلم في رسم القلم، ونزهة الفضلاء وروضة العقلاء، وكرّاستان في الخط العربي.

وفي أوّل يوم دراسي في المعهد التقيتُ بأحد زملائي بثانوية الملك عبد العزيز أبي معاذ أكرم محمد الوصابي، غير أنّه قدم إلى المعهد بشهادة

الثّانوية، وأنا التحقتُ بالمعهد بشهادة الابتدائية، وفي زملائنا من التحق بالمعهد بشهادة توصية بأنّه يحفظ القرآن الكريم، كانتِ الأمور تجري في إدارة معهد الحرم المكي الشّريف طبقًا لما يقرره مديرها فضيلة الشيخ صالح المقوشي (رحمه الله). وكان لقائي بأبي معاذ في أوّل يوم دراسيّ نواة صحبة وأخوّة ممتدّة إلى اليوم.

وهكذا قضيتُ في معهد الحرم في حلقاته المفتوحة ستّ سنوات دراسية (1411-1417) هي أجمل سنوات عُمُري، وأخصبها تأصيلا وتأسيسًا، وفيها اغتسلتُ من كلّ الماضي الذي طويتُه خلفي بكلّ ما له وما عليه. كنّا نجلس إلى مشايخنا، وأبصارنا تتعلق بالكعبة الشّريفة، فإذ وقفنا رأينا الطّائفين حولها. وإذا شعرنا بالظّمأ نقوم إلى برادات ماء زمزم، وإذا أُذن لصلاة الظهر انتظمت صفوفنا في أروقة المسجد الحرام، أو في صحن الكعبة المشرّفة، حيثُ تظلّنا سحابة باردة.

فسقى الله تلك الأيّام!!

الأحد 4 ربيع الأول - 1 ديسمبر

تكوين الشّخصية العلمية

لا أدّعي أنّي أحسنت استغلال السّنوات التي يُقال عنها: إنّها سنوات البناء، ولكني على الأقلّ أمضيتُها في أروقة المسجد الحرام، ولم أمضها عاطلا عن أمر دينٍ أو دنيا. أمضيتُها في قراءة كتب أهل العلم ومدارستها.

وكان من مُميّزات الدّراسة في معهد الحرم أنّنا نقرأ الكتب المقررة، ونختبر فيها من الجلدة إلى الجلدة. نختبر الفصل الأوّل في نصف المنهج المقرر من (20) درجة، ثم نختبر في الفصل الثّاني في كامل المنهج المقرر من (80) درجة.

فقرأنا في السّنوات السّتة، في التّفسير (تفسير الجلالين) الأجزاء السّتة الأخيرة، ثمّ قرأنا تتمة تفسير نصف القرآن الأخير في (تفسير النّسفي) وفي التّجويد قرأنا البرهان في علوم القرآن. وفي العقيدة قرأنا فتح المجيد شرح كتاب التّوحيد، والعقيدة الواسطية، والعقيدة الحموية، والرّسالة

التّدمرية. وفي الحديث قرأنا تيسير العلّام شرح عمدة الأحكام، وسبل السّلام شرح بلوغ المرام.

وفي مصطلح الحديث قرأنا التّحفة السّنية شرح المنظومة البيقونية، ونزهة النّظر شرح نخبة الفِكَر. وفي الفقه قرأنا العدّة شرح العمدة، والسلسبيل في معرفة أدلّة زاد المستقنع، وفي أصول الفقه قرأنا إمتاع العقول بروضة الأصول. وفي النّحو قرأنا الكواكب الدّرية شرح متممة الآجُرّمية، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. وفي البلاغة قرأنا كتاب البلاغة الواضحة.

وفي السّيرة والتّاريخ قرأنا مختصر سيرة ابن هشام وتاريخ الخلفاء. وفي الفرائض قرأنا الرّائد في علم الفرائض. وفي الأدب قرأنا نزهة الفضلاء وروضة العقلاء، وصيد الخاطر.

وقد جلستُ بين يدي عددٍ كبير من أهل العلم في هذا المعهد المبارك، من أمثال الشيخ محمد المنديلي، والشيخ صادق الأنصاري، والشّيخ حامد العبّاد، والدّكتور زكي الحسيني (رحمهم الله)، والشيخ يحيى عثمان، والدكتور عبد العزيز الحربي، والدّكتور فهد العريني، والدّكتور فواز القايدي، والدّكتور عبد الرّحمن الأهدل، والشّيخ أحمد الرّقيبة، والشيخ منصور الدّعجاني، والدّكتور إكرام الله إمداد الحقّ، والدكتور حمد الأزيبي والدّكتور حمدان

الشّمري، أدينُ لهم بالفضل -بعد فضل الله تعالى- في تعلم العلم والأدب والسّمت، ولكن كان لاثنين منهم أثرٌ عظيمٌ في نفسي، وأدينُ لهما بفضل بالغ، وهما الشيخ عبد الله الحاج الذي قرأتُ عليه شرح ابن عقيل عدا الجزء الثّالث الذي اشتكى فيه عينَه، فناب عنه الدكتور زكي الحُسيني، والشّيخ موسى سُكّر بوقس (رحمه الله) الذي قرأتُ عليه تفسير النّسفي.

رأيتُ في هذين الشّيخين شيئًا لم أره في غيرهما، أو لم أشعر به عند سواهما، شيءٌ لا أستطيع وصفَه، ولكنه تغلّغل داخلي. شيءٌ أحسستُه ووجدتُه فيهما وفي الشّيخ الخضر النّاجي (رحمه الله)، إنّه مزيجٌ من الإحساس بأنّك أمام بحر من العلم، ومن الخشوع والرّهبة، والقدرة على إيصال العلم، والسّماحة وسعة الصّدر والتّواضع.

قلّة هم العلماء الذين يتركون أثرًا عظيمًا في نفوس تلامذتهم، حتّى بعد رحيلهم، وخروجهم من محيط حياتهم. يظلّ هؤلاء التّلاميذ يذكرونهم، ويدعون الله لهم بأسمائهم، ومن أعجب ما قرأتُ في سير تراجم العلماء في هذا الباب: جلالة العلماء الذين يخصّون الإمام الشّافعي بالدّعاء، ويتحرّون له أوقات الإجابة، ويواظبون عليه في أورادهم اليومية.

قال يحيى القطان: أنا أدعو الله للشافعي، أخصه به. وقال: ما رأيت أعقل من الشّافعيِّ، وأنا أدعو الله له، أخصّه به.

وقال: أنا أدعو الله للشّافعيّ في صلاتي منذ أربع سنين.

وقال أبو بكر ابن خلّاد: أنا أدعو الله في دبر صلاتي للشّافعي.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما أصلي صلاة إلا وأنا أدعو للشّافعيِّ فيها.

وقال أحمد ابن حنبل: ستةٌ أدعو لهم سَحَرًا، أحدُهم الشّافعيِّ. وقال: إنّي لأدعو للشَّافعيِّ منذ أربعين سنة في صلاتي.

تخرّجتُ في معهد الحرم في العام الدّراسي (1418/1417)، وأنا والدٌ لطفلين (سفيان ومالك)، وكان من أثر هذين الاسمين قولٌ مأثورٌ للإمام الشّافعي في حديث أهل الحجاز، قال: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. يقصد بذلك إمام أهل المدينة في زمانه مالك بن أنس، وإمام أهل مكّة في زمانه سفيان بن عيينة، وكلاهما من شيوخه في الرّواية.

واتّصلت خلال سنوات الدّراسة بمعهد الحرم بعدد من العلماء في المعهد وخارج المعهد ممّن حضرتُ دروسهم ولقاءاتهم العلمية في أروقة المسجد الحرام وصحنه، ومساجد مكة المكرمة، والدّورات العلمية التي كانت تقام في الإجازات الصّيفية، والدّروس التي تعقد في مجالسهم الخاصة.

وزاملتُ في جميع ذلك عددًا من طلبة العلم النّجباء الذين استفدتُ منهم فائدة كبيرة، وفي ذكر أسمائهم حرجٌ بالغٌ خشية أن تسقط من ذاكرتي أسماءُ عددٍ من فضلائهم، فيعدّه من الجفاء والنّكران، إلا أنّي أذكر واقعةً طريفة وهي أنّ زميلي تركي الرّاجحي ذكر لي ونحنُ في الصّفّ الأوّل الإعدادي: أنّه يواظب على دروس الفقه للشّيخ الدّكتور طلال أبو النّور، فقلتُ له: مَن طلال أبو النّور؟ فقال :ما تعرف طلال أبو النّور، أحسنَ اللهُ عزاءك!!

فكانت هذه الواقعة سببًا في معرفتي بالدّكتور طلال أبو النّور، والذي اتّصلت به أسبابي العلمية والوظيفية إلى اليوم.

ولا شكّ أنّه حصلت أمورٌ خلال هذه السّنوات في معهد الحرم، ووقعت وقائع بين الطّلبة والمشايخ، وبين المشايخ فيما بينهم، وبين الطلبة فيما بينهم، وبين إدارة المعهد وكلّ هؤلاء= كانت محلّ عظة وذكرى، ولكني أمسكُ عن روايتها؛ لأنّ في القُرّاء مَن يغيبُ عنه أنّ هؤلاء وإن كانوا علماء وطلبة علم يعلِّمون الشّريعة ويتعلمونها، ويتصدّرون للنّاس وعظًّا وإرشادًا إلا أنّهم بشرٌ، يقع منهم ما يقع من آحاد النّاس، كما وقع من الصّحابة الكرام والوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين

أظهرهم= بعض الموبقات. والحسد والتّنافس والأنا أدواءٌ فُطِرت عليها النّفس البشرية، والسّعيد مَن عافاه الله، وأعانه على نفسه.

وجدَّتْ في حياتي أثناء هذه الفترة أمورٌ كادت أن تتسبّب في قطع دراستي فيه، ولكنّها استقامت بفضل الله، وتخرّجتُ وأنا أحمدُ الله على كلّ يوم قضيتُه فيه، وأشكر كلّ مشايخه، والعاملين فيه، غفر الله للأموات، ومدّ في آجال الباقين، وكتب أجرهم جميعًا، وتقبّل منهم.

بعد التّخرج اتّجهتُ إلى دار الحديث الخيرية، والتحقت بالصّف الأوّل الثّانوي رغبةً في قراءة الكتب السّتة؛ إذ كان (صحيح البخاري وجامع التّرمذي) مقررين في المرحلة الثّانوية، ففضلتُ لأجلهما الثّانوية على المرحلة العالية، وقد عورضتُ في هذا ممّن حولي، وبخاصّة من الشّيخ الخضر النّاجي (رحمه الله)، وأبدى استياءً بالغًا لهذا الاختيار، وقال لي وهو يهزّ رأسه: (هداك الله). وقد صدق (رحمه الله تعالى) في عتبه، فلم أجنِ من هذه المغامرة العلمية شيئًا ذا بال، ولم تناسبني طريقة الدّراسة في دار الحديث الخيرية؛ إذ كنتُ أشبه بطير وُضِع في قفصٍ، وحُبس فيه.

وظللتُ طيلة سبع سنوات كاملة منتسبًا في هذه الدّار المباركة على حرف (كفّ عفريت)، أدفع نفسي إلى صالة الامتحانات كلّ عام دفعًا والنّفس منقبضة كأنّها تصّعد في السّماء؛ حتّى تخرّجتُ في العام الدّارسي (1425/

1426)، وكان التّخرج بعد هذه السّنوات السّبع تدبيرًا إلهيًا يقضي به اللّطيف الخبير لمواصلة الدّراسات العليا (الماجستير والدّكتوراه)؛ وذلك لأنّ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة؛ أنشأت البرنامج المسائي لمن أراد مواصلة الدّارسات العليا عام 1427، وكان من شروط الالتحاق به: ألا يكون قد مضى على الشهادة العالية (البكالريوس) أكثر من ثلاث سنوات. ولو قُدّر أنّي التحقتُ بالمرحلة العالية بدار الحديث فور تخرّجي من معهد الحرم؛ لطافت شهادتي على الثّلاث سنوات (والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

الإثنين 5 ربيع الآخر – 2 ديسمبر

العينُ اليُمنى!!

– إنّه لا يحلّ أن آخذ منه شيئًا.

قالها معلم الكّتاب لنفسه، وهو ينظر إلى الصّبي اليتيم الذي قدمت به أمّه من اليمن إلى مكّة (لقد كِدْتُ أن أرفضَه لفقره، ويُتْمِه)، وأسلمته إليه في كُتّابه، ولكن الصّبي يحفظ كلّ ما يسمعه، ويعيده على وجهه. فكان يسمع تلقينه لصبيٍّ الآيةَ، فيحفظها، ويُملي عليهم ما يكتبونه، فإذا فرِغ من إملائه؛ وجده قد حفظ كلّ ذلك.

فصار يكلّفه في غيابه بترداد ما أملاه عليهم، فيحفظونه منه. ولقد كان حريًّا به أن يبذل للصّبي أجرة مساعدِ كُتَّابٍ، لا أن يأخذ منه أجرةَ تلميذٍ يتعلّم فيه.

كان في العاشرة حين قدمت به أمّه الأزدية من اليمن. خافت عليه الضّيعة عن محتده بمكّة، فهو يتّصل في نسبه بالمطّلب بن عبد مناف، عمّ عبد المطلب بن هاشم جدّ النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وُلد بغزّة، ثم انتقلت به أمّه إلى قبيلتها أزد اليمن بعد أن تيّتم وهو في الثّانية، ثم أقدَمْته مكّة وهو ابن عشرة ليتّصل بقريش.

كان فصيحًا، بليغ اللّسان، عذب المنطق، قد انصرفت همّته بعد أن حفظ القرآن إلى العربية، فرحل إلى هذيلَ في باديتها، يتعلّم كلامها، ويأخذ بطبعها وسليقتها، وكانت أفصح العرب، يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم، ثم رجع إلى مكة، وبدأ ينشد بها أشعار هذيل وأخبارها، وكانت هذيلُ تحضر مجالسه، وتصحح لغتها على منطقه. يقول الأصمعيّ: أخذتُ شعرَ هذيلَ عن الشّافعيّ.

فأبصره يومًا شيخُه مسلم بن خالد الزّنجي، فقال له: يعزّ عليّ ألا يكون مع هذه اللّغة وهذه الفصاحة والذّكاء= فقهٌ.

فاستشاره الشّافعيُّ، فأشار عليه بإمام دار الهجرة مالك بن أنس، فأقبل الغلامُ على صحائف الموطأ، فاستظهرها في تسع ليالٍ، وكلّ ذلك قبل أن يحتلم. واحتال بأسبابه حتى طرق دار مالك بن أنس، فخرج إليه، وكان شيخًا طويلا تتجلله المهابة والوقار، ولا يُقرئ حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجالس خاصّة، بل يجلس للنّاس في مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم في يوم معلومٍ فيُحدِّثهم.

ولكنّ مالكًا كان ذا فِراسة، فلما استمع إلى الغلام وهو ينتسب إلى المطّلب بن عبد مناف، ويقصّ عليه سبب خروجه من مكّة، تأمّله مالكٌ، وقال: ما اسمك؟

– محمّد.

– يا محمّد، اتقِ الله، واجتنب المعاصي، فإنّه سيكون لك شأنٌ. نعم وكرامة، إذا كان غدٌ تجيء، ويجيء معك مَن يقرأُ لك.

– لا عليك أن تسمع قراءتي، فإن سَهُل عليك، قرأتُ لنفسي.

فأعاد مالكٌ النّظر فيه، وتأمّله فما أبان له سنّه عن مقدرةٍ، فقال: اطْلُبْ مَن يقرأُ لك. فأعاد عليه الغلام: لا عليك أن تسمع قراءتي، فإن سَهُل عليك، قرأتُ لنفسي.

فأذِنَ له مالكٌ، فغدا عليه الغلامُ ليقرأ وكان يتهيّبه مهابةً عظيمة، فكلّما شعر بطول المجلس وأراد أن يقطع القراءة، قال مالكٌ: يا فتى، زِدْ. وذلك لحلاوة قراءته وقوّة إعرابه، حتى أتّم قراءة الموطأ في أيّام يسيرة.

كان الإمام أحمد يصف صوت الشّافعيّ إذا تكلّم بصوت الآلة الموسيقية، يقول: كان الشافعي إذا تكلَّم، كأن صوته صوت صَنْج وجَرَس، من حسن صوته.

لم يُتمّ الشّافعي العشرين من عُمُره، حين قال له شيخه مسلمُ بن خالد الزّنجيُّ: لقد آن لك أن تفتي.

وقدم أحمدُ إلى الحجّ، فرأى الشّافعيّ في صحن الكعبة المشرّفة، فاستمع إليه، ولزمه، وترك مجالس السّماع في حلقة سفيان بن عُيينة، فافتقده إسحاق بن راهُويه في تلك المجالس، وبحث عنه، فوجده في مجلس الشّافعيّ، فعاتبه: تترك مجلس سفيان، وتجلس إلى هذا الفتى الذي ما طرّ شاربه!!

فقال أحمد: اسكُتْ، فإنّك إن فاتك حديثٌ بعلو، تدركُه بنزول، ولا يضرّك ذلك في دينك شيئًا. أمّا إن فاتك عقلُ هذا؛ أخاف ألا تدركه، ما رأيتُ أحدًا أفقه في كتاب الله من هذا الفتى!!

لقد كان الفقه قفلا ففتحه الله بالشّافعيّ. وما مسّ أحدٌ محبرةً ولا قلمًا إلا وللشّافعيّ في عُنقه مِنَّة.

وعاتبَه يحيى بن معين مرّة حين مشى على قدميه والشّافعيّ على بغلته، فردّ عليه أحمد: لو أراد يحيى الفقه؛ فعليه أن يمشي من الجنب الآخر.

هذا محمّد بن إدريس الشّافعيُّ بلغ الإمامة في الدّين وهو دون العشرين من عُمُره= أقدّمه نموذجًا لكم يا أبنائي للهمّة العالية، وأرجو أن يكون علامةً بارزةً في حياتكم. وبخاصّة أنتما (سفيان ومالك)، فهذا الإمام كان سببًا رئيسًا في اختياري لأسمائكما، يقول الشّافعيّ: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز.

فكنتَ أنتَ يا سفيان المولود الأوّل الذي أطلّ على عالمي الصّغير فأضاءه بصرخته في الخامس من جمادى الأوّلى **1415**هـ. نسمةً مباركةً رقّقت حاشيتي، فحملتُك في يديّ، وانتحيتُ بك رُكنًا خاليًا وأذّنتُ في أذنك اليُمنى.

أنتَ الوحيد من بين إخوتك الذي أسمعتُه الأذان ليسكن بين يديّ اللّتين ترتجفان وهما تحملانك. كان قلبي يخفق بشدّة؛ إذ كنتُ أختبرُ مشاعر الأبوّة لأوّل مرّة.

لقد وُلِدْتَ في المنزل الذي دَرَجْتَ فيه فيما بعد، وعشتَ فيه طفولتك، لمّا شعرت أمّك بآلام الطّلق كان الوقتُ قد فات، ولم يعد بالإمكان أن نذهب بها إلى المشفى، فاجتمعت النّسوة بالدّار؛ أمّي وعمّتي وخالة أمّك وأمّ هيثم، وطبيبة من عيادات الدّكتورة سعاد، فلمّا أطلقتَ صيحتَك؛

اقتحمتُ هذا الجمع من النّساء، وحملتُك إلى المكتبة، وأذّنت في أذنك وأنت تبكي، حتّى سكنت رُوحك، وكأنّك علمتَ أنّك في أيدٍ أمينة.

وبعد أيّام ظهرت عليك علامات الاصفرار، فأخذنا نشمِّسك صباحًا ومساءً، حتّى ذهبت عنك خلال أيّام، كنتُ يومَها في الصّف الأوّل الثّانوي، وأتسبَّب في سيارة أجرة ليموزين (ليموزين الرّويزن)، ولكنّي لم أستمرّ في هذا العمل طويلًا؛ إذ كان شاقًّا بالنسبة لي، ولم أعهده، وكنتُ أتعرّض فيه لبعض الفتن.

أمّا أنتَ يا مالك، فقد ذكرتْ والدتُك أنّ استهلالك بالصّراخ كان متزامنًا مع أذان المغرب الذي آذن بدخول ليلة السّابع والعشرين من رمضان 1417، في سنتي الأخيرة بمعهد الحرم الشّريف. وُلِدْتَ في مستشفى النّور التّخصصي، ولم أتمكّن من رؤيتك إلا في اليوم التّالي، وعُدْتُ بك إلى البيت، حيثُ انتظم عقدُنا بك، وكان مقدَمُك بهجةً وعيدًا.

أمّا لماذا قدّمتُ اسمَ (سفيان) على اسم (مالك)، على الرّغم من أنّ الشّافعيّ قدّم مالكًا في عبارته: (لولا مالك وسفيان)؛ فلأنّ أهلَ مكّة لا يقدِّمون على أبناء مكة أحدًا، وسفيان بن عيينة مكّيٌّ فتقدَّم في التّسمية على مالك بن أنس (رحمهما الله، ورضي عنهما).

وأهلُ مكّة يُقدِّمون في الفضل مكة على المدينة، تمامًا كما يُقدِّم أهلُ المدينة في الفضلِ المدينةَ على مكّة، وقد سمعتُ بعض طلبة العلم الفضلاء يقول في حديثٍه: مكّة والمدينة عينان في رأس، والمدينةُ العينُ اليُمني!!

فهل تصدّقون هذا القول!! ما أعجبَ هذا القول!!

الثلاثاء 6 ربيع الأوّل – 3 ديسمبر

النّسخة غير المنقّحة!!

هكذا جئتُ وحيدًا

غائبًا عن كُنهِ ذاتي

ليس لي معنًى

ولا لي جِهَةٌ

ساذجَ الطَّبعِ

حدُودي وطني

أتسلَّى كأراجيحِ الطُّفولةْ

كنتُ طيشًا ..

أقرأُ الناسَ جميعًا

أنبياءْ

لم أكنْ أعلمُ أنِّيّ بُرعمٌ ..

وقريبًا

كلَّما شبَّ ارتقائي

وامتدَادي

كلما أتقنتُ رسمًا

للحياةْ!

هذه مصافحة أولى لأولى قصائد ديوان الصّديق الشّاعر أبي الوليد محمّد عمر فلاتة (عزف القناديل)، يعبّر فيها عن نفسه في (عزفٌ أول) فتجده يقول: أنّه وُلد ساذجًا بلا ملامح، وُلِد نبيًّا ويقرأ النّاس أنبياء، الوطن عنده حجَر أمّه وأراجيح طفولته. أمّا الحقيقة التي تكشَّفت له؛ فهي أنّه برعمٌ في هذه الحياة، وأنّه كلما مضى زمنٌ أخذت صورتُه تتشكّل، وأخذتْ هويتُه ملامَحها.

هذه الحياة أختصرها أنا في أنّ (الإنسان هو الحياة)، والحياة أكبر من أنّ نختصرها في شبرٍ من أرض، أو جواز سفر، أو هوية وطنية.

إذا فهمتَ الحياة غدوتَ إنسانًا حُرًّا، إنسانًا كاملًا، إنسانًا يُدرك أنّ هذه الحياة لم توجد عبثًا، وهذه الطبيعة لم تطبع نفسها، والذي خلقها أرادك (وأنت في جملتها) أن تحياها بروحٍ من الإله، أي: خليفةً له في الأرض، تتلمس مراد الله في كلّ شيء، فتقيمه، وأنت ترجو عونَه وتوفيقَه وسدادَه. فإذا أدركتَ هذه الحقيقة وآمنتَ بها عشتَ في لذة وسعادة، وإن كنتَ أفقر النّاس. وإن غابت عنك هذه الحقيقة؛ عشتَ في شقاء وبؤس، وإن كنتَ أغنى النّاس !!

يسافر في الثّالثة فجرًا أخي أبو هيثم إلى بانكوك، ليلتحق بأبنائه في فطاني جنوب تايلاند، وأفترضُ أنّ ابني مالكًا سيكون في استقباله ويقوم بأداء حقّ الوالد على ولده؛ ولم أوصه في هذا الأمر، وإنّه لأرجو أن يكون عند حسن الظّنّ كما عوّدني دائمًا هو وإخوته.

شقيقي أبو هيثم محمّد السّيامي، هو الابن الثّالث في عائلة (السّيامي) التي سكنت جبل أبي قُبيس، كان نسيجًا مختلفًا، نمطًا صعبًا، والأعسرَ فينا. حبَّب إليَّ القراءة، وعلّمني (لعبة البلوت) دون أن يقصد، وجدتُ في أوراقه تلخيصًا لأهم قواعد هذه اللّعبة، فحفظتُها وبدأتُ أراقب الذين يلعبون البلوت في منزلنا من رفاقه ورفاق شقيقي الأكبر أبي إياد، فألممتُ بقواعد اللعبة، وأدركتُها.

عرّفني أبو هيثم على أصدقائه الذين اصطحبهم معه إلى المنزل، وكان يقدّمهم إليّ بعد أن يفرغ من الحديث معهم، فتعرفتُ على ماجد وسعد وسمير وأيوب الموهوب وتان تان، ثم عرّفني على المغامرين الخمسة والشّياطين الـ 13، ثم على مارك توين وأجاثا كريستي وأرسين لوبين وأرنست همنغواي في (ثم تشرق الشّمس)، وأصبتُ في تلك الرّواية بحيرة في ذاكرة طفولتي عن الأنثى التي توزّعت بين حبّها لرجل لا يستطيع أن يلبّي حاجات جسدها، وآخر لا يرى فيها إلا جسدًا، فيُشبعها.

وعرّفني على منى غزال في ديوانها (المجنونة اسمها زهرة عبّاد الشّمس)، فأحببتُ من يومها شعر النثر. وبدأتُ أكتبه، وأقرأ فيه. ولا زِلتُ محتفظًا بنسخة أبي هيثم من ديوانها الذي صدر عام 1983م. وعلى الشّبكة العنكبوتية قصائد من الدّيوان بصوتها، والتي علقت صورٌ منها في ذاكرة طفلٍ سحره وقع الكلمة دون أن يفهم معناها (وأنتَ تصطاد الفراشات التي سقطت في دمي)، (خنتك في الذّاكرة).

كان الشّقيق الأكبر الذي عشتُ في ظلّه الأدبي، وأمسك بالقلم لأحاكي جمالَ حركة قلمه ورشاقتها، فكنتُ النّسخة المليئة بالعيوب. وكان الولد المدلّل لوالديه، والمفضّل عندهما، والأثير عند شقيقته الكبرى التي رَعَتْه

كابنها، ولا تزال ترعاه، وتخصّه بمزيد حنان، لا تملك له دفعًا ولا حيلةً، وكأنّه البِكْر في أبنائها.

كنّا ولا نزال نختلف في تناولنا للأمور، ولا نتفق في أمور كثيرة، ولا يستقيم لنا معالجة الأمور القليلة التي تتقاطع فيها أفكارنا، ولكن الحبّ هي اللغة التي نتوسلها بيننا، يحبّني على طريقته، وأحبّه على طريقتي، وأجده قريبًا وبعيدًا في الوقت نفسه، أحاوره فأجده رجعًا لصدى أفكاري، ويحاورني فأخفض رأسي ليربّتَ بيده عليه.

ورثتُ الأدب عنه وعن شقيقنا الأكبر أبي إياد شكري. والحديثُ عن أبي إياد ليس حديث الشّقيق عن شقيقه، وإنّما حديث الولد عن والده. فقد أخذ على عاتقه تهذيبي ورعايتي وتقويمي وحمايتي، ففي صغري أصبتُ بمرض البلهارسيا فكان يحملني ويتردّد بي على المستشفيات، قد تحمّل عبئي في سنّ مبكّرةٍ، ولم يتبرّم بي يومًا.

وفي مكتبته الأدبية الضّخمة كتبٌ لم أتمكّن أبدًا من الاستمتاع بها في تلك الفترة، ولكني عرفتُ أسماءها مثل (البخلاء) للجاحظ، الذي حاولت مرارًا أن أقرأه؛ لأنّ ماجدًا رسم لنا حكاياته، مصحوبةً بتعريفٍ عن الجاحظ، ورسم لنا صورته الجاحظة العينان. فأردتُ أن أستزيد من تلكم الحكايات، فلا أقدر أن أتهجّى كلمةً من لغة الجاحظ.

تخرّج أبو إياد في جامعة أمّ القرى عام 1403، وقد تخصّص في الأدب العربي، وكان شاعرًا يقرض الشّعر عن خلجات نفسه، وينشر بعض تلك القصائد في المجلّات السّيارة في تلك الأيام، وأصدر مع رفاقه مجلّةً أدبية أسموها (الشّروق)، كان أبو إياد يتولّى إخراجها وكتابة قصائدها على الآلة الكاتبة. وأذكر أنّي رأيتُ قصيدةً منشورة في (مجلّة سيدتي) عُنونِ لها بقصيدة (الأسبوع)، يذكر فيها الشّطآن المنسية وصوت النّوارس والرّياح التي تهب برائحة الحبيب، وذيلت باسم الشّاعر (البحّار، شكري عبد الرّؤوف)، فامتلأتُ به فخرًا. لقد امتلا هذا البّحار بحبّ البحر وطبيعته، فصوّره في قصائده فتاةً يتغزّل فيها، ويكشف السّتر عن محاسنها.

وكنتُ إذا جلستُ بين رفاقي أتقمّص صورته الشّاعرية، وأعيش الشّخصية بينهم، فأخي شاعرٌ ولا بدّ لي أن أكون بين الرّفاق شاعرًا، نبيًّا يبشِّر بالحبّ، ألم يبشِّر نزارٌ بالحبّ!! هكذا رأيتُ المنمنات التي ترسم المرأة في دواوين نزار في مكتبة أبي إياد.

ترك أبو إياد أثرَه على أبي هيثم، وترك الاثنان أثرهما عليّ في فكري ووجداني وسلوكي وأخلاقي، أفكّر بفكرهما، وأتكلّم بصوتهما.

سأل أبي أبا هيثم وهو صغيرٌ وأنا شاهدٌ: ماذا تريد أن تكون؟ فأجابه: أريد أن أصبح موهوبًا (كاتبًا). فقال الوالد: يكفينا موهوبٌ واحدٌ.

أستعيدُ هذا الحوار بينهما، فأفسّره بفخر أب بابنه الشّاعر، وإرادة إخراج ابنه الآخر من عباءة الشّقيق الأكبر.

هؤلاء (الأب الشيّخ الفقيه الشّافعي، والشّقيق الشّاعر النّحوي، والشّقيق الآخر الكاتب القاصّ الفنّان)= هم التّوليفة (المِكس) للملامح الرّئيسة لشخصيتي العلمية والأدبية والاجتماعية، وإليهم أعزُو الفضلَ –بعد فضل الله– في كلّ نجاح تحقّق، أو إنجاز تيسّر. ولولا أننا عائلة أحبّت الخمول في الذِّكر، والعُزلة عن الحياة الاجتماعية العامّة، لبرزوا خارج دائرتهم الاجتماعية الضّيقة.

ولكن الذي قطف ثمرة علمهم وأدبهم وجهدهم هو النّسخة غير المنقّحة عنهم.

الأربعاء 7 ربيع الآخر – 4 ديسمبر

لوني في الحياة!!

سأبعثُ للصَّدى لغَتي

بريدًا من شُعاعَاتي

وإخباتِي!

وأنحتُ غايتي بيديْ

على صخرِ الحقيقةِ ..

كي يَضِجَّ غديْ

حكاياتي مبعثرةٌ

وأسراري مخبأةٌ بها فكري

تغرّدُنِي مسافرةً

تُنيرُ الدَّربَ للآتينَ ..

من تيهِ الغَياباتِ!

أنا حرفٌ وموسيقا

وشلالاتُ أغنيةٍ ..

على صحراءِ قافيتي

وخارطةٌ من الأوجاعِ ..

سِربٌ من عذاباتِ !

وصوتي مُثْخَنٌ بالبوحِ ..

لوني في كتاباتي!

هذه القصيدة سمّاها محمّد عمر (صداي)، والعنوان يدلّ على أنّها حديثُ نفسٍ، يُعدّد فيه صفات حرفه، ويرسم ملامح أدبه، ويختار له رسالةً في الحياة تُسمع، وتسير في النّاس (سأبعثُ للصَّدى لغَتي) الحرف يخرجُ منه حوارًا ومناجاة ومعاناة، (بريدًا من شُعاعَاتي) فهو يردّد لغتَه في صدره، يسمع رجع موسيقاه حتى تعود إليه، فترنّ في أذنه. يتأكّد من

صفائها ونقائها، ووضوحِ إشعاعاتها، مرّة بعد مرّة، وكأنّه يتراسل مع نفسه يغدو البريد بينهما ويروح، (وإخباتِي!) الصّدق إحدى تلك الأصوات التي تسكن حرفَه في مناجاته لنفسه، وتمتزج به، (وأنحتُ غايتي بيديْ) حتّى تتمثل بين يديه شكلها، وتأخذ قالبها، تمثالا نحته من فكره، هو صنعة يده ونفخةُ روحه.

ولا يعيش (فلّاتة) في أفكاره في حقيقةٍ مطلقة، بل تموجُ داخله فتتكسّر (على صخرِ الحقيقةِ كي يَضِجَّ غديْ)، كل فكرةٍ لها قصة وحكاية ورواية، تتبعثر نهاياتها في بحار الحياة بحثًا عن الحقيقة (حكاياتي مبعثرةٌ)، فيعيد قراءتها مرّة بعد مرّة بعينٍ ناقدةٍ تزداد حِدَّة مع كل فجر جديد.

في هذه الرّحلات الليلية تتكوّن أسراره، وتتشكّل في فكره (وأسراري مخبأةٌ بها فكري/ تغرِّدُني مسافرةً/ تُنيرُ الدَّربَ للآتينَ من تيهِ الغَياباتِ!) يبدأ بعدها في التّعبير عن نفسه تغريداتٍ تسافرُ في مراكب المسافرين الحيارى الذين يسافرون بلا بوصلةٍ، فيأخذ عزفُه المتفرّد بدَفّتهم.

(أنا حرفٌ وموسيقا/ وشلالاتُ أغنيةٍ على صحراءِ قافيتي) عزفُه المنفرد حرفٌ يحمل فِكْرًا، وفيه شجنٌ فهو يُطرب، فيُطلق من الحناجر الآهات، ويذكي جَذوة النّار في قلوب السّاهرين، فيديرون كؤوسَهم المترعةَ

بالأوجاع. وموسيقاه تتدفّق في قوّةٍ وسلاسةٍ تدفُقَ الشّلال وأجيجَ صوتِه في الوادي، ولحرفه أصالة الصّحراء، ونقاؤها.

ثم محمّد عمر لسانُ الإنسانية في قضاياها التي تعبّر عنه كإنسان، فيتوزّع في كلّ شبرٍ فيها، يتقاسم مع الإنسان أوجاعَه، ويمتلئ بآلامه، فلا يكاد يُسمع له صوتٌ أو يُقرأ له حرفٌ إلا وهو مثقلٌ بكلّ ذلك بلون دم الإنسان (وخارطةٌ من الأوجاعِ سِربٌ من عذاباتِ!/ وصوتي مُثْخَنٌ بالبوحِ لوني في كتاباتي!).

هناك عامٌ تسرّب منّي بعد أن تخرّجتُ من المعهد، جرّبتُ فيه أن أتعرّف لنفسي لونًا من ألوان النّاس، فأنا ربّ أسرة تتكوّن من زوجٍ وطفلين. وكنتُ في معهد الحرم أعطى معونةً شهريةً من (صندوق الطّالب)، أضيفُ إليها المكافأة التي رُتّبت لي كمعلم تحفيظ القرآن الكريم بجامع نايض الرّوقي، فينقص المجموع عن الألفِ خمسين ريالًا. وبعد التخرّج لم تبقَ في يدي إلا ورقةٌ واحدةٌ زرقاءُ، لا تُسعف في متطلبات الحياةِ بلونٍ آخر.

فالتحقتُ بالمدارس الخيرية للجالية البورمية معلمًا، ولكن الحياةَ مع الأطفال لم تناسبني، فلستُ بالذي يصبرُ على هذه الحياة الشّاقّة في معالجة عقول الناشئة، وتصحيح دفاترها، ولم أتمكّن من الولوجِ إلى عالم هؤلاء الأطفال المنغلق على لغته القومية. ولقد نشأتْ لي مواقفُ طريفة مع طلّاب هذه

الجالية البورمية، أمسكُ عن حكايتها، حتّى لا يفهم عنّي أنّي أسخر منهم، أو أتندّر عليهم. وهي مواقفُ ذكّرتني بقصيدة إبراهيم طوقان حين عارض قصيدة شوقي (قم للمعلّم وفّه التّبجيلا)، التي يقول في أوّلها:

شوقي يقولُ وما دري بمصيبتي:

قُمْ للمعلم وفِّه التّبجيلا

أُقْعُدْ فديتُك هل يكونُ مبجَّلًا

مَن كان للنشء الصّغير خليلًا

ويكادُ يُفلِقُني الأميرُ بقوله:

كاد المعلمُ أن يكونَ رسولًا

لو جرّب التّدريسَ شوقي ساعةً

لقضى الحياةَ شقاوةً وخُمُولًا

وكنتُ فوق ذلك دون دابّة تحملني من بيتي في شارع الحجّ إلى مدرسة أبي بكر الصّديق في وسط سوق حي النّكاسة الشّعبي، فضاعت المكافأة

الرّمزية (750 ريالًا) في سيارات الأجرة التي تحملني ذهابًا وإيابًا. وأصل إلى المدرسة متأخِّرًا فأجدُ إدارةً حازمةً فيما لها وعليها، فأقبض المكافأة في نهاية الشّهر (350 ريالًا)، فازداد ضِغثًا على إبّالة.

مكثتُ في مدرسة أبي بكر الصّديق شهرين فقط، عرفتُ فيهما عددًا من المعلمين الفضلاء، وتركتُ في بعض طلّابي أثرًا أحمدُ الله عليه، وهو أثرٌ دلّ هو عن نفسه، ولا أحكيه إذا حكيتُه إلا عن لسان الطالب نفسه. فلستُ أدّعيه، ولا أختلقه.

بعد ذلك اتّصلت أسبابي بأحد الباحثين الشّرعيين الأكاديميين، ولا أدلّ على اسمه؛ لأنّه قد لا يرغبُ أن يُدلّ عليه. هذا الباحثُ وضعني على أوّل الطّريق الذي ما زلتُ فيه حتّى الآن، وصنع منّي باحثًا في علوم الشّريعة. كان يعملُ في ذلك الوقت على تحقيق كتاب من كتب غريب القرآن الكريم، فاصطنعني على وظيفة مساعد باحث، وأعطاني أوّل الأمر البطاقات البحثية التي استخرج فيها كلّ الأبيات الشّعرية التي في النّسخة الخطية، وطلب منّي عزوَها إلى قائليها، وإثبات المصادر التي أنقل عنها.

فجعلتُ أتردّد على مكتبة الحرم بشارع المنصور، ومكتبة الفرقان بحي العوالي، والمكتبة المركزية بجامعة أمّ القرى بالعزيزية، ومكتبة آل ثاني

بالجامع القطري بالعزيزية. ومن خلال هذه البطاقات البحثية تعرّفت على المصادر والمراجع، وتعلّمتُ كيف أتعامل مع الأبيات الشّعرية من خلال دواوين الشّعراء التي تميّزت بها مكتبة الحرم، فوقفتُ فيها على مصادر نادرة. ولم نكن في تلك الفترة نتعامل مع البرامج الإلكترونية، بل كان التّعامل مع المصادر مباشرة، من خلال النّظر في قوافي القصائد الشّعرية، ومن ثمّ أتتبع أبيات القصيدة بيتًا بيتًا حتى أقف على البيت المنشود، فأجد حينها من لذة المعرفة ونشوتها ما يجلّ عن الوصف. وهو شيءٌ لم نعد نشعر به مع (المكتبة الشّاملة).

وبعد أن انتهيتُ من البطاقات الشّعرية، بدأتُ أتعامل مع بطاقات المفردات اللغوية، ثمّ الأمثال، ثم أقوال أهل اللغة. ثم تسلّمتُ النّسخ الخطية، وبدأتُ أقرأ المخطوطة سطرًا سطرًا أقابل بين نسخه الخطيّة، وأثبتُ الفروقات بينها.

ثم بدأتُ أتدرّب على تحليل عبارات المخطوطة، وقراءة ما بين الكلمات، وتحت الأسطر، وأستخرج الإشكالات العقدية واللغوية في المخطوطة، وأثبتُ كلّ ذلك في مذكّرات، أراجع بها الباحث الرّئيس، وأذاكره فيها، فأثبتُ منها ما نتفق على صياغته في الحاشية. قضيتُ في صحبة هذه المخطوطة الأولى التي عملتُ عليها قرابة سنتين، ثم استمرّ التّعاون بيني وبينه

في أعمال أخرى ما يزيد عن عشر سنوات. أنجزنا فيها أعمالا عدّة، كل هذه الأعمال أودعت في خزائن مكتبات جامعة أمّ القرى، ولم يُطبع منها شيء.

عملتُ أثناء هذا التّعاون مع أبحاث جامعة أمّ القرى= باحثًا في موقع المنبر الإلكتروني، ثم باحثًا في إعداد برامج قناة المجد الفضائية، ثمّ باحثًا في مشروع تعظيم البلد الحرام، ثم باحثًا في مشروع (السّيرة النّبوية الشّاملة الكاملة)، ولا أزال فيه إلى هذه السّاعة.

وكتبتُ في فترات متباعدة مقالاتٍ في الصحف السّيارة في قضايا اجتماعية بأسماء مستعارة، فنشرت مقالاتٍ عن المرأة باسم (لولو الحربي)، ومقالاتٍ عن الأخلاق الاجتماعية باسم (ناثر العمّار)، وجمعتُ تلك القُصاصات في ملف أزرق اللّون، ضاع مني كما ضاع الدّفتر الأزرق.

ولم أتوقّف عن العمل في المجال البحثي أبدًا من حين بدأتُ أخطو فيه الخطوات الأولى التي كنتُ أتلمسُ فيها طريقي وأتبيّن معالمه، حتّى أثناء الفترة التي عملتُ فيها مديرًا تنفيذيًا لهيئة الإشراف على مدارس الجاليات الخيرية (1423/ 1426)، لم أتوقّف عن التّعاون مع جهات بحثية.

وهذه الخبرة البحثية التي كوّنتُها من خلال عملي الذي أتسبَّب منه؛ سهّل عليَّ إنجاز مشروعاتي البحثية في (الماجستير والدّكتوراه) في وقتٍ قصير، فقد أنهيتُ كلا البحثين في فترة زمنية لا يزيد كلّ منهما على حدة= عن خمسة أشهر. ولولا الإجراءات الإدارية المُعقدّة، وتعنّت المجالس البحثية في قبول الموضوعات الأكاديمية؛ لحصلتُ على (الدّكتوراه) قبل خمس سنوات على أقلّ تقدير، تحدُّثًا بنعمة الله عليّ في هذا اللون من الحياة. والحمد لله على فضله وإنعامه.

الخميس 8 ربيع الآخر – 5 ديسمبر

عزفُ القناديل!!

جاءتْ تسألني:

ما المنفَى؟!

المنفى أن يَحيَا قلبُكِ ..

مُنشَطرًا

نصفٌ مذبوحٌ

والنصفُ الآخَرُ مُلقًى ..

في أرصفةٍ ثكلى!

المنفى ..

صوتٌ حَجَريٌّ

لا يَحملُ حَنجرةً

وبنادقُ عطْشى

ويراعٌ ضلَّ محابرَه الغرَقَى!

المنفى ..

إبحارٌ في الَّلا إِبحارْ

ودُوارٌ

في عمقِ التَّيارْ

المنفى ..

جوعٌ يقتاتُ الرّغباتِ ..

بداخلِنا

وجَعٌ

يُبقِينا في قبضتِه

أسرى!

المنفى يا سيدتي!!

أن تغفوَ شمسُكِ ..

فوق شواطئ حزنٍ ..

ذاويةً

لا بجعٌ

لا سفنٌ عائدةٌ

لا غيمةُ أطفالٍ

لا مَرْفَا!

أبيات قصيدة (وجه المنفى) أقرأُ فيها أنّ الألم والوجع، أن تكون بين أهلك وعشيرتك، وأنتَ في المنفى، بعيدًا عن الوطن، بعيدًا عن ضوء عينيها. قلبك يخفق مع الرّيح، وجزائرك التي تنتقل فيها هو المنفى، لا شجنٌ فيها، ولا ذكرى. أحلامك التي تخبئها في دفاترك، هي الوطن، وواقعك هو المنفى. إنجازاتك ونجاحاتك التي لا يشاركك فيها مَن حفزّك إليها، هي الإخفاقات، وهي الشّتات. أصدقاؤك وإخوانك الذين يلتفّون حولك، وأنت لا ترى ابتسامتها، هو وجع شفرة جزار في نحرك. حروفك التي

تلحنها، وأنت في برجك العالي وحيدًا، والحقول تغني أناشيدها، وجهٌ آخرُ للمنفى.

وقبل أن أغادر ديوانه (عزف القناديل) أقف عند القصيدة التي حملت عنوان الدّيوان نفسه، وفيها يتجلّى رقّة الشّاعر، وتشفّ فيها روحه:

لروحِكِ تعزِفُ ..

هذي القناديلُ ..

تهفو لطلَّتِكِ المذهلةْ!

فهاتي المواويلَ من شَفتيكِ

مبللتَين بماءِ الغرامْ

سيبتلُّ ما بينَنا

ويندَّى الزَّمانُ بزخَّاتِه

يفوحُ خزامى!

لهذي القناديلِ في مُقلتيكِ ..

انْسِكابةُ ضوءٍ

لحضرةِ هذا الجمالِ ..

المخضرَمِ شِعرٌ

لهذا الدّلالِ المغنَّى

فصولُ حكايا بلا منتهى

وقعْتِ على نوتةِ الحبِّ ..

أوراقَ توتٍ

فسطَّركِ الحرفُ أُنثى

مغنجةَ الخصرِ أبهى ملاكٍ

تنام على ساعدي!

فكيفَ تدلَّى بخلفِكِ ..

ليلٌ بهيمٌ

ونام على وجْنتَيكِ القمرْ؟!

يمامةَ عُمْري

أقيمي هنا في فؤادي خيامَكِ ..

صبِّي عليه سلافَكِ نلهو معًا

كالرِّياحِ ..

على زقزقاتِ المطَرْ!

يمامةَ عمري

سأعزفُ وقعَ خُطاكِ ..

وأرسمُ نُضجَ اكتمالِكِ فيَّ

أُلَوِّنُ فيكِ زوايا المرحْ

وأنسجُ قُبلتَكِ الشَّاردَةَ!

يمامةَ عمري ..

سيرقُصُ معطفُكِ الآنَ ..

حين أجيءُ

ويورقُ شوقًا سريرُكِ ..

يهتزُّ شرشفُه القُرْمُزيْ

وتختلجُ اللحظةُ المشتهاةُ

ويَزْهُو على جانبَيها الألقْ

فكوني على أُهْبةٍ للمجيءْ؟!

فهو يتّصل بكل معاني الجمال في الكون، في كل صورها وأشكالها وتجلياتها، وأقرأ فيها من مفرداته، أنّه يراها جميعًا جزءًا منه، مكمّلةً لذاته، ثم يعود فيختزل هذه المعاني والصور كلّها في حبيبته التي يخفق حبُّها بقلبه، فهو متوحِّدٌ في الكون من خلالها.

عرفتُ محمّد عمر فلّاتة قديمًا عام 1420، قبل أن يقترن بأمّ الوليد التي يهديها ديوانه، وينعتُها بـ (شذا عُمري)، جمعتنا مجالس علمٍ وأدب، ثمّ بعد ذلك جمعتنا أسبابٌ مشتركة في (هيئة الإشراف). كان دومًا شخصًا يتّسم بالإيجابية تجاه الآخرين، عفّ اللّسان عن عيوب النّاس، ومثالبهم. نفسٌ رقيقةٌ هذّبها جمال القرآن الكريم وجمال اللغة العربية.

علاقتي بأبي الوليد تصلح مثالا لما تفرضه علينا أسباب الحياة من الاتّصال بالنّاس، أقصد بذلك الوظائف التي تفرض عليك نمطًا معيّنًا من الحياة الاجتماعية، تنتهي بانتهاء ارتباطك بذلك العمل. وعملي في (هيئة الإشراف) كان عملا إداريًا بحتًا، ولم يكن أبدًا قريبًا من حياتي الاجتماعية السّابقة، ولذلك عرفتُ من خلال (هيئة الإشراف) شخصيات كثيرة لم ألتق بهم أو أسمع عنهم قطّ من قبل، ثم حين غادرتُها، لم ألتقِ بهم أو أسمع عنهم أبدًا بعد ذلك، لم تتقاطع دروبنا مرّة أخرى.

ولا يعني هذا ألا يكون الإنسان حافظًا للعهد الجميل، فيحرص على حبال الودّ ممتدّة بينه وبين كل الذين ساروا برفقته يومًا ما في طرق الحياة المختلفة، وكان الجمال يسكنهم، بل حتى أولئك الذين أساءوا إليه، لا بدّ أن يعذرهم، فلديهم ما يبرر تصرفاتهم. والحياة تمضي، ولا بدّ أن يتخفّف الإنسان ممّا يتسبّب له في جلب الشّقاء، من مشاعر الحقد والغضب والرّغبة في الانتصار للنّفس، وأن يبدلها بالتّسامح والعفو والصّفح، ونسيان كلّ شيء. ولكن لا يعني هذا أن يسمح لهم أو لغيرهم بتكرار ذلك معه أو مع غيره.

شكرًا يا أبا الوليد؛ لأنّك كنتَ يومًا شيئًا جميلا في حياتي، ولا زلتَ تضيفُ إليها البهجة والفرحة. شكرًا لـ (عزف القناديل).

قراءة تجربتك الشّعرية في (عزف القناديل) كانت متعةً خالصةً في الفكر والعاطفة، حاولتُ أن أشارك أبنائي بعض الجمال الذي يسكنك كإنسان مجردٍ عن أي شيءٍ آخر، وأعطيهم من خلالك= صورةً عن أبيهم حين يعانق الحروف الجميلة، كيف يقرأ الشّعر؟! وكيف يتماهى فيه؟!

أبنائي الذين اتّصلوا بك يومًا، وأنِسوا إليك، فأنتَ من أهل وُدّ أبيهم.

الجمعة 9 ربيع الآخر – 6 ديسمبر

سطرًا جديدًا، يا ولدي!!

لديّ فكرةٌ قديمة عن الأنثى التي أسعى إليها، خلقتُها في فكري، وكتبتُها في دفاتري، ورسمتُ لها صورةً في كُراساتي. أنشأتُها من وجوه النّساء اللاتي تخيلتُهنّ في ذاكرتي، فكانت مزيجًا من ليلى العامرية ولُبنى الخُزاعية وعزّة الكنانية وبُثينة العُذرية في أشعار العُذْريين، وفرجينا وروكسانا ومارغريت وماجدولين اللاتي وصفهنّ المنفلوطي في رواياته وقصصه المترجمة.

ولكني أردتُ دومًا امرأةً تشبه أمّي روحًا في حنانها ورقّتها وخَفْرها، ولذلك تركتُ لها أن تختار لي زوجي بعد أن أوحيتُ لها. فاختارت ورضيتُ، وهكذا قُدّر لها أن تكون أمًّا لأبنائي. لا معرفة سابقة، ولا قصّة حبّ، ولا مناجاة هاتفية أو رسائل متبادلة خُفيةً، بل زيارات علنية، وتسللٌ من بيتها في ساعات الفجر الأولى.

تفجرّت اللقاءات والزّيارات في الفترة التي أعقبت كتابة العقد، وأثّرت تلك الزّيارات على انتظامي في معهد الحرم، وكنتُ يومها في الصّف

الثّالث الإعدادي **1414**، حتى آل إلى فصلي من المعهد، وتحويلي إلى الانتساب، فخسرتُ المكافأة الشهرية (**450** ريالًا)، غير أنّي واظبتُ على الحضور، والإفادة من الدّروس، والتّحصيل الجاد، فهذا كان الدّافع الأساس للالتحاق بالمعهد، وليست (المكافأة)، ثم في السّنة الأخيرة وأنا في الصّف الثّالث الثّانوي **1417**، أعيد اسمي في قائمة المنتظمين بشفاعة من الشّيخ الدّكتور فواز القايدي. لم يكن يعلم أحدٌ من المشايخ بقصّة تحولي من طالب منتظم إلى طالب منتسب، ولا أذكر كيف علم الشّيخ فواز بالقصّة؟ ولكنه فور أن علم، سعى في إعادة قيدي في كشوف الطلبة المنتظمين.

كنتُ طالبًا لا يملكُ قوتَ يومه بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، استجاب والدي لرغبتي في الزّواج من كثرة إلحاحي عليه، متجاوزًا بذلك اثنين من أشقائي محمّد وعثمان. وجهّز لي ملحقًا بسطح عمارته، يتكوّن من صالة كبيرة، ودورة مياه، وغرفتين. وباعت أم فيصل بعضَ حُليّها لتفرش الشّقة فرشًا كاملًا. واستدنتُ من صديقي الأستاذ سمير سباعي، تتمة المهر؛ إذ كان ذلك أقلّ ما يمكنني فعلُه في أمرٍ جللٍ كهذا. ووافق عليّ أهل زوجي (عائلة الكاري)؛ لوجاهة والدي في الفطانيين؛ إذ كانت سمعتُه تسبقه، وكان صديقًا لوالدهم المتوفّى. وأعارني صديقي الأستاذ عبد الرّحمن البشر سيارته؛ لأُقِلّ العروس وشقيقها إلى المحكمة يوم عقد

القِران، وكان أحد الشّاهدَين والآخر أبو جميل سالم اللحياني، وكان بصحبتنا الأخ الفاضل سعود العميري، الذي كان حاضرًا للشّهادة كذلك. وزُفّت العروس إليّ ليلة **15** من شعبان عام **1414**هـ.

عملتُ في تلك الفترة في وظائف عدّة، وقف إخوتي بجانبي، والتفّوا حولي، فعملتُ نائبًا في مسجد الأستاذ أبي إبراهيم خلف القرشي أنوب عنه في صلاتي المغرب والعشاء، وأخطبُ عنه أحيانًا.

وعملتُ سائق أجرة (ليموزين) كما أسلفتُ سابقًا، وبعد أن رُزقت بسفيان عملتُ في محل لخياطة الثّياب الرّجالية، أنشأه أخي العزيز أبو يوسف محمّد عابد القرشي وكان طالبًا وقتها في الجامعة. أراد من خلال هذا المشروع أن يمدّ لي يد العون، فعملتُ فيه أنا وأخي أبو معاذ أحمد البلوشي وهو الذي علّمني كيفية أخذ القياسات للزّبون، ثم تقييدها في دفتر، وإرسالها في نهاية اليوم إلى الخياط الذي يخيط الثّياب، ولم ينجح المشروع للأسف.

وعملتُ معلمًا لتحفيظ القرآن الكريم ثمانية سنوات من عام **1414** إلى **1421** في مسجد نايض الرّوقي، ثم التحقتُ بالفريق العلمي بمؤسسة المنبر الخيرية، وبدأتُ مسيرتي المهنية كباحث شرعي إلى اليوم.

بدأتُ أحفظ القرآن الكريم في سنٍّ مبكّرة، في حلقة الأستاذ حسنين فطاني بالمسجد الحرام عام 1399، وأنا بالصّف الأوّل الابتدائي. ولا يزال الأستاذ حسنين (أطال الله في عمره) معلمًا في تلك الحلقة، مرابطًا فيها، يرجو الخيرية الموعودة لأهل القرآن (خيركم من تعلّم القرآن، وعلّمه)، ولكني لم أتمّه حفظًا إلا في حلقة صديقي الأستاذ جميل سيّد كريم، ثم أنشأ لي حلقةً في مسجده، وألحق بحلقتي عددًا من الطّلاب، أذكر منهم: الشيخ عبد الله أحمد باعفيف، مؤذن المسجد الحرام. وكانت هذه بادرة من أستاذي الأستاذ جميل؛ لأنّه يعلمُ حالي، فأراد أن يكون خير عونٍ لي على مواصلة طلب العلم، وعدم الانقطاع بسبب الأعباء الأسرية.

وفي النّاس مَن تحلو لك الحياةُ بهم، كقطعة سكّر في فنجان قهوة، أو ورقة نعناع في كوب شاي. وجودهم في حياتك، أضاف إليها تميّزًا بشكلٍ ما، وجمالا بطريقة ما.

وفيما يتّصل بحفظ القرآن الكريم، فلا شكّ أنّ والدي حرص على أن أحفظ القرآن الكريم، وألزمني به في طفولتي، وبخاصة حين كنتُ في الصّفّ الثّاني المتوسط. واستخدم كلّ ما تفتقّ عنه ذهنه من أساليب التّرغيب والتّرهيب، فما أفاد ذلك معي. ولم أتجاوز فيما أذكر حفظ خمسة أجزاء في كلّ مرّة. ولكني حين غدوتُ إلى تلك الحلقات دون أن يدفعني إليها

أحد، أتممتُ حفظَه. ودفعتُ بأبنائي إلى حلقات تحفيظ القرآن الكريم، فتفلّتوا من بين يدي، وشددتُ عليهم حتّى خشيتُ أن يكرهوا هذه الحلقات وأهلَها، فأرخيتُ لهم. بينما مضى وليد ابن أخي محمد، إلى حلقات التّحفيظ، وأتمّ حفظه دون أن يعلم به والده.

ولذلك؛ فإنّ التّوفيق بيد الله تبارك وتعالى، وليست (شطارة) من الأب، فقد يبذل كلّ جهده ووسعه في أبنائه، فلا يوفّق. وآخرُ قد لا يبذل شيئًا من ذلك، ويكون الولدُ مباركًا مسدّدًا. وأذكر مرّة دعاني ريّان محمّد غلام وأخوه راكان وهما أبناء أحد إخوتي الذين توفّاهم الله في مرض (الفشل الكلوي) أعاذنا الله، لأحضر حفل ختمهما لحفظ القرآن الكريم في جامع البديوي بحي جبل النّور، وكانا قد أتمّا الحفظ في حياة والدهما، ولكن ظروف مرضه حال دون أن يحتفل بهما، فاجتمع في الحفل عددٌ من أصدقاء والدهما، فأسرّ إليّ أحدهم وهو أكاديميٌ (دكتور) في التّربية، وقال: رحمه الله تعالى، أفلح أن يحفِّز أبناءه لحفظ القرآن الكريم، وما أفلحنا.

وفي واقعةٍ طريفةٍ لا أزال أذكرها: شاركتُ مرّة في رحلة تربوية في جنوب المملكة، وصادف أن اجتمع في ذلك اللقاء عددٌ كبيرٌ من أبناء العلماء؛ لا يكاد يوجد فردٌ فيها، إلا وأبوه إمّا أحد أئمة الحرم أو قاضٍ أو أستاذ

جامعي في كلية شرعية، فلما انتهى المخيّم وخَبَرْنا أخلاق أولئك الشّباب المشاركين فيها؛ قال أحد المرّبين: لأوّل مرّة أتمنّى إنيّ ما أصير شيخ!!

كانت ردّة فعل منه، وإلا فالهداية من الله تعالى، وبيده وحده أزمّة الأمور. وما من أحدٍ يرضى مختارًا أن يكون ولدُه سيئ الأخلاق، ولا يبذل وُسعَه في تقويمه وتهذيبه.

بذل الأسباب في تربية الأبناء له أهميةٌ بالغة، ولكن الأمر بعد ذلك كلّه لله تعالى. والدّعاء والتّضرّع بين يد الله، وإظهار الفاقة وقلّة الحيلة، والتّجرد عن الحول والطول= من أهم أسباب استدعاء توفيق الله تعالى، وعونه، وتسديده.

وقد استمعتُ مرّة إلى لقاء أُجري مع أخي الدّكتور علي ساموه، بعد أن حقّق اثنان من أبنائه (حسن وحسين) المركز الأوّل، كلٌ في فرعه الذي شارك فيه في (المسابقة الدّولية في جاكرتا). فذكر عوامل عدّة، وأكّد على توفيق الله، وأنّه هو العامل الرّئيس، وكل الأسباب تبعٌ له، فكان لقاءً موفّقًا. وإنجاز هذين الاثنين (حسن وحسين) حفّز أحمدَ ومحسنًا، فهما يسيران بخطوات ثابتة على خطّ شقيقيهما، ويحفز أبناء فطاني بخاصّة والتّايلانديين بعامّة.

حين أردتُ إرسال ولدي مالك (بعد أن أتمّ دراسته الثّانوية) إلى بانكوك؛ ليختار لنفسه إكمال دراسته أو سببًا من أسباب الحياة= سألني أحد أصدقائي مستفسرًا: ألا تخشى عليه أن يفسدَ في بانكوك (سيئة السّمعة)، وهو بعيدٌ عن رقابتك ورعايتك؟

فقلتُ: لا يختار مسلمٌ طوعًا أن يترك مكّة بإرادته، دون أن يُفرض عليه ذلك بشكلٍ ما. والحافظ هو الله، ولو كُتِب عليه الفساد، فسيفسد وهو في الغرفة المجاورة لغرفة نومي. والواقع أقوى شاهد!! وحسبي أنّي نشّأتُه على الاعتزاز بدينه، واحترام النّاس، وتقديرهم، وأن يكون دائمًا طيّبًا مع غيره. والحافظ هو الله، لا يُضيّع –سبحانه– ما استودع من ودائع. ولو خُيّرت لاخترتُ أن يكونوا بجانبي، أستمتع بصحبتهم، ومطمئنًا في الوقت نفسه على حياتهم العلمية والاجتماعية. ولكن الحياة لا تُخيّرك؛ لأنّ المدبّر هو الله سبحانه، وعليك أن ترضى بقضاء الله، وتدبيره، وتتكيّف معه بما يرضيه سبحانه.

لا ينال المرء يا ولدي، في حياته كلّ ما يرجوه، وهذا أمرٌ ينبغي أن توطّن نفسك عليه، وأنّ الخسارة واردة. أن تخسر في علاقاتك الاجتماعية العاطفية، وأن تتراجع في حياتك العلمية أو العملية. لذلك لا تربط

سعادتك يا ولدي بامرأةٍ تشقى إذا غابت عنك، أو صارت إلى غيرك. أو وظيفة تضيق بك نفسك بفُقدانها.

الإنسان يتألم حين تتكسّر أحلامه على صخرة الحقيقة، وينفطر قلبُه إذا خذلَه الحبّ. ولكن يجب أن يتحلّى المرء في الحياة بالإيمان، تألّم وتوجّع، ولكن لا يطل بك هذا الأمر، وقم وتماسك. وخط بقلمك نقطةً في خاتمة هذه القصة، وابدأ سطرًا جديدًا.

ولا أخفيك سرًّا أنّ الأنثى التي خبأتُها في دفاتري وأنا صغير، وشكّلتُها من وجوه النّسوة اللاتي عرفتُهن في ذاكرتي الأدبية، ورسمتُ صورتها في كراستي= لا تزال حيّة بداخلي، تعيش في فكري، وتتجسّد في أحلامي. إذا أمسكتُ بالقلم وكتبتُ فإنّي أكتب بنبض قلبها، ومداد حبّها، وأنفاسها. وإذا قرأتُ فإنّي أقرأ بصوتها الذي يصلني مع الرّيح همسًا، ومع السَّحَر نغمًا، فيشرق النّور في فؤادي، ويرتجف دمي، ويرقُّ حتى يصفو شهدًا في فم الطّفولة الضّاحكة، والمراهقة الحائرة، والكهولة المطمئنة.

السّعادة يا ولدي، يجب أن تنبع من الدّاخل، اصنع سعادةً في روحك، تعيد إليك الطّمأنينة والأنس بالحياة. جزيرةً تفيء إليها، حين تضيق نفسُك، فتصفو فيها روحك.

واعلم، أنّ المركب الوحيد القادر أن يصل بك إلى جزيرة السّعادة، هو مركب الشّاكرين (بل الله فاعبد وكُنْ من الشّاكرين).

الأحد 11 ربيع الآخر – 8 ديسمبر

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء.. 6
اليوميات!!.. 7
الاختلاف في الحبّ... 9
لا تقف على الأبواب!!.. 11
ظلُّ النَّديم!! 15
العاطفة والثّرثرة... 18
قلبُه يخفق!!.. 22
التّجديد في الثّقافة!! 26
ما وراء الطّبيعة... 30
الحَرْفية!!.. 35

الكتب التي التهمتْ والدي!! 39
أداءُ حقّ ٍواجبٍ.. 43
تجريد الفِكرة 48
لستَ المحور!! 53
حكايات!! 58
أن تحسّ بالحياة!! 62
رحمك الله يا كيات 66
عيناكِ بصري.. 70
أنفاس القُرَّاء... 75
كان يا ما كان!!.. 85
من أوراق العمر!! 94
هياط خالد الجِنْدي!!.. 100
الدَّفتر الأزرق!!.. 104
الحيادة العادية!!... 110
إبادة الذَّاكرة!! 116
ورقةٌ صفراء!!.. 121
بدعةٌ عائلية!!.. 126
لا تغسل يدك!!... 130

حَدثٌ آخرُ!! 135
طريقةٌ في الحياة!! 140
من أصدقاء الطُّفُولة!!..................................... 144
أين قلّة الأدب؟ 152
كائن طفيلي... 157
وجه القمر 162
حدِّثني عن يومك يا أبي!! 168
رَقَّ طَبْعُه!!.. 172
ابحث عن الشّغف!!.. 177
لله درّهم!! 183
شعب يوليو.. 188
بدون عنوان.. 194
بيننا اتّصال!!... 200
الأفكار الحُرّة!!.. 205
ممارسة الصّمت 211
ما مات وما دُفن!!... 214
اللّقاء الشّهري.. 220
الصفحة الأولى!!... 226

رائحتها 226
الصّفحة ذاتها!!.. 232
جِدٌّ وهزلٌ!!.. 239
أعزِزْ عليَّ أبا اليقظان!!.. 247
مَثَلُ النَّخلة!!.. 254
رائحة الحبّ.. 259
ثرثرةٌ!! 266
لم تكتمل!! 270
الأسماء المستعارة.. 275
أنا عليّ!! 281
سحر البيان.. 287
صناعة الحياة!!.. 294
أوزاعٌ وشتات!!.. 300
في ذكراه، صلّى عليه الله.. 304
الحشود!!.. 309
وسائدي ملآى!!.. 316
الصّف الثّاني الابتدائي!!.. 321
بقيّة الحديث!!.. 328

امرأة من الزّمن الجميل!! 336
الأستاذ فخري علي رضا!!................................. 343
الحبّ رغم الجلد!! 348
التّجربة اليتيمة!! 354
سارعي للمجد والعلياء!!................................. 360
خارج المكان!!................................. 368
آخر السّطر، نقطة!! 374
سُقيا الرّوح!!................................. 381
يومُ أبي طه!!................................. 388
مُطِرنا بفضل الله!!................................. 394
منعطفٌ خطيرٌ!! 397
تفاصيل المنعطف................................. 403
الرّشفة الأولى!!................................. 411
كن مستعدًّا!!................................. 416
ما بعد الرّحمانية!!................................. 424
التّعليم الثّانوي المطوّر!!................................. 430
ليلى والحبّ!! 438
نقطة تحوّل!!................................. 445

تكوين الشّخصية العلمية 452
العينُ اليُمنى!! 459
النّسخة غير المنقّحة!!.................................. 466
لوني في الحياة!! 473
عزفُ القناديل!! 482
سطرًا جديدًا، يا ولدي!!................................. 491

نبذة عن المؤلف

من مواليد مكة المكرمة (حرسها الله) عام 1392هـ.
حاز الإجازة العالمية العالية (الدكتوراه) من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة في (الحديث الشريف وعلومه-فقه السّنة ومصادرها) عام 1440هـ.
النتاج العلمي والأدبي:
الأروقة (مجموعة قصصية في الحياة الاجتماعية بمكة)، صدرت عن مشروع تعظيم البلد الحرام، عام 1432هـ.
رائحة المطاط (رواية)، صدرت عام 1435هـ.
مشيخة ابن فضل الله العُمري (دراسة وتحقيق)، أطروحة الدكتوراه، نوقشت عام 1440هـ، ونُشِرت في المواقع الإلكترونية عام 1441هـ.
المُعْلِم بتخريج الأحاديث الواردة في كتاب (هداية المتعلّم وعمدة المعلّم)، صدر عن دار الميمنة المدنية، عام 1444هـ.

من الكتاب

هذه يوميات كاتب أدرك في الغُربة أنّ أبناءه لا يعرفون أباهم، فنزف مشاعرَه حبرًا على الورق .. كتبها قصصًا عن يوميات أبيهم الحاضرة، وذكرياته الماضية، وعن دائرته الاجتماعية التي تتسع مع الزّمن. لم يكن حديثًا عن والدهم كيف ينبغي أن يكون، بل كيف كان، طفلًا ساذجًا، ومراهقًا مغرورًا، وشابًّا نزِقًا، وعاشقًا مجنونًا، وأكاديميًا معلّمًا، ويشارك في البحث والتّحقيق، والأدب والرّواية. جهِدتُ في هذه اليوميات (سمات) -وأنا بعيدٌ عنهم- أن أكون حاضرًا في حياتهم، وأن أشكّل من أحرف أسمائهم الأولى سماتٍ يُعرفون بها، لعلّي بعد مفارقة دنياهم، لا أزال قادرًا على أن أسمعهم صوتي، وأبوحَ لهم بحبّي.

Bassmabook
0021277181493
Contact@darbassma.net